

التفائيس الكتابية

١ - ١١

مِنْ مَسَائِلِ الْإِمَامِ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَبِيرِ الْكَلْبَايُ
١١ رِسَالَةٌ فِي الْأَدَابِ وَالسُّلُوكِ

مَدْرَسَةُ الْإِسْلَامِ
غِيَاثُ أَبِي مُؤَدَّةٍ

مَدْرَسَةُ الْإِسْلَامِ
الشَّرِيفُ مُحَمَّدُ بْنُ جَمْعَةَ الْكَلْبَايُ



BOOKS - PUBLISHER

كتاب - ناشران | بیروت - لبنان

**MIN RASĀ'IL AL-IMĀM
MUHAMMED BEN 'ABDULKABĪR AL-KITTĀNĪ**

من رسائل الإمام
محمد بن عبدالكبير الكتاني

Author : *Al-Imam Mohammed ben Abdulkabir
Al-Kitani*

المؤلف : الإمام محمد بن عبدالكبير الكتاني

Editor : *Al-Sharif Mohammed Hamza Al-Kitani
and Ghassan Abu Soufu*

المحقق : الشريف محمد حمزة الكتاني
وغسان أبو صوفة

Classification : *Islamic Manners*

التصنيف : آداب وسلوك إسلامية

Year : *1438 H. - 2017 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

Pages: 336

عدد الصفحات : ٣٣٦

Size : *17 x 24 cm*

القياس : ٢٤ x ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

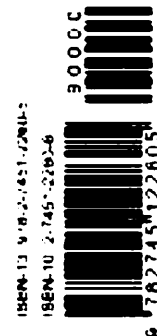
ISBN : 978-2-7451-2260-5

All Rights Reserved



Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel : +961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Ryad Al-Solah
E-mail: books.publisher@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة
2017 A.D. - 1438 H.



مِنْ مَسَائِلِ الْإِسَاءِ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَبِيرِ الْكِنَانِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لمجموعة الرسائل للإمام أبي الفيض الكتاني

بقلم: الشريف حمزة الكتاني

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد، فهذه مجموعة مباركة من رسائل مجدد الإسلام في القرن الرابع عشر، حجة الإسلام الإمام الحافظ المجتهد الشريف أبي الفيض محمد بن عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني الإدريسي الحسني، أجعلها فاتحة لسلسلة من مؤلفاته ورسائله التي تربو على ثلاثمئة وأربعين كتاباً ورسالة، ما بين مجلدات وورقات.

ولطالما كنت أرى هذه المؤلفات مطبوعة بالطبعة الحجرية القديمة، أو مخطوطة بعضها معرض للتلف، فأحزن لذلك كثيراً، وأنسخ بعضها بيدي حفاظاً عليها، خصوصاً المؤلفات التي أثرت عليها نوائب الزمان، فكنت أمكث الساعات في استخراجها وانتساخها.

ولطالما تجولت في مكتبة جدي والد والدتي شيخ علماء الرباط وسلا الإمام العلامة أبي هريرة عبد الرحمن بن الإمام المصلح محمد الباقر بن الشيخ

محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني، وتصفحنا كتب الإمام أبي الفيض المذكور رضي الله عنه، وصورتها وحافظت عليها، وقرأت ترجمة مؤلفها بلهف وتمعن، وبالأخص ما ألفه نجله الشيخ أبو الهدى محمد الباقر رحمه الله تعالى من المؤلفات في ترجمته وذكر مآثره.

وقد يسر الله تعالى لي أن تعرفت على صديقي وفي، وهو الأستاذ غسان أبو صوفة، ففاتحته بمسألة تحقيق بعض الرسائل للشيخ رضي الله عنه، فوجدت منه إقبالاً واستعداداً لذلك، وبالفعل قام بالعناية بها على وجه حسن. ويسر الله بعد ذلك تبني لجنة النشر بدار الرازي لذلك، فحمدت الله تعالى أن يسر أمنيته في طباعة بعض آثار هذا الإمام المجدد الكبير، وذلك لفوائد منها:

(١) أن الإمام جامع بين علمي الشريعة والحقيقة، أي التصوف، وقد ملأ كتبه بهذه المعاني التي اندثرت منذ أزمان.

(٢) أن المؤلف رضي الله عنه قام بحركة تجديدية على جميع النطاقات، علمياً ودعواً وجهادياً وسياسياً، خلدت مآثره على صفحات التاريخ، فكتاباته تعتبر توجيهاً وإرشاداً إلى الأجيال التي أتت بعده وتأتي، في اقتفاء نهجه واتباع إرشاداته.

(٣) أن الناس في هذا الزمان الذي تكالبت فيه الرزايا على الأمة الإسلامية بكل أنواعها وألوانها، في حاجة إلى تجديد علمي منهجي على جميع النطاقات، بإرشاد إمام على قدم أئمة السلف الصالح رضي الله عنهم، بعيداً عن النزاعات الناتجة عن الجهالة والعمى، والتي كانت نتيجة ربح من الزمان عمه الجهل والفوضى، وبعيداً عن فلسفات الحركات التي بينها وبين العلم كما بينها وبين النجاح، في هذا العصر.



موضوع هذه الرسائل

ولقد اخترنا في أول مجموعة أن تكون خاصةً بالسلوك ومنهجية تربية النفس وإقناعها فلسفياً بسلوك الطريق إلى الله تعالى، والمؤاخاة بين المسلمين، والتنبيه على أسباب تفرقهم وانكسار شوكتهم في هذه الأزمان المتأخرة.

والسلوك من أهم الواجبات التي أوجبها الله تعالى على بني آدم، بل بعد عبادته تعالى هو المراد من الشريعة.

والسلوك هو ما اصطُِّلِح عليه عند المتقدمين بالتصوف، نقل الإمام أبو العباس أحمد بن أحمد زروق البُرُنْسِي الفاسِي في مقدمته في التصوف:

وَلَسْتُ أَمْنَحَ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فِتْنٍ صَفَا فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي^(١)

والصوفي: هو عالمٌ عمل بعلمه على وجه الإخلاص، وإن لم يكن له علم فرجل اتبع وتآدب بأخلاق عالمٍ عمل بعلمه على وجه الإخلاص، وهو المصطلحُ عليه بشيخ التربية، ويُشترط فيه - أي: شيخ التربية - أن يكون رِيَّانَ من العلم، والعمل به، ومعرفةً دقائق النفس ومنازع الشيطان فيها، واستدلوا على وجوب شيخ التربية بأدلة كثيرة: من الكتاب: كقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، والسنة: كقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالْفَقْهُ بِالتَّفَقُّهِ»، وقوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»، وفعل الصحابة مع رسول الله ﷺ، ثم بإجماع وفعل السلف الصالح الذين هم القدوة في كل أمرٍ مُذْلَلِهِمْ، حيثُ ثبت عن

(١) وهو من أبيات مشهورة منسوبة لآبي الفتح البُشتي في تعريف الصوفي. الناشر.

جميعهم ملازمةً شيخ علم وتربية، وتعلمهم من أخلاق شيوخهم وتربيتهم قبل علمهم، كما قال الإمام عبد الواحد بن عاشر الفاسي:

يصحبُ شيخاً عارفَ المسالك يقيه في طريقه المهالك
والطريقة الصوفية: هي الاتباع الحق للكتاب والسنة، فمن زاغَ عنهما فليس من التصوف في شيء، وليس له فيه ناقة ولا جمل.

ومن يدعي حُبَّ الرسول ولم يكن بسُّته مستمسكاً فهو كاذبٌ
علامةُ صدقِ المرء في الحُب أن يُرى على سَنَنِ كانت عليها الحبائبُ
ولما كان مبدأ التصوف هو مراقبة الله تعالى في السر والعلَن وكل الأمور، صار لفظُ التصوف علماً على مقام الإحسان الذي هو كما في «صحيح مسلم» (رقم ٨): «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وهذه المعاني هي التي سَحُرَتْ لها هذه الرسائل التي من دَقَّقَ نظره فيها وشارك بقريحته وذمته في تأملها؛ وجدها على صغر حجمها كافية شافية، مبلغة الكثير من المراد، باباً إلى ما بعدها.

يزيدك وجهه حُسنًا إذا ما زِدْتَهُ نظراً



ترجمة المؤلف^(١)

هو مجدد الإسلام، ومرشد الأنام، وشيخ السنة وحامل لواء الفكرة الإسلامية ديناً ودولة، وناشر بنود السلام في جل بلاد المغرب، وبعض بلاد المشرق، وباعث الحياة في قلوب مئات الآلاف من المسلمين، والمجاهد الأمين الذي بنى لله تعالى ما يناهز مئة مسجد، ولم يضع لنفسه ولا لأولاده لبنَةً على لبنَةٍ، والشهيد الخالد الذي قاوم الاستعمار بنفسه وعائلته وطريقته مقاومةً عنيفةً بقيت مضرب الأمثال، وستبقى كذلك على مر القرون والأجيال، الحافظ المحدث المفسر الفقيه المجتهد الختم الأحمدى العارف بالله أبو الفيض محمد بن جبل السنة والدين الإمام الحافظ عبد الكبير بن الإمام العارف أبي المفاخر محمد بن العارف الصالح عبد الواحد الإدريسي الحسني الكتاني الفاسي.

* ولادته ونشأته :

ولد رضي الله عنه في منتصف ربيع الأول عام ١٢٩٠ هجرية، وتربى في كنف والده ووالدته اللذين لم يألوا جهداً في تربيته وتوجيهه الوجهة الصائبة. وقد دخل الكتاب صغيراً وحفظ القرآن الكريم وهو دون الحلم، ثم حفظ مهمات المتون، وكان ذهنه حاداً، ونظره دقيقاً، وحافظته قوية. ومما ساعده على النبوغ المبكر: بيئته العائلية التي كانت تزخر بعدة من أئمة العلم وتلاميذهم الفحول.

(١) جميع المعلومات الموجودة في هذه الترجمة مستقاة من المراجع المذكورة في نهاية البحث، خاصة «ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد» لمحمد الباقر الكتاني، ولذلك لم أثقل الهوامش بالعمود إليها.

فوالده هو جبل السنة والدين الإمام الحافظ الفقيه المجتهد الذي كان يستحضر أحاديث الكتب الستة كأصابع يديه، المفسر الكبير والعارف الشهير أبو المكارم عبد الكبير المتوفى عام ١٣٣٣هـ.

ووالدته هي السيدة العالمة المربية العارفة الصالحة فضيلة بنت الشيخ إدريس بن الطائع، الشريفة الكتانية الإدريسية الحسنية المتوفاة عام ١٣٣٤هـ.

وجده لوالده هو الإمام العارف الكبير رائد النهضة الحديثة والأثرية في المغرب أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الواحد الكتاني المتوفى عام ١٢٨٩هـ.

وجده لوالدته هو العالم العلامة المجاهد الغازي المدرّس العذل العارف أبو العلاء إدريس بن الطائع بن إدريس الكتاني المتوفى عام ١٢٨١هـ.

وخاله هو شيخ الإسلام في المغرب الإمام أبو المواهب جعفر بن إدريس الكتاني المتوفى عام ١٣٢٣هـ.

ونجل خاله شيخ حفاظ وعلماء عصره شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني المتوفى عام ١٣٤٥هـ^(١).

وغيرهم من العلماء العاملين من أهل بيته وبيته التي كانت تزخر بالعلم والعمل .
فنشأ وترعرع بينهم، وكان يحضر ما لا يقل عن عشرة دروس في اليوم، فيخرج من الفجر إلى جامع القرويين ولا يعود إلا بعد المغرب، وكانت الكعكة التي تعطيه أمه تبقى في جيبه الأيام أحياناً ولا يأكلها التهاء بالعلم.

وحكى عنه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الحاج السلمي - المتوفى عام ١٣٦٤ هـ - أنه كان يقرأ الكتاب ذا المجلدات في ليلة واحدة فلا يذهب عن ذهنه شيء منه بعد ذلك.

(١) جميع المذكورين أفردوا بالترجمة بتصانيف خاصة.

وكان يحمل في حقيقته الكتب الكثيرة، حتى كان شيخه الإمام أبو عبد الله محمد بن التهامي الوزاني - المتوفى عام ١٣١١هـ - يقول له: هَلَّا أُتِيتَ بحمارٍ يحملُ لك حقيقتك!

كما كان من قبل احتلامه مواظباً على الأذكار والصلوات، ومواظباً على الهَيْلَلَةِ سبعينَ ألفَ مرة في اليوم، ولفظة «سيدنا محمد ﷺ» ستين ألفَ مرة في اليوم وختمه في القرآن يومياً، إلى أن فاجأه الفتح الأكبر وسُكِبَت العلوم فيه سَكْباً.

ولم تمض عدة سنوات حتى نبغ في كثير من العلوم، المنطوق منها والمفهوم، ورزقَ التبخر في: علم التفسير وأدواته، وعلم السنة واصطلاحاته، ودقائق هذين العلمين، والأصول والكلام، والفقه حتى بلغ فيه الاجتهاد، وفلسفة التشريع، والتاريخ والسيرة، والأنساب، واللغة، والمعاني والبيان، والحكمة، والمنطق، والعلم الطبيعي والإلهي، وعلم الهندسة، والعلم الأرتماطيقي، وعلم الهيئة، والتصوف الذي هو السلوك والرقائق والمعارف اللدنية، وعلم الحروف، وغير ذلك^(١). فكان كما قيل:

إذا كان عونُ الله للمرءَ ناصراً تهياً له من كل صعبٍ مُرادُهُ

✽ شيوخه :

أخذ عن جملة من شيوخ وقته؛ فمنهم:

(١) والده الشيخ أبو المكارم عبد الكبير الكتاني، أخذ عنه التفسير بابن جرير الطبري والجلالين، والحديث بصحيح البخاري مراتٍ كثيرة، وصحيح

(١) بل قال في بعض رسائله وهي: «الفص المختوم في تفسير سورة الضحى»: «لا يكون المعارف عندي عارفاً حتى يحيط بخمسة آلاف علم على الأقل».

مسلم وشمال الترمذي وشفا عياض، والفقه بمختصر خليل^(١)، وكان يراجع عليه أكثر من عشرين شرحاً، ونظم ابن عاشر، والتصوف بـ«الفتوحات المكية»، و«عوارف المعارف»، و«المجالس المكية» لأبي حفص الميانسي المكي، و«إحياء علوم الدين» للغزالي، و«عهود» الشعراني و«مينته»، و«حكم ابن عطاء الله»، و«الإبريز» لابن المبارك اللمطي، الكل بالزاوية الكتانية.

(٢) خاله الشيخ أبو المواهب جعفر الكتاني أخذ عنه الحديث بصحيح البخاري والفقه بمختصر خليل، وعلم الكلام والسير.

(٣) ابن خاله أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، أخذ عنه السير بشمال الترمذي، و«دلائل الخيرات» بشرح العلامة المهدي الفاسي، والنحو بالآلفية في القرويين.

(٤) العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن التهامي الوزاني الإدريسي الحسني، أخذ عنه الحديث بالبخاري، والفقه بمختصر خليل بشرح الخُرشي والزرقاني وحاشية البناني، والتحفة^(٢) بشرح الشيخ التاودي ابن سودة، والنحو بالآلفية بشرح المكودي، والمحاذي لابن هشام وشرحه للأزهري، والمنطق بسلم الأخضر بشرح البناني، والبيان بمقدمة «التلخيص» شرح سعد الدين التفتازاني بالقرويين.

(٥) الشيخ العلامة الإمام شيخ الجماعة أبو عبد الله محمد بن قاسم القادري الحسني المتوفى عام ١٣٣١هـ، أخذ عنه الحديث بصحيح البخاري، والسير بشمال الترمذي بشرح جُسوس، وحاشيته هو على الشرح، والأصول

(١) مختصر خليل في مذهب المالكية هو أكبر متن فقهي مختصر، بلغت مسائله الفقهية مئة ألف مسألة ظاهرة، وأخرى مستتبة، قال العلامة محمد بن الحسن الحنجوي في كتابه «الفكر السامي» (٤: ٧٨): «وإنما ذلك تقريب، وإلا ففيه أكثر من ذلك بكثير».

(٢) تحفة الحكام للإمام ابن عاصم في أحكام القضاء، وشرح الإمام أبي عبد الله التاودي على التحفة أسماء: «حلى المعاصم لفكر ابن عاصم»، وهو مطبوع. الناشر.

بجمع الجوامع بشرح المحلّي وحاشية البناني، مع تلخيصه مباحث الآيات البيّنات^(١)، وكان يقرر في الدرس تعاليقه التي كتبها رحمه الله على المحلّي، وذلك بالقرويين، والكلام بصغرى الصغرى للسوسي، وشرح الشيخ الطيّب ابن كيران على توحيد «المرشد المعين» وحاشيته هو عليه، وذلك بالزاوية القادرية.

(٦) الإمام المؤرّخ الفقيه أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السّلاوي صاحب «الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى» المتوفى عام ١٣١٥هـ، أخذ عنه الفقه بعبادات «المختصر» وشرحه للدردير بالقرويين.

(٧) الإمام الفقيه شيخ الجماعة أبو العباس أحمد بن محمد ابن الخياط الزكاري الإدريسي الحسني المتوفى عام ١٣٤٣ هـ، أخذ عنه السير بشمائل الترمذي بشرح جثوس، والأصول بجمع الجوامع بشرح المحلّي وحاشية البناني، وكان يقرأ تقاريره التي كتبها هو على المحلّي والبناني بالقرويين.

(٨) الإمام العلامة أبو محمد التّهامي بن المدني كُنُون المتوفى عام ١٣٣١هـ، أخذ عنه الفقه بثلاثي «المختصر» بالخُرشي والزرقاني وحاشية البناني عليه بالقرويين.

(٩) العلامة الحافظ الشيخ أبو محمد عبد الهادي بن أحمد الصقلي الحسيني المتوفى عام ١٣١١هـ، أخذ عنه السير بهمزية البوصيري، وشرحها لابن حجر الهيتمي^(٢) بالقرويين.

(١٠) الشيخ العلامة أبو محمد عبد الله بن حَمْدُون البناني المدعو: فرعون النحوي. المتوفى عام ١٣٠٧هـ، أخذ عنه النحو بالألفية، وشرحها للمكودي بخلوة القرويين.

(١) للإمام ابن قاسم العبادي، وهو حاشية على شرح جمع الجوامع، مطبوع في مجلدين. الناشر.

(٢) المسمّى بـ «المنع المكيّة في شرح الهمزية»، وهو مطبوع. الناشر.

(١١) العلامة الكبير أبو محمد عبد العزيز بن محمد البناني المتوفى عام ١٣٤٧هـ، أخذ عنه العلوم الاثني عشر بقانون اليوسفي، والمنطق بالشلم وشرح البناني وحاشيته لقصارة.

(١٢) العالم الشيخ أبو عبد الله محمد الريفى الفاسي، أخذ عنه التوقيت، والحساب، والهيئة، والنجوم، والفلك، برسالة المارديني الشهيرة. وغيرهم.

وكان من علو همته يطالع على الدرس كتب المتقدمين في ذلك الفن، وكان والده يسميه بالفقيه لشدة استغراقه في حبة الدراسة بعلوم الآلة.

وبعد جهاده النادر في الدراسة اعتكف على مطالعة الكتب النادرة في مختلف الفنون والعلوم، فكانت أول أعماله صباحاً وآخرها مساءً.

وأما تلقيه لعلم التصوف فكان على يد والده الذي أحى الحقائق ووطد الطرائق، وجدّد رَسَم القوم بعدما كاد يخبو، وأبان معالم التصوف بعدما أشرف جواد سوابقه أن يخبو، قدس الله سره، فعلى يده تربى وقطع عَقَبات السلوك، على نمط أهل التصوف الإسلامي، ومنه استفاد ما لا يُعد ولا يُحصى من فوائد شيوخ التصوف الحقيقيين الذين اجتمع بهم في رحلاته العديدة بالشرق والمغرب، تلك الرحلات الواقعة في القرن قبل الماضي، والتي كان لها أثر كبير في ربط المغرب بالشرق، وهو الذي لَقَّته عدة أرواد كانت سبباً في إشراق قلبه بالإمدادات الإلهية والفيوضات المحمدية؛ وبعد ذلك كان تلقيه من الحضرة النبوية، كما قال في تائيته الشهيرة:

أتينا بغزل الفتح من حضرة الغنى بإذن رسول الله شيعي وعمدتي
فعنه أخذنا ما تدفق جَهرةً على صغر الأجرام حين شيبتي

وقد ذكر عن نفسه أنه كان يلازم ذكر سبعين ألفاً من الهَيْللة، وستين ألفاً من الاسم الشريف سيدنا محمد ﷺ وعلى آله - كما تقدّم ذكره - بتوجّه تام إلى

أن فاجأه الفتح، واجتمع بالنبي ﷺ بقظة^(١)، وأخذ عنه دعوته الإسلامية وطريقته الكتابية، وأذن له في الإرشاد، ودعوة الخلق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ليكون مجدد الإسلام في القرن الرابع عشر، ويحيي من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما اندثر، تصديقاً لما أخرجه أبو داود في «السنن» والحاكم في «المستدرک» والبيهقي في «المعرفة» وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها».

* قيامه بالدعوة والإرشاد:

قام رحمه الله تعالى بالدعوة إلى الله تعالى، وتعليم الناس، والخروج إلى البوادي والجبال من أجل ذلك، حتى إن البربري والأعرابي الذي لم يكن يجيد ذكر الشهادتين أصبح يحفظ القرآن الكريم ويواظب على الأوراد والأذكار النبوية وملازمة دقائق السنن التي لم تكن معروفة ومتبعة في حواضر الأمة الإسلامية ذلك الوقت بله غيرها.

ورباهم على الأخلاق الإسلامية المحمدية، وحفظ السنن، وتعلم الفقه، والجهاد في النهار ضد المستعمر، والصيام، والقيام في الليل تهجداً إلى الله تعالى.

وانطلق الناس إليه أفواجاً أفواجاً في سبيل ذلك، حتى تتلمذ له بعض شيوخه وأبناء الملوك بلة من دونهم، وأحيى في بلاد المغرب رسم الإسلام بعدما كاد

(١) اختلف العلماء في إمكانية الاجتماع بقظة برسول الله ﷺ، وألف في نصرة ذلك الحافظ السيوطي مؤلفاً مستقلاً، ونصر المترجم ذلك طويلاً في كتابه «غيبنة الكون»، ومن أدلة المجيزين ما صح عنه ﷺ: «من رأي في المنام فيراني في البقظة»، رواه البخاري (٦٩٩٣)، واجتماع رسول الله ﷺ بالأنبياء في الحياة الدنيا كما في أحاديث الإسراء والمعراج، ومعلوم أنه: ما كان معجزة للنبي جاز أن يكون كرامة للولي.

يخبو، ونشر العلوم، وانتشر تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في شمال إفريقيا والحجاز واليمن والشام ومصر والهند وجاوا وغير ذلك من البلاد، داعين إلى التزام الكتاب والسنة والشعائر المحمدية، والابتعاد عن البدع والأهواء والضلالات والعمالات.

حتى قال فيهم شيخ الإسلام في الأستانة الشيخ محمد المكي ابن عَرُوز في رسالة مطولة للمحافظ عبد الحي الكتاني: «إن في الزوايا خفايا، وفي الرجال بقايا، وإن أولئك السادات الكتانيين هم الطائفة القائمة بأمر الله ورسوله، هم العلماء بالله ورسوله وبالدين، هم المعانون من الله في أوقاتهم وكتبهم، هؤلاء الذين كلامهم أشد وقعاً على المبتدعة من مواقع المترليوز^(١)، لا المكي بن عزوز...».

* ابتلاؤه بمرآكش:

ولما كثر أتباعه، وفاق مشايخه في العلوم بَلَّةَ مَنْ دونهم، كثر حاسدوه ومُبغضوه، حتى أوعزوا إلى السلطان عبد العزيز بن الحسن العلوي الحسني - ملك المغرب وقتذاك - أنه يريد الملك وأنه زنديق، فاستدعاه السلطان إلى حاضرة مراکش، وذلك عام ١٣١٤ هجرية، وأكرمه، ثم دعاه إلى المناظرة مع كبار علماء الوقت، واستمرت المناظرة في شتى العلوم لمدة ثلاثة أشهر، وانتهت بانكسار أعدائه وانتصاره ضدهم الانتصار الكبير مما هو مدوّن في كتب التاريخ، وكتب شيخ الإسلام الشريف ماء العينين الشنقيطي الإدريسي الحسني وثيقته الشهيرة في تبرئته، والتي ضمنها الملك في مرسومه الملكي بتاريخ ١٥/٧/١٣١٤هـ، وقسم مخالفه إلى ثلاثة أقسام:

- (١) قسم حاسدون.
- (٢) قسم لم يشربوا مشربته.
- (٣) قسم لم يبلغوا ما بلغه من العلم ولم يتعمقوا في علوم الشريعة.

(١) المترليوز: مدفع رشاش كان يُستعمل في بداية القرن الهجري المنصرم في الحروب.

فكان ذلك مدعاةً لتعظيمه أكثر وأكثر في أعين العامة والعلماء والمَلِك،
الذي اصطفاه بعد ذلك مستشاراً له .

وقد حج عام ١٣٢١ ، واجتمع بكبار علماء المشرق واستجازهم واستجازوه،
حتى إنه كان يخطط الليل بالنهار في كتابة الإجازات لهم، وزار الشريف عون الرفيق
بمكة المكرمة ونصحته، وفرح به الشريف غايةً حتى كان يقوم إجلالاً له ويقول:

قيامي للعزیز عليّ فرضُ وتركُ الفرضِ أنى يستقيمُ
وهل أحدٌ له عقلٌ ولُبٌّ ومعرفةٌ يراك ولا يقومُ ؟!

ووشى له البعض فيه، فقال له: اسكت يا حمار، وهل مثلُ هذا يكون كما
تقول ؟!

ودرّسَ في المسجد الحرام فترةً هو ومجموعةً من علماء تلاميذه، وأخذ عنه
الجمُّ من الحجيّج وعلماء الحجاز العلمَ والإجازةَ وطريقته الأحمدية الكتانية .
وزارَ المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان احتفاءً أهلها
به كما كان بمكة المكرمة .

وفي مصرَ - وهو في طريقه إلى الحج - درّس بالأزهر درساً في شرح حديث:
«بني الإسلام على خمس»، فأوعبه من أحد عشر مطمحاً دُهِشَ جميعُ علماء
الأزهر له وبُقُوا يتناقلونه أكثرَ من ثلاثين عاماً، قال الشيخ أحمد رواق الشامي
في قصيدة في مدحه:

والأزهرُ المعمورُ من درسيهِ قد كاد من فرحٍ به أن يطير
وأخذ عنه كثيرٌ من علماء مصر وعائيتها الإجازةَ والطريقةَ وتلمذوا له .

وكذلك التقى بالخديوي إسماعيل، واجتمع به فتراتٍ طويلة، وحاول
التسيقَ بينه وبين الدولة العثمانية والدولة المغربية لمواجهة الهجمة الاستعمارية،
غير أن محاولاته باءت بعد ذلك بالفشل لغلبة الدنيا على القلوب .

وقد دوّن رحلته هذه العلامة الشيخ عبد السلام بن المُعْطِي العَمْرَانِي الإدريسي الحسني، وأسماها: «اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية».

* الرجوع إلى المغرب واستشهاده :

وفي تلك السنة وهي عام ١٣٢٢ عاد إلى المغرب وكان علم حقّ اليقين نية المستعمر في احتلاله، فبدأ يرشد القبائل للجهاد وتوحيد الصف ونزع ما بينها من غل، ونشط أكثر في نشر العلم والمعرفة والتربية والسلوك بين الناس.

وفي عام ١٣٢٥ بعد أن بدأ يدبّ داء الاستعمار في المغرب والاحتلال، وحاكم الوقت لم يكن بذلك المهتم، بل كان ذائبا في شهواته، عمل بما كان لديه من نفوذ ومركز علمي على جمع علماء فاس والقضاء بخلع السلطان عبد العزيز وتولية شقيقه العالم السلطان عبد الحفيظ بشروط اشتراطها وكتبها هو بموافقة علماء المغرب ذلك الوقت، فتمت البيعة على شروط الشورى والجهاد، وكان ذلك بتاريخ ١١/٢/١٣٢٥هـ.

وفي عام ١٣٢٦ جمع زعماء القبائل المغربية بمكناس، وعقد بينها رابطة الصلح والسلام والأخوة، وأن لا تطالب قبيلة الأخرى بدم ولا بغيره، وبقيت هذه الحالة من السلام إلى الآن بحمده تعالى، فلم تعد القبائل تسطو على بعضها وتحارب بعضها لأدنى سبب.

ثم كان ما كان مما هو مذكور في كتب التاريخ من خذلان السلطان عبد الحفيظ - غفر الله له - لشروط البيعة وتقريبه الأجانب، ثم خذلان العلماء الذين وقّعوا على العارضة للشيخ رضي الله عنه، ونصح كثيراً وما تم النصح، ثم حاولت فرنسا إغراء الشيخ رضي الله عنه بالمال والنفوذ من أجل أن يسكت عن دخولهم المغرب، وذلك عن طريق قنصلهم «كيار»، فرفض وجمع أخص الناس من أهله وأتباعه وهرب بهم نحو الجبال للجهاد بنفسه وأتباعه، وإزالة ما شاب الأمة من الظلم والهوان.

غير أن الاستخبارات الفرنسية كانت بالمرصاد، فأخبرت السلطان أن الشيخ رضي الله عنه، أراد القيام عليه، فأرسل إليه جيشاً أدركه قبل الوصول للجبال وأرجعه على الأمان.

ثم - وفي قصة طويلة - وبعد خذلان الأمان، عمل السلطان على جلد الشيخ رضي الله عنه بالسياط إلى أن وقع شهيداً، وذلك صبيحة يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الثاني عام ١٣٢٧، وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً، وأخفى جثمانه رضي الله عنه.

قال العلامة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي: «فقد اقترن استشهاد هذا العالم الجليل باستشهاد أمة كاملة، وهي أمة المغرب». وكان مثاله في نهاية الأمة كمثال جده^(١) الإمام الشهيد الحسين بن علي عليهما السلام في بداية هذه الأمة، شهيد كربلاء^(٢).

* تلاميذ الشيخ رضي الله عنه :

ترك الشيخ رضي الله عنه تلاميذ كُثراً في المشرق والمغرب كانوا أئمة التجديد على مختلف النطاقات، وأذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر:

-
- (١) حيث والدته والده شريفة حبيبة من بيت الصقلي الفاسيين، فهو حنفي حنفي.
- (٢) لم أتطرق لكرامات الشيخ رضي الله عنه، لأن الكرامات ليست من أصول التصوف، فالأصل الاستقامة، والكرامات إنما هي كالعرض بالنسبة للجوهر، بل هي في حد ذاتها عوارض في الطريق، ولذلك كان العارفون يستحبون من إبرازها كما تستحي العذراء من الحيض - كما قال الصوفية رضي الله عنهم - ولكن أشير إلى أن نجل المصنف الإمام أبا الهدى محمد الباقر الكتاني جمع أكثر من ثلاثمئة منها في كتاب خاص سماه: «كثر البراهين المادية في كرامات المشيخة الكتانية»، ولا يزال مخطوطاً.

- (١) شقيقه خاتمة الحفاظ الأعلام وشيخ الإسلام أبا الإسعاد وأبا الإقبال الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني صاحب «الترتيب الإدارية في الحكومة النبوية» و«فهرس الفهارس والأثبت»، وغيرها من التصانيف السائرة.
- (٢) ابن خاله الإمام علم الأعلام أبا العباس أحمد بن جعفر الكتاني، صاحب شرحي البخاري والحكم العطائية.
- (٣) نجله الإمام العلامة أبا الفضل محمد المهدي الكتاني صاحب «النصيحة» في عدة مجلدات.
- (٤) نجله ومؤرخ حياته الإمام المجدد الحافظ أبا الهدى محمد الباقر بن محمد الكتاني^(١).
- (٥) شيخ الجماعة بالرباط الإمام محمد المكي بن علي البطاوري الحسني.
- (٦) الإمام أبا العباس أحمد بن محمد الفيلاي الكاوي الإدريسي الحسني.
- (٧) العلامة الكبير شارح «الجامع الصغير» أبا عبد الله محمد بن محمد بن المغطي العمراني الإدريسي الحسني.
- (٨) الإمام العلامة محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني مؤرخ القرن المنصرم.
- (٩) شيخ الطريقة الشاذلية بفاس الإمام العارف أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الفاسي.
- (١٠) الشيخ الإمام العارف الكبير أبا عبد الله محمد بن الصديق بن أحمد الغماري الإدريسي الحسني.

(١) خص المترجم بثلاثة مؤلفات: «بلوغ الأمان في ترجمة الشيخ محمد الكتاني» في مجلد مطبوع، و«التاج المرصع بالجوهر الفريد في ترجمة الإمام الشيخ محمد الكتاني الشهيد» في ثلاث مجلدات، و«دائرة المعارف والعلوم الكتانية» في ثماني مجلدات. علاوة على ما جمعه له من المعاجم والأثبت، وضمنه في كتبه الخاصة بالتراجم.

(١١) شيخ علماء الشام ومجدد الإسلام به أبا الفضل محمد المكي بن محمد بن جعفر الكتاني .

(١٢) شيخ علماء الحجاز الإمام أبا حفص عمر بن حمدان المخرسي وهو نائبه بالمدينة المنورة .

(١٣) مفتي الجيش العثماني العلامة محمود باشا التركي .

(١٤) علامة الحجاز الشيخ عبد القادر بن توفيق الشلبي الطرابلسي وهو نائبه في الحجاز .

(١٥) العلامة المسند الشيخ عبد الستار بن عبد الوهاب الهندي ثم المكي .

(١٦) العلامة بوصيري عصره يوسف بن إسماعيل النبهاني .

(١٧) العلامة الشيخ جعفر الجاوي .

(١٨) العلامة شيخ الحنابلة بمصر أبا العباس أحمد البستيوني .

(١٩) مؤرخ مكناس العلامة الكبير عبد الرحمن بن زيدان العلوي الحسني .

(٢٠) مؤرخ مراكش العلامة الكبير العباس بن إبراهيم .

(٢١) العلامة الكبير شارح البخاري أبا عبد الله محمد الفضيل الشيبهري الإدريسي الحسني .

وغيرهم كثير ممن ذكروا مفصلاً في غير هذا الموضع .

* مؤلفاته :

ترك الشيخ رضي الله عنه ما يزيد عن ثلاثمئة وأربعين مؤلفاً بين مجلدات كبار وتصانيف في أوراق، وحوالي عشرة آلاف رسالة . وقد ذكرتُ حوالي (١٦٠) مؤلفاً له في كتابي «السُّبْحَةُ النُّورانية»، في ذكر ألف من المؤلفات الكتانية، وتراجم أصحابها ذوي المزايا السامية .

أذكر منها هنا :

- (١) الفتاوى الحديثية .
- (٢) الفتاوى الفقهية .
- (٣) الفتاوى الصوفية .
- (٤) شرح حديث الخَمِيصَةِ المَخْرُجِ فِي الصَّحِيحِ ، فِي مَجْلَدِ ضَخَم .
- (٥) أجوبة عما أشكل فِي الْقُرْآنِ فِي جَانِبِ التَّوْحِيدِ .
- (٦) أجوبة عما أشكل فِي الصَّحِيحِينَ فِي جَانِبِ الْمَقَامِ الْمُحَمَّدِيِّ .
- (٧) أسرار الاستعاذة ، طُبِعَ .
- (٨) الأُمَالِي فِي عِلْمِ الْأُمَهَاتِ ، طُبِعَ .
- (٩) الأجوبة التفسيرية .
- (١٠) بَيَانُ الْأَفَاتِ فِي حُكْمِ تَضْيِيعِ الْأَوْقَاتِ ، بِاللُّعْبَاتِ الْمَسْمُوءَةِ بِالكَارِطَةِ (الشُّدَّةِ) وَالضَّمَامَةِ وَمَا شَاكِلُهُمَا مِمَّا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَيْسِرِ .
- (١١) تَفَاسِيرُ خَمْسَةِ لِلْبَسْمَلَةِ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْحَقَائِقِ وَالنُّحُو .
- (١٢) تَشْرِيحُ أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ آدَعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ .
- (١٣) تَأْلِيفٌ فِي الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ .
- (١٤) تَأْلِيفٌ فِي الْفُرُقِ بَيْنَ طَرِيقَةِ الْاجْتِبَاءِ وَطَرِيقَةِ الْإِنَابَةِ .
- (١٥) حَيَاةُ الْأَنْبِيَاءِ ، فِي مَجْلَدَيْنِ ضَخَمَيْنِ يُثَبِّتُ حَيَاتَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ .
- (١٦) حَدِيقَةُ الْجَنَانِ ، أَجَابَ فِيهَا عَنْ أُمُورٍ تَنْكَرُ عَلَى الصُّوفِيَةِ .
- (١٧) خَتْمَةُ الْبُخَارِيِّ ، مِنْ بَضْعٍ وَعِشْرِينَ عِلْمًا . طُبِعَ .
- (١٨) خَبِيبَةُ الْكُونِ فِي شَرْحِ الصَّلَاةِ الْأَنْمُودَجِيَّةِ ، فِي عِدَّةِ مَجْلَدَاتٍ ، طُبِعَ الْأَوَّلُ مِنْهَا .
- (١٩) الدَّرَةُ الْبَيْضَاءُ فِي مَعْنَى الصَّلَاحِ الَّذِي تَطْلُبُهُ الْأَنْبِيَاءُ .
- (٢٠) رِسَالَةٌ فِي أَنَّ الْبَسْمَلَةَ آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ .

- (٢١) روح الفصوص في الفلسفة الإسلامية، في مجلد ضخمة.
- (٢٢) رسالة في أبوته ﷺ وكلُّ نبيِّ أبِّ لأمته، طُبعت.
- (٢٣) الرسائل الكتانية في الهداية والإرشاد، في عدة مجلدات.
- (٢٤) زبدة المرام في حكم دخول الحمام.
- (٢٥) الطلاسم في الكمالات المحمدية.
- (٢٦) كشف اللثام عن سر الصيام.
- (٢٧) الكشف والبيان عما خفي عن العيان في سر آية: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾.
- (٢٨) لسان الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الكتانية، طبع بفاس ثم بيروت.
- (٢٩) الكمال المتلالي والاستدلالات الموالي، في محاجة أهل التفريط والتغالي، وأنَّ فيضان الربوبية والمحمدية لا ينقطع بل متالي. طبع.
- (٣٠) الاجتهاد.
- (٣١) الاستباقات إلى حضور صلة الحق للموجودات. طبع.
- (٣٢) مقدمة للشمائل الترمذية.
- (٣٣) النهر المُرَبَّد في شرح خطبة ميارة على المرشد، في الفقه.
- (٣٤) القهرمان الأقدس.
- (٣٥) القول الشافي والبيان الكافي في أن فاعل القبض في الفريضة غير جافي.
- (٣٦) مجمع البحرين في مشروعية البسمة جهراً في الصلاة الفرضية.
- (٣٧) الوصايا الكتانية.
- (٣٨) السر الصمداني والفيض الحَقَّاني في أنَّ العارف لا يُرايله الخوف ولو بعد دخول الجنة.
- وغيرها.

* ثناء العلماء عليه :

كثير ثناء العلماء الأعلام رضي الله عنهم عليه وعلى مقداره العلمي، وأذكر هنا شيئاً من ذلك :

قال الإمام أبو الحسن علي بن محمد العذلوني الحسني: «ولو حضرت يا أخا الهدى مجالس إمام أهل الحضرات العليا والسفلى لأبهر عقلك في علم التفسير حتى نخال أن لا مفسر سواه، ولو خلي وسبيله:

- أَعِيْذُ بِالوَاحِدِ مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ -

لبقي يتكلم في الآية القرآنية إذا شرع في تفسيرها حتى يخرج الإمام المهدي، ولو حضرت وقت أماليه في المجالس الخاصة، بل والعامة، لرأيت ما لا تتأسف معه على عدم إدراك جميع من تقدمه من أهل الله تعالى.

ولو حضرت ذكره لأسرار الشريعة لأبهجك ثم أبهتك، ثم حيرك ثم فتنك، ثم أذهلك ثم أخرسك، ولقلت: إن عيني رأت العالم في وقت واحد.

ولو حضرت في وقت مزجه لعلم الأحكام بعلم الأصول، بعلم الكلام، بعلم الحقائق، لقلت: إن إحدى لسنه ﷺ يتكلم.

قل ما تشاء فانت فيه مصدق الحب يقضي والمحاسن تشهد

ولو حضرت أماليه على الدوام، لحصنته بوجه الله العظيم وقلت: إنه الكتاب المسطور، والبحر المسجور، والبيت المعمور بأنواع العلوم والمعارف والأسرار المحمدية التي لم يثها ﷺ لأحد سواه. اهـ باختصار.

وقال فيه شيخ الإسلام محمد بن جعفر الكتاني الحسني في «النبذة اليسيرة» بعد ترجمة والده: «ومنهم: ولده الذي طبق ذكره الآفاق، وشاع صيته في الحواضر والبادي وسائر الرفاق، العلامة الأبهى، الصوفي الأكبر، من تفجرت

ألسنه وأفلامه بالعلوم، وبهر بما يديه الخصوصُ والعموم، المربي النفع،
الكثيرُ التلاميذِ والأتباع...».

ومنهم شيخ الهند الإمام الشهير الشيخ محمد حسين بن تفضل حسين
العمري الهندي المتوفى عام ١٣٢٢، تدبج معه وحلاه في إجازته له بـ: «العلم
الأوحد، الفاضل المفرد، مالك الملكات، صاحب الكمالات الوهية والكسبية،
البحر الخضم الحلالح المظم، قرة عين الزمان، إنسان عين الإنسان، الذي
يباهي بكماله الكمال، وحامت حول بحره العذب الباب الرجال، العارف
الشهير...».

وقال فيه علامة مصرَ ومفتيها الشيخ عبد القادر الرافعي: «هو من نخبة
العلماء العاملين، وخيرة الأتقياء المرشدين، وقد رقى أعلى مراتب الكمالات،
مع غزارة علم، وسعة اطلاع في المنقولات والمعقولات...».

ووصفه الإمام الحافظ أبو شعيب بن عبد الرحمن الدكالي في إجازته لنجله
الشيخ محمد المهدي بقوله: «الشریف الأجل، العالم الأمل، الحافظ اللافظ،
الذي كرع من بحري الشريعة والحقيقة حتى ارتوى، سيدي محمد بن سيدي
ومولاي عبد الكبير الكتاني الحسني رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين». وقال
في بعض مجالسه في مراكش - وكان يحضرها الجم الغفير من الناس -: «ما
رأت عيني من يحسن دراسة التفسير كالشيخ سيدي محمد الكتاني رحمه الله،
سواء في المغرب أو المشرق»، وصار يصف لهم مجالسَ المترجم في الحرم
المكي حينما كان يدرس التفسيرَ به عام ١٣٢١.

وقال فيه شيخ الشافعية بالحجاز الإمام الشريف حسين بن محمد الحبشي
الباعلوي الحسيني في إجازته لابنه المذكور: «إنه من ذوي العلوم الواسعة،
والحقائق الجامعة، الذين علت همتهم، وتسامت في العلوم الظاهرة والباطنة
رتبتهم، الواصل الموصل إلى طريق الحق والصدق واليقين، البدر السامي

المقدار، الظاهر كالشمس في رابعة النهار، العارف بربه، المستغرق فيه بقلبه، من أرجو باتصالي به الخير، وزيادة النور والبركة ودفع الضرر...».

وقال فيه مسندُ الشرق ومحدثه الإمام أبو الخير أحمد بن عبد الله مرداد المكي الحنفي: «من سعدي اجتماعي بغوث هذا الوقت والزمان، خلاصة السادات الأعيان، صاحب الأسرار والعلوم الغزار، مربّي المريدين، ومرشد السالكين، مخزن الفوائد واللطائف، ومعدن الحقائق والعوارف، مولانا أبي الفيض سيدي الشريف محمد...».

وقال العلامة المسند عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي الفهري في «معجم شيوخه»: «صدرٌ من صدور عصره، عالمٌ متبحر، حافظٌ من حفاظ الحديث، بصيرٌ بمعانيه وفقهه، متمكّنٌ في علم التفسير والأصليين والكلام، متبحرٌ في التصوف، غواصٌ على دقائقه، خبيرٌ بأحوال أهله وطبقاتهم ومنازعاتهم ومذاهبهم وفرقهم ومشاربهم ومقاصدهم واصطلاحاتهم، قديرٌ على فك المشكلات وفُضُّ المعضلات، مثابرٌ على نشر العلم، دؤوبٌ على تقريره وتدرسه، لا يخلو وقتٌ من أوقاته من الخوض في مسائله، حرُّ الفكر والضمير، يجاهر بأفكاره ومبادئه في مؤلفاته ودروسه، مقتدرٌ على إقامة الحجة وإقناع الخصم والاستيلاء على أفكاره بما أوتي من قوة العارضة والقدرة على البيان والبراعة في الاستدلال، مع فصاحة اللسان، وثبات الجنان، لم يبلغ أحدٌ من أهل عصره بعدَ الشيخ ماء العينين مبلغه في إقبال الخلق، ويُعد الصيت، وشهرة الذكر في المشرق والمغرب...» انتهى باختصارٍ وتصريف.

والكلام والنقول في هذا الباب كثيرةٌ جداً، ولا يغني أغلبها عن غيره، فرحمه الله تعالى ورضي عنه ولا حرماناً من بركاته.

* التعريفُ بهذه الرسائل :

لقد انتقينا إحدى عشرة رسالةً من رسائل الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، الأولى: رسالة المؤاخاة، في المؤاخاة والتربية وإظهار أسباب تخلف الأمة الإسلامية في هذا العصر، والثانية: سفينة المحبة، في السلوك والتربية، والثالثة: نسخة من غابَ عنه المطرِب، في الفلسفة الإسلامية وإقناع النفس بالمشول بين يدي خالقها رَغْباً أو رَهْباً، والرابعة: الفرق بين الواردات الرحمانية والملكية والنفسانية والشيطانية وكلامٌ في طريقة التصرف، والخامسة: الرسالة إلى أهل سَلا في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ والحضُّ عليها، والسادسة: وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى وكلامٌ في وجوب التزام الأدب، والسابعة: الإجازة الطرقية وشروط وأركان الطريق، والثامنة: الوصايا الكتانية، والتاسعة: سُفُن النجاة وكُهُوف العباد، والعاشر: الأمالي في علم الأمهات، والحادية عشرة: تائيتُ العرفانية المباركة، في المعارف والسلوك.

ونُسَخُ التسع الأولى هي بخط تلميذ المؤلف شارح «الجامع الصغير» في عشر مجلدات وغير ذلك: الإمام العلامة المحدث الشريف أبي عبد الله محمد بن محمد بن المُعْطِي العَمْرَانِي الإدريسي الحسني، وكانت في ملك عمِّ والدتي شيخ الطريقة الكتانية العلامة الداعية إلى الله تعالى العارف بالله أبي الأنوار محمد بن محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني رحمه الله تعالى.

— الرسالة الأولى :

وهي «رسالة المؤاخاة»، رسالة أرسلها إلى أعيان طريقته في مراکش مؤاخياً بينهم، ورافعاً من بينهم الكلفة، على شروطٍ وضعها لئتم المؤاخاة، مظهرأ أسباب انهيار وتضعُّع الأمة المحمدية، فهي رسالة في السلوك والإخاء، وفي السياسة، وتعتبر وثيقة تاريخية لحال الأمة الإسلامية في تلك الحقبة من الزمان، أي: قَبِيل الاستعمار.

أما العلماء الذين آخى بينهم رضي الله عنه، فهم:

الإمام العلامة العارف بالله المؤلف المُجيد الشاعر الناثِر أبو الحسن علي بن محمد بن عبد القادر الحسني العَدْلُونِي الدِّمْنَاتِي ثم المراكشي، خليفة المؤلف في دِمْنَات، ترك نحو أربعين مؤلفاً في العلم والأدب والتصوف، وكان له دورٌ مَجِيدٌ ضد الاستعمار.

والإمام العلامة المحدث العارف الكبير أبو عبد الله محمد بن محمد بن المُعْطِي العَمْرَانِي، خليفة المؤلف بمراكش، وأستاذ الجامعة اليُوسُفِيَّة، له مؤلفاتٌ ورسائلٌ عديدة، وشعرٌ كثيرٌ في مدح النبي ﷺ ومدح المترجم وعائلته، وهو شارح «الجامع الصغير» للسيوطي في عشر مجلدات، وصاحب المؤلفات الحديثية والفقهية والتربوية الصوفية النفيسة.

العلامة الفقيه النوازلي عبد السلام بن محمد بن المُعْطِي العَمْرَانِي الإدريسي الحسني، مفتي مراكش وعضو مجلس الاستئناف الشرعي الأعلى بالرباط، علامةٌ كبيرٌ مؤرِّخٌ داعيةٌ شاعرٌ ناثِر، وهو صاحبُ «اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية»، وهي الرحلة التي رحلها مع المترجم.

والإمام العلامة الفقيه شيخ الجماعة^(١) بمراكش أبو عبد الله محمد الصالح بن المدني العَمْرَانِي الإدريسي الحسني السُرْغِينِي، وهو أحد نماذج السلف الصالح في العصور المتأخرة.

والعلامة الجليل العارف بالله ذو العزيمة الماضية والضمير الحي محمد خير الدين التونسي. رضي الله عن الجميع.

(١) «شيخ الجماعة» لقبٌ يُعطى لمن بلغ البراعة في مختلف العلوم الشرعية وتلمذ له أغلب علماء بلده، وهي نفسُ رتبة «شيخ الإسلام» في المشرق.

— الرسالة الثانية :

وهي «سفينَةُ المحبة»، في السلوك، والتزكية والتربية، ألَّفها لجمعية القلب على الله تعالى، وجعل لها أربعَ زوايا:

- الزاوية الأولى: في الصبر.

- الزاوية الثانية: في الشكر.

- الزاوية الثالثة: في التوبة، وفَصَّلَ فيها الكلام حولَ الذين يظلمهم الله تعالى في ظله يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلا ظِلُّه.

- الزاوية الرابعة: في الحياء.

وهي رسالةٌ جامعةٌ مانعةٌ في الوصول إلى الله ختمها بقوله:

«ولكن: إنَّ السفينةَ لا تجري على اليبسِ

وكنت أردتُ أن أذكرَ محلَّ جَرَيَانِها، ويم تجري، ومن أين مبدؤها، وإلى أين تنتهي، وما يرى راكبها في الطريق من التباشير والمخاويف، لكن منعني من ذلك الضعف وخفتُ أن أزيدَ من قيام الحجة عليكم بزيادة البيان...».

— الرسالة الثالثة :

وهي «نسخةٌ مَن غاب عنه المُطَرِّب»، قال في أولها: «أردتُ أن أكتبَ رسالةً لنفسي بقصد محاورتها ومناظرتها وإبداء عواراتها ومعايها وإنصافي منها...».

وقد جاءت محاورَةٌ عجيبةٌ بين ذاته وروحه أو عقله وروحه، فلسفةٌ عميقةٌ بلسانٍ جامعٍ لَدُنِّي، حتى إنها احتوت على مواضع تشكّل على من لم يتأملها ويتفحصها لأول مرة. وقصدهُ إقناعُ النفس من الناحية العقلية بمتابعة أوامر خالقها عز وجل، وعبادته طوعاً لا كرهاً، فجاءت بحمد الله تعالى فريدةً في بابها ومضمونها.

— الرسالة الرابعة :

«الفرق بين الواردات»، تطرّق فيها لذكر الواردات الرحمانية والملكية والإنسية والشيطانية، والفرق بينها، ثم طريقة الاستحضار في الذكر وتطهير الباطن، ثم طريقة التوجه في الذكر، وبعد ذلك طريقة التصرف في الكون، ومعرفة المستقبلات.. إلخ ذلك.

وقد أرسلها إلى أئمة عارفين من أتباعه، فلا يقدرها إلا من بلغ مقامات عالية في العبادة، وقال في آخرها: «وروح هذه المسألة: التجرّد من الغواشي البدنية، ومحو النقوش الكونية...».

— الرسالة الخامسة :

«الرسالة إلى أهل سَلا»، وهي رسالة إلى أتباع طريقته في مدينة سَلا بالمغرب (وهي مدينة كبيرة مجاورة للعاصمة الرباط، عرفت بالعراقة والعلم، واستيطان الأندلسيين بها) يحضهم فيها على الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، مستدلاً على ذلك بالأحاديث والآيات، مستعرضاً بعضاً من محاسن رسول الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

— الرسالة السادسة :

«وجوب اقتران ذكره ﷺ بذكر الله تعالى، وشيء في الآداب»، وهي جواب أرسله من مصر عام حجة ١٣٢١ على رسالة والده رضي الله عنهما، استدل فيها بالبراهين النقلية والعقلية على وجوب ما ذكر، ورد على من أنكر ذلك، ثم استدل لوجوب التزام الأدب والتخلق به، واتخاذ شيخ تربية يعين عليه.

وهذه الرسالة جعلها ردّاً على بعض أصحاب الطرق الصوفية الذين يذكرون الهيلة ثلاث مرات ثم يتبعونها بذكر «محمد رسول الله» مرة واحدة.

— الرسالة السابعة :

«الإجازة الطرقية»، وهي إجازة كتبها لبعض الأعلام الصالحين، ذكر فيها شروط الطريقة الأحمدية الكتانية، طريقته، وأركانها، ثم فصل في مسألة استحضاره صلى الله عليه وآله وسلم في الذكر، ومشرب الطريقة الكتانية في ذلك، ومشاهدتها. وقد طبعت في مصر سابقاً، غير أنني لم أظفر بنسخة من طبعة مصر.

— الرسالة الثامنة :

«الوصايا الكتانية»، وهي وصايا كتبها لاتباعه يرشدهم فيها للمسائل والأدواء التي تقطع السالكين عن طريقهم، وسبيل إزاحة الحجب عن القلوب وتخليص القوالب من آفات التكاسل والتواني عن طلب المراتب العلية.

— الرسالة التاسعة :

«سفن النجاة وكهوف العباد»، وهي عهدٌ أحد عشر، عاهد عليها أتباعه وأمرهم بالتزام مقتضياتها، ويمكن اعتبارها تذيلاً على «الوصايا».

— الرسالة العاشرة :

«الأمالي في علم الأمهات» والنسخة التي اعتمدتها فيها هي الطبعة الفاسية الحجرية.

وهذه الرسالة جواب أرسله إلى تلميذه العلامة أستاذ جامعة القرويين الشيخ أحمد بن محمد بن الطيب الفلالي الجاوزي الإدريسي الحسني، عن سؤال هو: أن كثيراً من العارفين كل واحد منهم يذكر أنه أفضل الناس وأوسعهم معرفة بالله تعالى، وأن علم من قبله إلى علمه ككذا إلى كذا، وأن طريقته أفضل الطرق وأوصلها إلى الله تعالى، فكيف يُنقّ هذا التعارض؟

فأجابه الشيخ رضي الله عنه عن ذلك بهذه الرسالة، وذكر فيها علوم القوم العالية، ذكر منها بضعاً وتسعين علماً، ثم تطرق إلى مراتب القطبية والغوثية والختمية وغيرها، ذاكراً علاماتها، متسبباً في نهاية المطاف إلى مقام الختمية الكبرى الذي دندن حوله جمعٌ من العارفين بالله تعالى، مثل الحكيم الترمذي والإمام الحاتمي وغيرهما. وأتى فيها بمباحث تحيّر الألباب.

وقد بَشَّرَ - رضي الله عنه - في بعض رسائله أن هذه الرسالة سوف تنتشر في المشرق وسوف يعرف أهلُ قيمتها.

وأقول بأنه إن لم يفهم القاريء معناها، فإن فيها - مع ذلك - سرّاً عجبياً، وهو أن مدارك القاريء تفتح وصدرة يتسع بشكلٍ كبيرٍ للخلاف، وبالأخص خلاف أهل السنة من المتكلمين وأصحاب الحديث، في الاعتقاد وغير الاعتقاد، ويصبح المرء يرى المسألة الواحدة بملاحظٍ ووجوهٍ كثيرة، ومن أنكر فليجرب.

— الرسالة الحادية عشرة :

وهي قصيدته الثائية العرفانية في مئة وثلاثة عشر بيتاً، ضمنها علوماً جمةً بلسان القوم، وقد استعصت على كثيرٍ من العارفين، وقام بشرحها بعض أتباعه من العلماء الكبار لم يحضرني اسمه الآن، وقد قامت عليها ضجةٌ كبيرةٌ بين موافقي ومخالفٍ لما فيها، وهي من أسباب محنة المؤلف المراكشية، وقد ألفها وعمره ٢١ عاماً فقط، أما تحقيقها فقد قمت به أنا وشقيقي المهندس النابغة محمد الحسين - حفظه الله تعالى - على عدة نسخ، منها النسخة المطبوعة بالمطبعة الحجرية، ونسخة بخط نجل المؤلف الشيخ محمد الباقر الكتاني وتخمينه لها^(١).

(١) مراجع البحث والترجمة :

١ - «ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد» لنجله الإمام محمد الباقر الكتاني، واعتمدتُ عليها اعتماداً كبيراً حتى إنني نقلتُ بعضها باللفظ، وهي نفسها المسماة: «بلوغ الأماني».

* عملنا في تحقيق هذه الرسائل :

- ١ - قمت بانتساخ المخطوطات من الأصل - الذي هو بخط كوفي مغربي - إلى الخط المشرقي .
- ٢ - زودت النص بعلامات الترقيم من فواصل ونقاط وغيرها .
- ٣ - قسمت النص إلى عناوين شارحة ومفهمة له .
- ٤ - قمت بالتعليق على بعض المواضع وتفسير بعض الكلمات غير المعروفة .
- ٥ - قمت بعزو الآيات وأقوال العلماء إلى مصادرها ما أمكن .
- ٦ - قام أخي غسان أبو صوفة بتخريج الأحاديث الواردة في المتن وعزوها إلى مصادرها الأصلية ما أمكن . وذلك في أربعة من هذه الرسائل ، وهي :
سفينة المحبة ، ونسخة من غاب عنه المطرب ، ورسالة المؤاخاة ، ورسالة اقتران ذكر رسول الله بذكر الله تعالى ، والباقي قمت بمفردي بتخريجه وخدمته بعون المولى تعالى .

٢ - «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية» للإمام الحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني .

٣ - «رياض الجنة» وهو معجم شيوخ العلامة المسند عبد الحفيظ بن الطاهر الفاسي الفهري .

٤ - «اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية» ، تأليف شيخ الجماعة الإمام عبد السلام بن المَعْطِي القَمْرَانِي . وغيرها .

وفد أفردت سيرة المترجم رضي الله عنه بأكثر من أربعين مؤلفاً ، وتُرجمَ ضمن ثمانين مصدراً ، ذكر جميعها أو أغلبها نجله الشيخ محمد الباقر الكتاني في كتابه : «التاج المرفوع بالجوهر الفريد» ، في ترجمة الشيخ الإمام محمد الكتاني الشهيد ، الواقع في ثلاث مجلدات .

ولا أنسى أن أشكر خالي وشيخي العلامة المدرس النّقاع الأستاذ بجامعة
الحسن الثاني بالدار البيضاء سيدي بدر الدين بن عبد الرحمن بن محمد الباقر
الكتاني الحسني، الذي سهّل عليّ الوصولَ إلى كافة المخطوطات والاطّلاعَ
عليها، مع إفادتي بجميع المعلومات عن جدنا الإمام أبي الفيض رضي الله عنه
وطريقته خاصّةً، ومختلف العلوم والمعارف عامّةً، فجزاه الله عني كل خير.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه سبط حفيد المؤلف

الشريف محمد حمزة بن محمد علي الكتاني

١٣ من محرّم الحرام سنة ١٤١٩ هجرية

بعمّان الأردن من بلاد الشام

حرسها الله تعالى

النفائس الكتانية

١

رسالة المؤاخاة

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله تعالى عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا ومولانا أحمد، وآله وصحبه وسلم

الله جلّ مجده أحمد، وأصلي وأسلم على نبيه سيدنا ومولانا أحمد، وعلى
آله وصحبه الرّكع السّجّد.

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني إلى إخواننا في ذات الله تعالى،
وأصفيائنا من أجله، وأودائنا وأنصارنا في جانب الله تعالى ورسوله الكريم
الأسنى: الكبيريت الأحمر^(١) مولاي علي الدمناتي، والعارف بالله تعالى سيدي
محمد بن المعطي العمراني، وبقية السلف وبركة الخلف سيدي الصالح،
والمشارك المتفنّن الفارس البطل سيدي عبد السلام، العمرانيّين، وشعلة الذكاء
ونبراس النباهة وقطعة النور، العضد سيدي محمد خير الدين، إني أحمد إليكم
جلال الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

(١) الكبيريت الأحمر: هو مصطلح عن كل شيء نادر الوجود، وفي لسان التصوف: إشارة إلى
مقام الختمية. ولست أدري مقصود المؤلف هنا، رضي الله عنه، علماً أن مقام الختمية
يتدرج ويتعدد. كما فصله نجل المصنف، العارف بالله الشيخ محمد الباقر الكتاني في
كتابه: «الروضة الندية، في إثبات السقي من الحقيقة الأحمدية»، بما لا يوجد في غيره،
وهو مخطوط.

[المقدمة]

قد علمتم إخواني أن شمس الدين اليوم كُورَت، ونجومها انكدرت، وجباله سُيرت، وعشاره عُطِلت، ونفوس العالم زُوِّجت، كلُّ انتظم إلى هواه، وصحف الضمائر والأسرار نُشرت، وسما المعالي واقتنائها والمعاني واكتسابها وادخارها كُشِطت، وإذا الجحيم سُعرت، جحيمُ الجهل بالله تعالى وبرسوله الكريم، وجحيمُ العوائد الرديّة والأعراف المخالفة للسنّة الطاهرة الغراء البلجاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك؛ سعرت وأضرمت وشبت نيرانها وتوهجت وقامت في كل ربيع وحي.

وانتم أظهركم الحقّ جلّ قدسه في هذه الطائفة الكتانية^(١)، والناس مُشرّيتون إليكم اشرئباب الهيم إلى الورود، فإني أردت أن أواخي بينكم في ذات الله جلّ قدسه، وتكون مؤاخاتكم على نظري لا على نظركم، فأنيخوا إليّ، وحُطّوا رواحلكم بين يدي، وأعطوني الطوعية والانقياد من أنفسكم طبق البطن^(٢).

[شروط المؤاخاة الدينية]

وشروط المؤاخاة الدينية أن أقول:

وأنه جلّ عدله أمتكم على تبليغ شرعه إلى أعبيده، وجعلكم أوعية لحمله، ومكنكم من الإفصاح والبيان عما استحفظكم، وأعطاكم فسحة من عز تمشون بها في الناس، وأعطاكم مقاليد النفوذ فيهم.

(١) إشارة إلى الطريقة الأحمدية الكتانية التي هو مؤسسها رضي الله عنه، وكان لها دور مهم في التعليم والتوعية الدينية والسياسية والجهادية في القرن الرابع عشر وامتد أتباعها من المغرب إلى جاوا.

(٢) أي: بجميعكم ظاهراً وباطناً.

فما عذرکم مع الله سبحانه ومع رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، ومع أملاكه الكرام، ومع العلم الذي حُملتوه، ومع الإنسانية التي بها عرفتكم، ومع تطويق الخلافة عن أهل الله سبحانه مما اتتمنوكم على أصحابهم ومريديهم وتلامذتهم في هذا التقاعد والتكاسل والعجز، وعدم النهضة الإيمانية، وعدم القيام على ساقٍ في النصيح لعباد الله وتذكيرهم بأيام الله، وعدم إرشادهم ودلائتهم على الله تعالى، والسكوت والمحابة، والتلبس بالأغراض الشخصية، والتذرع بالأحوال الطبيعية، وعدم النهضة لله بالله مع الله في الله لا لأمر نفسي أصلاً و [لا] لمحبة محمداً ولا ليُقَالَ ولا لقصدِ ثواب ولا حظٍ أخروي؟

[المساواة والعدل]

وصورة الأخوة التي أعقدُ بينكم عن إذن إلهي محمدي: أن تتجردوا كلكم عن الأحوال الشخصية والأغراض الطبيعية، وتتحركوا حركةً إيمانية ونهضة روحانية بعضكم بعضاً، وتكونوا في الحق سواء.

وكان عمر رضي الله عنه وقافاً عند كتاب الله تعالى، لا يكن فيكم عالٍ ولا نازل، ولا مقدّم ولا مؤخر، ولا شريف ولا عالم، ولا رئيس ولا متعالٍ، بل كونوا في الحق سواء ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

أمر سبحانه عبيده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي: العدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

[الإخلاص في الدعوة إلى الله والنصح]

وقوله سبحانه: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ هو كقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، أي: أدوها ابتغاء وجه الله، فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

[الفصل: ٨٨]، أي: كل شيء ابتغي به غير وجه الله هالكٌ مضمحلٌ لا أثر له ولا نورٌ ولا تهذيبٌ للنفس يصحب فعله، ولا نتيجةٌ يجدها المكلف من التلبس بفعله، إذ الشرائعُ كلها أدويةٌ روحانية، وطبٌ إلهيٌّ للأمراض الحاصلة للأرواح والعقول، والنفوس والأسرار، فإنما سقاه جل اسمه هالكاً لأنه لا أثر له في الوجود ولا في نفس العامل ولا في الواقع، ولا يجد له المكلف ثمرةً يوم التغابن. ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨]، أي: إلا ما ابتغي به وجهه جل سناه.

فإذا أدبت الشهادة ابتغاء وجه الله كانت صحيحة خالية من التحريف والتبديل والكفران وفق ذلك، قال جل علاه: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: اشهد الحق ولو عاد ضرره عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عاد ضرره عليك.

[لا يحدث من الصدع بالحق ضرر أصلاً]

ولا يحدث من الصدع بالحق ضرراً أصلاً؛ لقول الله جلّ مجده: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ﴾ ولم يقل سبحانه: يخذلكم، ﴿وَيُنِيتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ولم يقل سبحانه: ويزلزل أقدامكم. فالوهم والخيال نسخ هذه الآية الكريمة وأشباهها.

وفي الحقيقة محبتنا المنزلة في قلوب الخلق وحبُّ المحمّدة والعلو في الأرض هو الذي نسخها، فلذلك لم ننصر الله ولذلك لم ينصرنا، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

يتوهم أهل الحجاب أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر يُسقطهم من قلوب الخلق، وهو وهمٌ كاذب؛ إذ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والورثة الكاملون لم يسكتوا طرفة عين عن النصح للخلق كافة، لكن مع السياسة العادلة الشرعية، فتتجّ نصحتهم وقُبل رشدهم، وصار محلاً للقبول.

إنما كان قصدهم بالنهي عن المنكر: حفظ الأمة، والأخذ بزمام الشهوات والشبهات في الدين، فردوها كما تُرد جِمَاحُ الخيلِ باللُّجُمِ.

وكان قصدهم: امتثالُ أمر الله جل قُدُسُه بما طوقهم من حسن الرعاية في الرعية والقيام على حفظها عن أمر الله سبحانه.

وقد بلغ الخاتم الماحي - صلواتُ الله وسلامه عليه - من النصح وردُّ الشوارد وقمع الأوباد إلى جلال الربوبية إلى أن أسلم شيطانُه صلوات الله وسلامه عليه، فصار لا يأمره إلا بخير^(١)، وللعلماء الوارثين حظٌّ من هذا الباب أيضاً، فإذا لم يرثوا موروثهم في المراتب الأربع فما ورثوه: الورث في الأقوال، الورث في الأفعال؛ وهذا هو مجموع كتاب الشمائل، الورث في الأحوال، الورث في المنازلات؛ وهذا هو مجموع منازل السائرين.

أما ورث النبوة في الأحوال والمنازلات فهو أقسام في البدايات؛ وهي: اليقظة والتوبة، والمحاسبة والإنابة، والتفكير والتذكر، والاعتصام والفِرار، والرياضة والسمع.

وفي الأبواب: وهي الحُزن والخوف، والإشفاق والخشوع، والإخبات والزهد، والورع والتبتل، والرجاء والرغبة.

وفي المعاملات: وهي الرعاية والمراقبة، والحُرمة والإخلاص، والتهذيب والاستقامة، والتوكل والتفويض، والثقة والتسليم.

وفي الأخلاق: وهي الصبر والرضى، والشكر والحياء، والصدق والإيثار، والخُلُقُ والتواضع، والفتوة والانبساط.

وفي الأصول: وهي القصد والعزم، والإرادة والأدب، واليقين والأنس، والذكر والفقر، والغنى ومقام المراد.

(١) كما أخرج ذلك مسلمٌ في «صحيحه» (٢٨١٥) من حديث عائشة بنت الصديق رضي الله عنها.

وفي الأدوية: وهي الإحصان والعلم، والحكمة والبصيرة، والفراصة والتعظيم، والإلهام والسكينة، والعطمانية والهمة.

وفي الأحوال: وهي المحبة والغيرة، والشوق والقَلْبُ، والعَطَشُ والوُجْدُ والدَهَشُ والهَيَمَان، والبرق والذوق.

وفي قسم الولايات: وهي اللُحْظُ والوقت، والصَّنْفا والسرور، والسر والنفس، والغربة والاستغراق، والغَيْبَةُ والتمكّن.

وفي قسم الحقائق: وهي المكاشفة والمشاهدة، والمعاينة والحياة، والقبض والبسط، والسُّكْر والصُخْر، والاتصال والانفصال.

وفي قسم النهايات: وهي المعرفة والفناء، والبقاء والتحقيق، والتلبُّس والوجود، والتجريد والتفريد، والجمع والتوجيه^(١).

فهذه عشرة أصول في كل أصل عشرة مقامات، هي مائة منزل إذا أُلقيت بالك للأحاديث النبوية، وتجردت عن علوم الكسب^(٢)، وتخلّيت عن الرسوم، واستطعمت ريك جل جلاله، واستكسوته واستسقيته: يطعمك ويكسك ويسقك، فيداه مبسوطان ينفق كيف يشاء.

وليقل كل عبد عند إرادة العلم أو التعطش للعمل: يا هادي اهدنا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك، بقلبٍ قويّ ولسانٍ روحاني، ولسانٍ الافتقار

(١) انظر في ذلك كتاب «منازل السائرين»، بين مراتب إياك نعبد وإياك نستعين» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي وشرحه مدارج السالكين شرح منازل السائرين للإمام الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية.

(٢) أي: وصلت إلى معاني الألفاظ دون الضياع بين اختلافات العلماء فيه ومقارنة اختلافاتهم، وليس في هذا دعوة إلى الإعراض عن العلم والعلماء، وحاشا، بل من منهج المؤلف رضي الله عنه الدعوة إلى العلم.

والذلة، يجد الأثر في نفسه حالاً؛ فإن الله سبحانه حيي كريم يستحي إذا رفع عبده يديه إليه أن يردهما صفراوتين^(١).

[الرسول ﷺ كان يتكلم في منازل الكمال]

تجده صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله يتكلم في هذه المنازل ويخوض عباها، وينوع أفانين التأديب والتهذيب والإرشاد على حسب الشرح لها والدلالة عليها، إذ هي المنازل التي سار عليها السائرون إلى معرفة ربهم سبحانه.

فأحب أن تبحثوا عن «منازل السائرين» للإمام الهروي، كتاب صغير الجزم عظيم الجدوى والفائدة، وإن لم يوجد هناك فكاتبونا عليه، واختمونه فيما بينكم المرة بعد المرة، وتكلموا فيه حسبما يهكم واهب الجود جل أمره.

وتكون المذاكرة مناوبة لا مناهبة، كما كان الصحابة الكرام، فإن الأمر جد والناقد بصير، والعلماء إذا لم يرثوا نبيهم ومتبوعهم صلى الله عليه في هذه الأحوال ففيم يرثون؟! لم يبق إلا الأغراض والشوائب، والحفظ والرياسات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا يحصد الإنسان منها ثمرة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨-٨٩]، أي مما سواه جل سلطانه.

وكل من يقوم مع حظوظ نفسه وشهواته وأغراضه فقد أهمل الإنسانية وأضاعها، وكل من لا إقدام له على المعالي والمعاني والتجرد عن الأحوال الشخصية لم يظهر شرفاً لإنسانيته، إذ من خاصية الإنسانية: الشهامة والإقدام، بل من خواص الحيوانية أيضاً.

(١) يشير إلى حديث: «إن ريككم حيي كريم، يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين»، أخرجه الترمذي (٣٥٥٦) وقال: حسن غريب، (١٤٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٥) عن سلمان رضي الله عنه.

[من أسباب تقدم الأجانب]

وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليوم من النفوذ في العالم، فإنما وصلوا لذلك بأمور؛ ومنها: الحرية - التي عبر عنها الشرع الكريم بالقسط - والعدل والنصح، وعدم المحاباة، والقيام في كل موطن وما يقتضيه، ومعرفة كل منصب وما يطلبه، وعدم إهمال بعضهم بعضاً، ومعرفة حق من ظهر فيه أدنى نبوغ وتيقظ، وعدم إهماله حقاً، وعدم رفضه. بخلاف غيرهم.

[من أسباب انحطاط الأمة: إهمال من نبغ فيهم]

فإن من أسباب انحطاط الأمة الإسلامية في كل صقع: إهمال من نبغ فيهم كاتباً أو شاعراً أو مشيراً، أو صانعاً يحسن صناعة التجييص أو البناء أو الأواني أو الثياب، أو صاحب صوت حسن، أو تنحاش إليه الخلق؛ يرمونه رمية واحدة عن قوس واحدة. ولم يكن صدر الإسلام كذلك.

[من أسباب الانحطاط: عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

ومن أسباب انحطاط الأمة أيضاً: عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشترطوا له شروطاً قل أن تتفق، فمروا بمساعي الشرع بتلك الشرائط، والله سبحانه يقول: ﴿قُلْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]، وقال بعد أن قسم بني إسرائيل فرقاً: ﴿وَلَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الاعراف: ١٦٤-١٦٥]، فطائفة أمرت ونهت نجاها سبحانه.

وطائفة نهت من نهى عن المنكر وقالوا: ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، وطائفة لم تأمر ولم تنته، فأهلك الله جل سلطانه الطائفتين ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابٍ

بَعِيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٦-١٦٧]، ﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، مع أن النهي وقع عن المكروه زمن النبوة وعن ترك المندوب وعن ترك السنن.

وأما قولهم في باب الجهاد وفي آخر البيوع الفاسدة: «لا يُنكر إلا ما أجمع عليه» أي مع الإلزام والتحتيم، وأصل هذا الكلام لعباس أول «الإكمال»^(١)، ونحوه للإمام النووي مدمجاً كلام عباس قائلاً: «أما المختلف فيه فلا إنكار، وليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض عليه ما خالفه، إذا لم يخالف نص القرآن أو السنة أو الإجماع»^(٢) ونقله في «سنن المهتدين»^(٣)، وزاد الموافق في «شرح المختصر»^(٤) عن القرافي وعز الدين نحوه، وهو مشكل.

لأن في المذهب مسائل صرحوا فيها بالأدب مع شهرة الخلاف فيها، بل صرحوا بالتأديب في فعل المكروه، وذكر الخطأ فقال بعد ذكر الخلاف ما نصه: «فالظاهر أن لا معارضة، وأن من واطب على ترك السنن وعلى فعل المكروه فهو الذي يؤذّب ويجرم، ومن كان ذلك من مرة لم يؤذّب». اهـ.

وقال الإمام المازري أول كتاب الإيمان من «المعلم» ما نصه: «والتماذي على ترك سائر السنن مذمومٌ يُوجب الأدب عند بعض أهل العلم» اهـ.

وبه يُعلم ما في جواب في «المعيار» لمؤلفه ونصه: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتعلقان إلا بواجبٍ أو حرامٍ عند المحققين». اهـ. فإنه

(١) «الإكمال» للقاضي عباس (١: ٢٨٩).

(٢) «شرح مسلم» للإمام النووي (١: ١٩٢).

(٣) «سنن المهتدين» لابن الموافق ص ٥ من الملزمة الثانية من طبعته الفاسية المطبوعة سنة ١٣١٤هـ.

(٤) لم أجده في شرحه المُسنّى بـ «التاج والإكليل»، وربما هو في الشرح الكبير له.

ليس بظاهرٍ إن قلنا إنه يؤدَّب على فعل المكروه وترك السنن، لأن الأمر والنهي باللسان أحق من التأديب.

مع أن كلام الأبي في «شرح مسلم»^(١) يفيد أنه لا خلاف أن ذلك مطلوب، فإنه إنما حكى الخلاف في الوجوب فقط، ويأتي لفظه على الإثراء، وقد وقع النهي عن المكروه وتكرر في زمن الصحابة فمن بعدهم.

ففي «الصحيحين» أن أبا سعيد الخُدري رضي الله تعالى عنه أنكر على مروان تقديمه الخطبة على الصلاة في العيد^(٢). قال في «الإكمال»: «وقوله: «لا تأتون بخير مما أعلم»: تصريحٌ بالحق وإن لم يكن في الواجبات». اهـ. ونقله الأبي في «إكمال الإكمال» وقال عقبه: «قلت: اختلف في وجوب التغيير لمخالفة المندوب»^(٣).

وقد أمر النبي ﷺ وعلى آله حسبما في أصح الصحيح أن يقال لمن ينشد الضالة في المسجد: «لا ردها الله عليك»^(٤)، وفي «الصحيحين» وغيرهما أن سيدنا عمرَ قال لسيدنا عثمانَ رضي الله عنهما حين تأخر يومَ الجمعة عن التهجير: أية ساعة هذه^(٥)، ثم قال له ثانياً^(٦).

(١) «إكمال إكمال المعلم» (١: ٢٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٥٦)، «صحيح مسلم» (٨٨٩).

(٣) شرح الأبي على مسلم المسمى «إكمال الإكمال» (٣: ٢٦٢).

(٤) مسلم (٢٥٤). واختلف المغاربة في أي الصحيحين أفضل.

(٥) انظر البخاري (٨٧٨)، ومسلم (٤٠٤).

(٦) بعد هذه الجملة، كلام لا علاقة له بالسياق حذفته، ونصه، «والوضوء أبضاً»، «وسن غسل متصل بالرواح، ولو لم تلزمه، وأعاد إن تغدى أو نام اختياراً، إلا لأكل خف». وهي من مختصر خليل.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كنت أضرب الناس مع عمر رضي الله تعالى عنهما على الصلاة بعد صلاة العصر^(١). وفيهما أيضاً قول عمر للرجلين الذين كانا يرفعان أصواتهما في المسجد: لولا أنكما غريبان لأوجعتكما ضرباً^(٢)، وفي «الصحيح» أيضاً قول سيدنا عمر لسيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهم عند لبسه وهو محرم ثوباً مصبوغاً بما يكره للمحرم لبسه ولا يحرم: «إنكم أئمة يقتدى بكم»^(٣).

وفي «المعيار» نفسه عن «المدخل»: «وردت السنة أن من إكرام الميت تعجيل الصلاة عليه ودفنه»^(٤)، وقد كان بعض العلماء رحمه الله تعالى يحافظ على السنة، إذا جاؤوه بالميت إلى المسجد صلى عليه قبل الخطبة ويأمر أهله أن يخرجوا إلى دفنه. فجزاه الله خيراً عن نفسه وعلى محافظته على السنة.

فلو كان العلماء ماشين على ما مشى عليه هذا السيد الغيور؛ لانسدت هذه الثلثة التي وقعت، وهي: أن من أحدث شيئاً سكت عنه فتزايد الأمر لذلك، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ونقل كلام صاحب «المدخل» غير واحد من شراح «المختصر» وسلموه كما سلمه صاحب «المعيار»، وبه يُعلم ما في كلامه المتقدم.

وقد وصل الحال من سكوت أهل العلم إلى أن صار الكفرة الفجرة يعلمون المسلمين ما يصلحهم في طريق دينهم ومعاشهم، ولا أقل إن أصابتنا [هذه الداهية] من النهي عموماً، فلا أقل من نفس الإنسان وأهله وعشائره وتلامذته

(١) البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤) بمعناه.

(٢) البخاري (٤٧٠).

(٣) لم أجد لفظه، وهو بهذا المعنى وقريب من هذا اللفظ في «الموطأ» (١: ٣٢٦)، وفيه ذكر طلحة بن عبيد الله بدل عبد الرحمن بن عوف.

(٤) كلام ابن الحاج في «مدخله» (٣: ٢٦٨).

ومن يدخل تحت حكمه ونفوذه، وقد جعل جل شأنه إثم الساكت أعظم من إثم الفاعل في القرآن.

وكثيراً ما ينظر الإنسان المريد يدخل الزاوية على غير نظر السنة فلا يحدث في نفسه أدنى انزعاج ولا حزاة ولا حدة ولا غضب إلهي إذ خالف أمر ربه سبحانه. ويا ترى إذا رأينا أساء الأدب علينا لكنا كذلك؟ لا والله، بل يتمعر وجهنا ويرتبك^(١) ويتلخأ لساننا غضباً. ونعد ذلك من الغضب لله، والحال أنه حال شخصي يعود على ذاتنا بالنفع الذي هو أشبه شيء بالسراب لا أثر له ولا وجود في الخارج.

[التناصح بين الإخوان لله]

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(٢) فيعلم الإخوان كيف الدخول للمسجد والخروج منه، وأوراد الدخول والخروج، وكيفية الدخول للمنزل، وأي الرجلين تقدم، وفي الدخول للمرحاض.

وكثيراً ما ترون المؤذن يؤذن ثم يقيم الصلاة غيره، وفي الحديث: «من أذن فليقم»^(٣)، وكثيراً ما ترون المأموم يبادر الإمام في الصلاة ولا يُنهى مع أنه من الكبائر، وقد توعد عليه الشارع بالمسخ فقال: «أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس كلب أو رأس حمار»^(٤)، وكذلك

(١) يتغير ويختلط.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٤: ٣٦٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١: ١٢)، والبيهقي في «شرح السنة» (١: ٢١٢). صححه أبو نعيم والنووي، وضعفه ابن رجب.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٩) وضعفه عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه، وأبو داود (٥١٤)، وابن ماجه (٧١٧)، وأحمد في «مسنده» (٤: ١٦٩). وحسنه الحازمي وقواه العقيلي وابن الجوزي. والعمل عليه كما نص الترمذي عند أكثر أهل العلم.

(٤) أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٤٢٧)، وأبو داود (٦٢٣)، والترمذي (٥٨٢)، والنسائي (٩٦: ٢ برقم ٨٢٨)، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التلميذ إذا رفع رأسه قبل إمامه لا يأمن أن يحول الله رأسه رأس كلب أو رأس حمار كما في الحديث .

وكثيراً ما يُرى المؤذن يساوي الإمام في التكبيرات ولا يُنهي، مع أن السنة أن لا يبدأ المأمومون عموماً بالتكبير إلا بعد فراغ الإمام من التكبير، وهو فائدة التعقيب بالفاء في قوله: «إنما جُعِلَ الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا»^(١).

[بعض مزايا الطريقة الكتانية]

وَجُلُّ الإخوان لا يعرفون أن مما امتازت به الطائفة: عشر تسيحات في الركوع والسجود لا بد منها، وهو السنة كما في «سنن أبي داود»^(٢)، وأما ما في كتب المذهب في مسألة الطمأنينة والاعتدال فليس بمحرر؛ وإنني شارح في كتاب «الصلاة» على الشرع الغضُّ الطري، لا الآراء والأقوال والاختلافات التي توارت عندها شمس النبوة وأقمار الرسالة.

ومما امتازت به أيضاً: طولُ خاصِّ بعد الرفع من الركوع وبين السجدين كما في «الصحيح» من قول أنس: «كان صلى الله عليه يطيل في الموضعين حتى نقول إنه قد نسي، أو نقول إنه قد أوهم، أو نقول إنه قد مات»^(٣)، وتمثيل الفقهاء للطول بمحل لم يُشرع به على الأظهر لما بعد الرفع من الركوع مصادمةً للسنة، وهي سنة تركها جميعُ الخلق، فليُعدُّوا لتركها جواباً!

(١) أخرجه البخاري (١١١٣)، ومسلم (٤١١)، وابن ماجه (١٢٣٩)، وأحمد (٢: ٢٣٠، ٣١٤، ٤١١، ٤٣٨)، وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) برقم (٨٨٨) عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً النسائي في «الكبرى» برقم (٦٣٤). رجال إسناده كلهم ثقات إلا أبا يزيد الصنعاني، قال أبو حاتم: صالح الحديث، وقال النسائي: ليس به بأس.

(٣) الحديث بالمعنى، وانظر بمعناه في مسلم (١٩٦)، وأحمد (٣: ٢٠٣)، بلفظ «أوهم» فقط، وفي أحمد (٣: ١٦١) بلفظ «أنسي» فقط.

[الاهتمام بمسائل المعاملات]

وَجُلُّ الإِخْوَانِ لَا يَعْرِفُونَ أَحْكَامَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْبَيْعَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَأَحْكَامَ الرِّبَى، وَلَا يَأْكُلُ الْإِنْسَانُ أَكْلَةً إِلَّا حَارِبَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، مَعَ أَنْ مُحَارِبَةَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ هَدْمِ الْكَعْبَةِ مِثْلَ أَلْفِ أَلْفِ مَرَّةٍ، وَلَا مَفْهُومَ لِلْعَدَدِ مَعَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ الْوَاحِدُ مِنْهُ أَنْ يَرَى أَعْظَمَ شَخْصٍ فِي الدُّنْيَا يَهْدِمُ الْكَعْبَةَ وَلَا يَغْضِبُ اللَّهَ وَلِرَسُولِهِ وَلِدِينِهِ، وَلَا شَرَفَ تَعْبِهِ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ بِالرِّبَى؟! وَهِيَ مُحَارِبَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صِرْفًا.

فَتَدَارَكُوا أَخَذَ صَحْبِهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ^(١) - وَخُصُوصًا مِنْ اسْتَرْعَيْنَا بِالنَّصِيحَةِ وَهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الزَّائِيَةِ -: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ [النساء: ١٣٥]، أَي: وَلَوْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى وَالِدَيْكَ وَقَرَابَتِكَ فَلَا تَرَاعَهُمْ فِيهَا، فَإِنَّ الْحَقَّ حَاكِمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ.

[العدل بين الناس والإنصاف]

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ أَي: لَا تَرْعَهُ^(٢) لَغْنَاهُ وَلَا تَشْفِقْ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا مِنْكَ، وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا، ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ [النساء: ١٣٥]، أَي لَا يَحْمِلَنَّكُمْ الْهَوَى وَالْعَصِيَّةُ وَبُغْضُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ وَشُؤُونِكُمْ، بَلِ الزَّمُوا الْعَدْلَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ. كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ ﴾ أَي بُغْضُ ﴿ قَوْمٍ ﴾ لَكُمْ ﴿ عَلَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أَي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَجُورُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِيهِمْ، بَلِ اعْدِلُوا فِيهِمْ وَإِنْ أَسَاؤُوا عَلَيْكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ وَإِنْ بِالْغَوَا فِي إِحْشَاكُمُ، فَهُوَ خُطَابٌ عَامٌّ ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨].

(١) أَي طَرِيقَتُهُمْ وَمَنْهَجُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْأَخْذِ بِالْأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ بَخَطُ النَّاسِخِ: تَرَعَاهُ.

ومنه: قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض الخلق إلي من عُدَّتكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم»، فقالوا: بهذا قامت السماء والأرض. ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعِرْتُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] ^(١).

فقوله جل سلطانه: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]، تضمنت أن التكليف وإن كثرت إلا أنها انحصرت في نوعين: التعظيم لأوامر الله سبحانه، والشفقة على خلق الله.

فقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله. ومعنى القيام لله: أن يقوم الله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار شعائر العبودية وإعظام الرب سبحانه. وقوله: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

[ترك حظوظ النفس]

فروح هذا الإخاء أن تكونوا عارفين عن الحظوظ الطبيعية وعن ملاحظة الأحوال الشخصية، وأن تكونوا عوناً على الحق لا على مقتضيات النفوس. وإذا قمتم فقوموا بالله عن أمر الله مراعاة لحقوق الله، ولو على أنفسكم.

وإذا أردتم إبرام أمر فليكن شوري بينكم، وليس أحد منكم أحق بالإيثار بالحق من الآخر، فمن لاح على لسانه الحق فليتبّع، واستحضروا سرّ قول الشارع: «والله لو سرقَتْ - فلانة - لقطعتُ يدها» ^(٢) يعني فاطمة الزهراء عليها السلام، وحاشاها.

(١) انظر «البداية والنهاية» للمحافظ ابن كثير (٥٨٩: ٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨)، والنسائي (٧١: ٨ برقم ٤٨٨٨)، وأحمد (٣٨٦: ٣، ٣٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.

وتذكروا قوله عند قرب أجله صلى الله عليه: «من ضربته - أو كذا أو كذا - فليقتص مني»^(١)، ومن يعدل إذا لم يعدل الله ولا رسوله صلى الله تعالى عليه؟! وتذكروا نقله عن الله - جلّ سلطانه - آيات مفزعة محرقة مهولة لولا أن الأمر حق ونبوة لما ظهرت تلك الآيات ولكتبت، وكان ذلك من إحدى دلائل النبوة.

وقد نبه على ذلك فقهاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم فقالوا: «لو كنتم - صلى الله تعالى عليه - شيناً من الوحي لكنتم هذه» في أي كثيرة نحو: ﴿وَأَتَى اللَّهَ وَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَأَلَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ونحو: ﴿وَلَوْ نَفَوْكَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْلَامِ لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ثم لفظنا منه ألوين ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَلِمَعَةٍ حَنِيزِينَ﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿[الحاقة: ٤٤-٤٨]، ونحو: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإ إِلَيْكَ لِتَتَوَلَّى عَآلِيْنَا عَبْدَهُ وَإِذَا لَأَخَذُوكَ خِيَلًا﴾ وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ ﴿[الإسراء: ٧٣-٧٤]^(٢)، الآيات البينات، ونحو: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونحو: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿[عبس: ١-٢]، الآية الكريمت، ونحو: ﴿مَقَالَهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، إلى آخر ما يدرك بمطالعة القرآن بمقولة ملكوتية، ولخبط روحاني، وجفن جبروتي، ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

[ترك المداينة والنفاق]

وروح هذا الإخاء أن تناصحوا فيما بينكم، ولا تُداهنوا بعضكم بعضاً ولا تُحَابُوا ولا تنافقوا، فإن جُلَّ أخوة الناس اليوم نفاق.

(١) لم أجده.

(٢) انظر كلام الصحابة في هذه الآيات في: «تفسير القرطبي» (١٣: ١٦٦).

ولم يستح الشارع من الصحابة إذ قال: «أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»^(١) وقال الصحابي: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها - أي الصبح - في الجماعة إلا منافق.

وفي البخاري: «ما أمن النفاق على نفسه إلا منافقٌ وما خافه إلا مؤمن»^(٢)، وفيه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»^(٣).

[الاهتمام بشؤون العبادة والإكثار من الذكر]

وفي القرآن في وصف المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ [النساء: ١٤٢]، فمن منا يذكر الله ذكراً كثيراً كما أمر؟

وفيه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤]، وكأنها جبل على كواهلنا يشغل علينا الحال متى نؤديها، عكس ما كان عليه الصحب الكرام: «أرحنا بها يا بلال»^(٤)، أي: أدخل علينا الراحة والسرور بسببها؛ فإنها معراج المؤمن. «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٥)، «المصلّي يناجي ربه»^(٦)، «ولا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا»^(٧)، وقال لأبي بكر لما صلى خلف الصف: «زادك الله حرصاً ولا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧)، وأبو داود (٥٤٨)، وابن ماجه (٧٩٧)، والدارمي (١٢١٥)، (١٢٧٦)، وابن خزيمة (١٤٨٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» من كلام الحسن البصري قال: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمته إلا منافق»، أخرجه البخاري في باب خوف في أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٣) «صحيح البخاري» كتاب الإيمان (١: ١) من كلام معاذ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣٧١: ٥) عن أبي علي الأنصاري، والطبراني وغيره.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٨: ٣)، والنسائي (٦١: ٧) عن أنس رضي الله عنه. وحسن الحافظ في «التلخيص».

(٦) أخرجه البخاري (٤١٣)، (٤١٦)، ومسلم (٥٤)، (٥٥١) عن أنس رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢) بمعناه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تَعْدُ^(١) حتى أخذ بظاهر النهي - إذ يقتضي الفساد - الظاهرية، فأبطلوا صلاة المصلي خلف الصف.

وفي الحديث: «لا يزال الرجل يتأخر عن الصف الأول حتى يتأخر في النار»^(٢)، وفي الحديث: «لتسوء صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»^(٣)، فأوعد على عدم سد الفرج بالمسح، وكان الفاروق وابنه يضربان الناس على عدم تسوية الصفوف، ففيه أن السنة يُعاقب تاركها.

وأخذ الظاهرية وجوب تسوية الصف من قوله: «فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»^(٤) وكل هذه التشيعيات من مقتضيات برودة حلاوة الإقبال على الله تعالى، فتنشأ عنها هذا التسلسل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣]، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ [التوبة: ١٢٧].

وما جاءنا الخلاف بين قلوبنا إلا من عدم سدنا الخلل في الصفوف لما في الحديث: «لتسوء صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم»^(٥)، وقد وقع ذلك فتجد المسلمين كأنهم ملل لا يتوارثون؛ يُعرض هذا بوجهه ويُعرض هذا بوجهه وفي الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٦)، وفي الحديث:

(١) أخرجه البخاري (٧٨٣)، وغيره من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦) من حديث النعمان بن بشر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٣)، ومسلم (٤٣٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦) كما مر.

(٦) أخرجه مسلم (٩٣) عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«تصافحوا يذهب الغِلُّ من قلوبكم»^(١)؛ فالمصافحة السُّنية طِبُّ إلهي مذهبٌ للضغائن والأحقاد^(٢).

[ترك العداوة والبغضاء، والتزام محبة المسلمين]

وقد جعل جل ثناؤه العداوة والبغضاء في القرآن أشدَّ من شرب الخمر وأقبح وأظلم وأشنع، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْأَلْبَسِ﴾، فالخمر والميسر وسيلة عند الشيطان لإيقاع العداوة والبغضاء ﴿وَرَبَّادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١].

ووصف سبحانه أهل الجنة بصفتين فمن وَجَدنا فيه فهو من أهل الجنة، وَمَنْ لَا فَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الجبر: ٤٧]، والثانية: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، أي مجالسهم طاهرة من اللغو فضلاً عن آفات اللسان المذكورة في «الإحياء»، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس]

فأصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضى منك عنها، ولأن تصحبَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيراً لك من أن تصحبَ عالماً يرضى عن نفسه، وأي عِلْمٍ لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهلٍ لجاهل لا يرضى عن نفسه.

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١٦) من حديث عطاء الخراساني مرسلًا، ويتصل فيه وجوه عديدة.

(٢) انظر مفصلاً في المصافحة كتاب: «المناسحة في أحكام المصافحة» لخال المؤلف: شيخ الإسلام جعفر بن إدريس الكتاني.

حظ النفس في المعصية ظاهراً جلبي، وحظها في الطاعة باطناً خفي، ومداواة ما يخفى صعبٌ علاجه. ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك. معصيةٌ أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً. انكسارُ العاصي خيراً من صولة المطيع. لا تطالب ربك بتأخر مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك.

من جهل المرید أن يسيء الأدب فتزخر العقوبة عنه فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الأمداد وأوجب الإبعاد، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد يقام مقام البعد وهو لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد.

العلم إن قارنته خشيةً فلك، وإلا فعليك، لا ترحل من كونٍ إلى كونٍ فتكون كحمار الرّحى يسير، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، وإنَّ إلى ربك المنتهى^(١).

وانظر قوله في الحديث الشريف: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٢).

إذا طلبت عوضاً على عمل لست له فاعلاً طولبت بوجود الصدق فيه، ويكفي المريب وجدان السلامة. أنت إلى حلمٍ إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته. لولا جميل ستره لم يكن عملُ أهلاً للقبول.

(١) هذه حكمٌ متفرقة عن الحكم المطائية للإمام ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلم (٩٩٠٧)، وأصحاب الثنن من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[الدعوة إلى الله تعالى]

ومن روح هذا الإخاء الانتصابُ لدوام النصيح لعبيد الله تعالى، وتلوُّن الدعوة إليهم كل على حسب قابليته، وكم من واحد ينجع فيه النصيح ويُساء به الظن أنه لا يقبله، وأقربُ الناس من الله أبعدُهم منه، وأبعدُ الناس من الله أقربهم منه.

وإذا حضرتم مجلساً فليكن كله ذكراً وتلاوة ومذاكرة، وسردُ كتب القوم أو «شرح الجامع الصغير»، فإن الأمة لا ينفعها إلا إرشادُ نبيها وعلمه الغير المشوب، الغض الطري القريب العهد من الله سبحانه.

[من أسباب الانحطاط تركُ العمل بالحديث وصحيح المذهب،

وعدم مجالسة الورثة المحمدين]

ومن أسباب انحطاط الإسلام: عدمُ العمل على كتب الحديث في باب التأديب والتهذيب والأخلاق والمعاشرة والرفائق والآداب، وأما الأحكامُ الحلال والحرام فعلى صحيح المذهب^(١).

وكل هذا التوخُّش جاء الناس من عدم مخالطتهم للورثة المحمدين العالمين بالله وبأحكامه، وفي الحديث: «سائلوا العلماء» - أي: بالأحكام، أي: ولا تخالطوهم - «وجالسوا الكبراء»^(٢)، أي وهم المستغرقون في جلال الله وشهوده وليسو متبحرين في علوم الشرائع.

(١) صحيح المذهب هو: ما عضده الدليل.

(٢) في كنز العمال رقم (٢٩٢٦٣)، «سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء» وعزاه إلى الحكيم الترمذي عن أبي جحيفة. وانظر «إتحاف السادة المتقين» للإمام الزبيدي (٢٧٥: ٥)، (٢٠٤: ٦).

فأمرَ بمجالستهم ليكتسب من أنوارهم وقوتهم ومعارفهم ومحبتهم في الله تعالى، وشوقهم إليه والشغل به جلَّ اسمه خاصة، واكتساب شعائر الإيمان.

فتعلَّموا اليقين والتوكل، والزهد والخوف، والتوبة والشكر، والصبر والرضى عن الله، والمحبة بمجالسة أهلها، فإن هذه العلوم إنما تؤخذ من قلب إلى قلب، وكل إخواننا مرشحين لذلك.

«وخالطوا الحكماء»^(١)، وهم الجالسون على الخط المشترك بين عالم المعاني وعالم الأسباب، آخذون بالطرفين، ساكنون بالعالمين، شاربون بالكاسين، قائمون بالشعارين، جعلنا الله وإياكم من أشرفهم وأعلمهم وأقربهم؛ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيَّا﴾ [مريم: ٤٧].

[الحث على المذاكرة وسرد الحُكَم العطائية]

ولتُسرِد الحُكَم العطائية^(٢) كلَّ يوم بين العشائين، مع شرحها ومشاركة الفقهاء بالزاوية في البيان والإفصاح والتبيان والشرح، من غير مَيِّز لهذا عن هذا، فهذا من قوَّاميتكم بالقسط فيما بينكم، ولا تُصلحوا الجماعة ما لم تصلحوا أنتم وتكونوا على قلب رجلٍ واحد، وتتجردوا عن الحفظ النفسية والأغراض الشخصية، وتذاكروا كلكم وتباحثوا كلكم.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) وصف الإمام أحمد زَرُّوق كتاب الحكم العطائية في مقدمة شرحه لها ص ٢١ فقال: «عبارته راقية جامعة، وإشاراته فائقة نافعة، تتلج الصدر وتبهج خاطر، وتحرك السامع لها والناظر، مع تداخل علومه وحِكَمه، وتناسب حروفه وكَلِمه»، وقد بلغت الحُكَمُ الغاية القصوى في وجازة اللفظ البديع البليغ، مع فخامة المعاني ورفقها ودقتها، حتى قال الفقيه اللبناني: «كادت حُكَمُ ابن عطاء الله أن تكون وحياً، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم» كما في «إيقاظ الهمم» لابن عجيبة ص ٤. الناشر.

والذي يسرد يقول للجماعة: ما ظهرَ لكم؟، بقلبٍ سليمٍ مُخْبِتٍ أَوَّاهٍ أَوَّابٍ منيب. فَإِنَّ الْقُلُوبَ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ، فَاقْرَعُوهَا، وَاسْتَخْرِجُوا مَا لِلَّهِ جَلَّ اسْمُهُ مِنَ الْخَبَايَا وَالْأَسْرَارِ فِي عِبَادِهِ.

وَتَمَعَّنُوا أَسْرَارَ النُّبُوَّةِ فِي قَوْلِهِ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقْصِّهَا عَلَيْنَا»^(١) ذَلِكَ مِنْهُ لِيُطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، إِذْ كُلُّ أَحَدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَجْهَةٌ خَاصَّةٌ لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ.

وَقَدْ كَانَ النَّاسُ زَمَانًا لَا يَتَصَدَّرُونَ فِي الزَّوَايَا حَتَّى يَحْفَظُوا^(٢) أَرْبَعَةَ كُتُبٍ:

١ - «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» لِلْغَزَالِيِّ.

٢ - «الْعَوَارِفُ» لِلْسَّهْرُورِيِّ.

٣ - «الرِّسَالَةُ» لِلْقَشِيرِيِّ.

٤ - «مَنَازِلُ السَّائِرِينَ» لِلْهَرَوِيِّ.

وَابْحَثُوا لَنَا عَنْ شَرْحِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، فَقَدْ شَرَحَهَا خَلْقٌ، وَمِنْهُمْ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي أَرْبَعَةِ أَسْفَارٍ، فَيَاضِيْعَةُ الْأَعْمَارِ تَمْشِي سَبَهْلَلًا.

وَنَحْنُ نَعِيبُ عَلَى الْوَلَاةِ عَدَمَ سِيَاسَتِهِمْ رِعَايَاهُمْ بِالنَّصِيحَةِ وَالتَّفَقُّدِ، وَنَحْنُ عَجِزْنَا عَنْ إِصْلَاحِ زَوَاوِينَا وَسِيَاسَتِهَا وَالْأَلْفَةَ فِيمَا بَيْنَنَا^(٣)، وَاعْلَمُوا أَنَّ صَحْبَةَ يَوْمٍ نَسَبٌ قَرِيبٌ، وَذِمَّةٌ يَحْفَظُهَا اللَّيِّبُ، وَقَالَ الْإِمَامُ الْجَنِيدُ: الْمَوَاكِلَةُ مَرَاضِعَةٌ، فَمَنْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: (١٣٨٦)، بِقَرِيبٍ مِنْ لَفْظِهِ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ، وَهُوَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ فِيهِ، وَغَيْرِهِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ بِخَطِ النَّاسِخِ: يَحْفَظُونَ.

(٣) هَذَا مِنْ بَابِ مَضْمِ النَّفْسِ وَالطَّمُوحِ إِلَى الْأَعْلَى فَقَدْ أُنتَجَتِ الطَّرِيقَةُ فِي زَمَنِ مُؤَسَّسِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَثْمَةً فَحَوْلًا كِبَارًا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْجِهَادِ، انْظُرْ ذَلِكَ فِي «تَرْجُمَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْكَتَّانِيِّ الشَّهِيدِ» تَأَلَّفَ نَجْلُ الْمُؤَلَّفِ الْإِمَامِ أَبِي الْهَدْيِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ بْنِ مُحَمَّدِ الْكَتَّانِيِّ ص ١٦٠.

واكتموه صارَ رحماً في الدين تتأكد مواصلته، ويتأكد الذب عنه والدفاع عنه، والسعي في وصول الخيرات إليه.

وكل مَنْ أخلَّ منكم بضابطٍ من هذه الضوابط المرعية، فأعلمونا بذلك حتى لا يختل أمرُ أحوال الإخوان، وقد استرعانا - جَلَّ أمرُه - هذه الرعية فإذا لم نحطها بالنصيحة أوشك أن يعمنا الله سبحانه بعذابه، عَفْوُكَ يا لطيف.

[الدعوة إلى تأليف رسائل في الطريق]

وكل ما يُحتاج إليه من الرسائل في هذا الباب فالفقهاء، ألّفوا رسائل في مداخل الشيطان، وليكن التعبير عنها بالأذواق لا بالتقوّل، فإن دائرة المعاني أوسع من دائرة الألفاظ، ودائرة الصدور أوسع من دائرة المعاني، فما أحوج الناس إلى رسالة في هذا الموضوع.

وألّفوا رسائل في الفرق بين اللّمة الملكية واللّمة الشيطانية وعلامات كل، وذكر الخواطر وتشعباتها، وقد كنا أرسلنا رسالة في ذلك^(١)، فلعلها تُنوّسيت، أو لعلها أُهمِلت، أو لعلها لم تُقرأ، أو لعلها لم تكن منها النسخ، وليت شعري لو سأل سائل الإخوان عن هذه الضروريات في الطريق ماذا كانوا يجيبونه به؟^{١٩}

وألّفوا في أمراض القلوب وعِلَلِها ومراتب الظلام مثل ما عند صاحب «الإبريز»^(٢)، فما أحوج المسلمين لعلم هذا العلم لأنه لا يقبل - جَلَّ علمُه -

(١) فيه إشارة إلى مؤلّف له رضي الله عنه، وهو: «الفرق بين الواردات الإلهية والملكية والنفسانية والشيطانية»، وهو أحد رسائل هذه المجموعة المباركة والله الحمد.

(٢) «الإبريز من كلام الشيخ عبد العزيز»، أي الإمام العارف الشريف عبد العزيز بن مسعود الدبّاغ الإدريسي الحسني، جمع تلميذه الإمام الفقيه المجتهد أبي العباس أحمد بن مبارك اللمطي القاسي.

إِلَّا الطَّيِّبَ، وهذا هو الطَّيِّبُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وَالْفُؤَا فِي سُؤْمِ الْغَفْلَةِ، وَأَنَّهُ هِيَ الَّتِي أَفْسَدَتِ الدِّينَ وَأَهْمَلَتِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ وَشَعَائِرَهُ، وَتَتَّبَعُوا آدَابَ الشَّرْعِ، فَإِنَّهُ كُلُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ طَرْدُ لَجِيشِ الْغَفْلَةِ وَحَرْبُ قَدْسِيٍّ مَعَهَا، عَنْ عَقْلٍ لِمَنْ عَقَلَ أَسْرَارَ الشَّرِيعَةِ.

وَلَكِنْ أَظَنَّاكُمْ اسْتَغْنَيْتُمْ عَنَّا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي مِنْكُمْ سُؤَالٌ عَنْ شَيْءٍ، لَا فِي الْأَصُولِ وَلَا فِي الْفُرُوعِ، وَلَا فِي مُشْكِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَلَا فِي بَابِ الشُّهُودِ وَالتَّجْلِيٍّ، وَلَكِنْ غَنَاكُمْ عَنَّا صَيَّرَ الْقُلُوبَ خَرَابًا بَلَقَعًا يَبَابًا: ﴿وَيَثْرُ مَعْطَلَةٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]، حَتَّى كَانَهُ لَا شَيْخَ لِأَهْلِ زَاوِيَتِكُمْ، فَالْأُمُورُ فَوْضَى عِنْدَكُمْ.

وَالْفُؤَا فِي أَكْدِيَةِ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ مِنْ أَكْدِ مَسَائِلِ الطَّرِيقِ، وَانْظُرُوا «إِحْيَاءَ عُلُومِ الدِّينِ» فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، فَمَا أَتَى عَلَى الْمَلَةِ إِلَّا مِنْ عَدَمِ تَابِطِهِمْ لِلْإِحْيَاءِ حَضْرًا وَسَفْرًا، قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جَنُوبِهِمْ.

وَلَوْ كُنْتُ مُتَوَلِّيًا، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، لَسَجَنْتُ كُلَّ مَنْ لَا يَخْطُبُ بِهَا، وَالْجُمُوعَ الَّتِي لَا تَقْرَأُ فِيهَا، وَالْوَلَائِمَ، وَقَدْ صَارَتْ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ كُلُّهَا خَوْضًا فِي الْبَاطِلِ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَوْمًا سَتَلُوا لِأَيِّ شَيْءٍ سَلَكَوا سَفَرًا؟ فَقَالَ: ﴿قَالُوا لَوْ أَنَّكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَوْ أَنَّكَ تَعْلَمُ الْغَيْبَ ۖ لَنَبِّئَنَّا بِخَبَرِ ۚ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٥]، وَكَانَ أَعْمَالُ النَّاسِ الْيَوْمَ صَارَتْ أَعْمَالًا مِنْ لَا يَزُومُنْ يَوْمَ الْحِسَابِ.

[مِنْ أَسْبَابِ الْإِنْحِطَاطِ ذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَسْرَارِهَا]

وَالْفُؤَا فِي أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِهَا، فَإِنَّ مِنْ أَسْبَابِ انْحِطَاطِ الْمَلَةِ ذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُجَرَّدَةً عَنْ أَسْرَارِهَا، وَقَوْلُ أَهْلِ الْفُرُوعِ: هَذَا تَعْبِيدِي. وَهُوَ عَجَزٌ مِنْهُمْ

عن بيان الحكمة والسِر، والشرع كله مكشوفٌ لأهل العلم بالله، ليس عندهم فيه شيءٌ غيرُ معقولٍ المعنى، «ومن يُرد الله به خيراً يُفقهه»^(١)، والفقه: الفهم، أي عن الله تعالى في شرعه، وهو المسمى بالغريزة في حديث: «إذا حفظ الرجل القرآن واحتسب من أحاديث رسول الله وكانت هناك غريزة، فهو خليفة من خلفاء الرسل»^(٢).

[الحض على مقاومة الإعلام الأجنبي]

وكان ينبغي لعلماء الملة لما رأوا هذه الجرائد العجمية انتشرت أن يفهموا أن ظهورها حربٌ بالأقلام في الحقيقة لأهل الملة، فكان ينبغي لهم أن يضعوا تأليفاً، ولو أن تشترك فيه جمعيةٌ دينية، ويكلف كل واحدٍ بتحرير كتابٍ فيه، ويُنسب الكتبُ لجميعهم، في أسرار الشريعة المطهرة، وبيان مواقع نجومها المُقسَّم بها في قوله سبحانه: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْجِعِ التُّجُورِ﴾ وَلَئِنَّ لَفَسَمَ لَو تَطْلُمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

ويطبعون هذه التأليف مجاناً لله ولرسوله، وشكراً للأمانة، وحفظاً للإيمان في قلوب الأمة، ورعياً للمواطن ومقابلةً للحرب بالسلم، وإدحاضاً للباطيل وعرقلةً لمساعيها بالحجج الدامغة.

ويطبعوا منه الآلاف من النسخ ويفرقوه في الدنيا لله. ولو وقع مثل هذا لحدثت أمورٌ أيضاً في العالم خيرية وسماوية، ولكن إهمال القرائع وعقمها أنتج نتائج وخيمة لا تُحمد، فأنيسوا إخواني وأحبائي وتداركوا ما أمكن تداركه.

(١) أخرجه البخاري (٧١)، (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧)، وغيرهما عن معاوية رضي الله عنه.

(٢) لم أجده.

[الحض على المذاكرة في الأمور الذوقية]

وليتذاكر كل واحد يومَ جمعةٍ منكم في الأمور الذوقية النافعة بلسانٍ عامي حتى يفهم كل الجلّاس، وراعوا [حكمة] النبوة، فقد كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه، هذا وهو يخاطب الصحابة، فكيف بأمثالنا؟ والله الهادي، ولتكن المذاكرة في «شرح الحكم العطائية» لابن عبّاد^(١).

وأما الدرس في الزاوية فليدرّس كل واحد منكم إما «الرسالة القيروانية»، وإما «المرشد»، وإما «الشماثل»^(٢)، فإذا [انتهى الواحد] ابتداء الآخر قراءة درس.

ولو سَلِمَت منا الصدور لحضرنا مجالسَ بعضنا بعضاً، لأنّا طالبون للحق^(٣) والمزيد، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

وأقْسَمْتُ حضرة الملك القدوس [أن لا] يجاورها أهلُ النفوس، فإن لم تكن تراه، أي: إذا زال وجودك الوهمي [ومِتْ]، «وربك لن يرى أحدكم ربّه حتى يموت»^(٤) إما الموت الطبيعي، وإما الموت الذي تعنيه الطائفة، وهو الفناء الحقيقي، فأديموا مجالسة [الحق] حتى تلدّ لكم كل خير وفتح، والسلام.

(١) المسمّى «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية»، مطبوع غير طبعة. الناشر.

(٢) «الرسالة» للإمام أبي محمد ابن أبي زيد القيرواني، مشهورة سائرة، و«المرشد» هو «المرشد المعين في الضروريات من علوم الدين» للإمام عبد الواحد ابن عاشر الفاسي، كلاهما في الفقه المالكي، و«الشماثل» أي: «المحمدية» للإمام الحافظ أبي عيسى الترمذي. الناشر.

(٣) في الأصل بخط الناسخ: الحق.

(٤) حديث أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٣٠)، وأحمد (٣٢٤: ٥)، وابن ماجه (٤٠٧٧)،

من حديث عمر بن الخطاب، وعبادة بن الصامت وأبي أمامة الباهلي رضي الله عنهم.

[الخاتمة: في الحضر على عدم الغفلة عن الله تعالى]

وعجيبٌ: يطيلُ العبدُ الغفلةَ عن ربه سبحانه فلا تجد الإنسانَ مختلياً في داره أو زاويته أو [مسجده] ويتبتل إلى ربه سبحانه، حتى كأنه سبحانه ما خلقنا له وإنما خلقنا لشهواتنا وأغراضنا عفوً يا حلیم.

وما فرض سبحانه خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلة إلا على أهل الغفلة والفتور، وأما الذين هم أشد حباَ لربهم؛ على صلاتهم دائمون^(١):

قالوا أتَسنَى الذي تهوى قلْتُ لهم يا قومُ مَنْ هوَ رُوحِي كيف أنساه! وكيف أنساه والأشياء به حُشِنَتْ مِنْ العجائبِ يَسَى العبدُ مَولاه! ومن عنده تأليفٌ من تأليفنا فليخرجه، وليُسَرِّد في الزاوية حتى تُختم جميعُ كتبنا، وما احتجتموه فأرسلوا إليه.

ولما زُوِّجَ العجزُ الكَسَلَ أنتجا كل عقم في العالم، ولما زُوِّجَ الانتباه والإنباء والأوبة والتيقُّظ: أنتجوا كل حسن في العالم.

وإذا كانت النفوسُ كباراً تَعَبَّت في مُرادها الأجسامُ فنافسَ يَبْذُل النفسَ فيها أخا الهوى فإن قَبِلَتْها منك يا حَبْذا البَذْلُ ومَنْ لم يَجُذ في حُب نَعْم بنفسه وإن جَادَ بالدنيا؛ إليه انتهى البُخْلُ^(٢) والرقيبُ على هذا كله: شعله النور والذكاء، العضدُ والركب سيدي محمد خير الدين؛ فإنه لا يحابي ولا يماري ولا يداري.

(١) أي: أن أهل الغفلة لا يهتمون بذكر الله تعالى فكان ذلك فرضاً عليهم، أما أهل الولاية فتلك من بدهيات أعمالهم، بل لهم أكثر من ذلك من قيام الليل والمجاهدات والصيام وضبط النفس، لا أن الفرائض ليست عليهم فرائض، وحاشا، فليتأمل.

(٢) البيان لسلطان العاشقين عمر ابن الفارض. الناشر.

وسامحوني فلاني رجلٌ غيورٌ على المراتب، أحبُّ أن لا تُفارقَ صاحبها إلا وهي عنه راضية، إفتاءً وتدرّيساً، وإمامةً ومشیخةً، وتوليةً وتقديماً، ونصحاً وخدمةً، «رحمَ الله عبداً أظهر من نفسه قوة»^(١).

فالمُظهِرُ من نفسه قوةً في دين الله - وإن لم يستطعها - يستوجبُ هذا الدعاء النبوي الذي ليس له دون الله حجاب، وأستودعكم الله والسلام على جميع الأحباب. اهـ.



(١) أخرجه أحمد (٣٠٦: ٢)، والبخاري (٣٧٦: ٣).

النفاثس الكتانية

٢

سفينة المحبة

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

[illegible]

ضمیمہ

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سِرِّ الذات وآله وصحبه

أما بعد:

فإني فكّرتُ في توالي رَزَايا الدهر، وأمعنتُ النظرَ في تواتر سهام منايا القهر، وأطلتُ الجَوْلَانِ في الحِكَمِ المُرادَةِ من مقابلة المؤمن المُخْلِصِ بالصدمات والنكبات والمِخَن، فأنْتَجَ لي هذا أن ليس مُراداً لله من ذلك إلا شيءٌ واحد: وهو جَمْعِيَةُ القلبِ على الله، وجَعْلُهُ الهَمَّ الواحدَ الذي يكفي صاحِبَهُ الهُموم، ويدخلُ صاحِبَهُ تحتَ المعارفِ في عالم الكون والفساد قبلَ التطلُّعِ على خفايا عالم القرار.

لأن الإنسانَ وُلِدَ وحده، وعاش وحده، ورَبَتْهُ - رُغْماً على أنفه - المقاديرُ وحده، وماتَ وحده، ودخلَ قبره وحده، وسُئِلَ وحده وبُعِثَ ويُسألُ يومَ القيامة وحده، ويدخلُ الجنةَ أو النارَ وحده.

وبعدَ أن ظهر هذا فأبي فائدةً في الانحياسِ لِلخَلْقِ وجمعِ القلبِ عليهم، والفرعِ إليهم، مع أن المواضعَ التي يُحتاجون فيها كُلُّها ما وجدنا واحداً منهم معنا فيها !

[صفة الصديق الحق]

وأيضاً العاقلُ لا يصاحب إلا مَنْ يُغْضِي عن زلاته إذا أساء، ويكون أقدرَ على وُصْلَتِكَ إذا قطعتَه، وعلى الإحسانِ أقوى منك على الإساءة، ويحفظُك حياً

ويعَدّ المماتِ بما عنده، ويُشَتُّ شمله فيك ليجمعَكَ، ومن يضرُّ نفسه لينفعَكَ، ومن يؤثِّرَكَ بالمشتَهيات والملذّذاتِ وكل ما تهواه النفس، فإذا التفتت النفسُ وجَدَتْ هذا الأخَ أعزُّ من الكبريتِ الأحمر.

ولكن في الخبايا بقايا، [و] في الزوايا خبايا، وإذا وجدَ صاحبُ الهمةِ العليا من يذكُرُه اللهَ إذا رآه، ويقوِّيه ويعينه إذا ذكرَه، ويذكُرُه إذا نسيه، ويُطلِعُه على أسرارِ الذكرِ وأنوارِه ولوامِيعِه ولوانحه، وطوالِيعِه وبواديهِ وشوارقه، فليُفَنِّ هو أيضاً أعمارَه فيه، ولا يَتَنِّغْ به بدلاً، ولا يشغله عنه شاغلٌ.

[أركانُ سفينةِ المحبة]

سيما إن أركبَهُ ونصبَ له سفينةً عجيبةً تُسمَّى «سفينةَ المحبة»، الواحُها من التوفيق، ومساميرُها من الجَذْبَةِ الإلهية، وعلى أركانها زواوي أربع:

[الركنُ الأول: الصبر]

الأولى: مكتوبٌ عليها: هذه زاويةُ الصبر، فإن من لا يصبر لا ينال المُنِيَّةَ والبُغْيَةَ، لِمَا أَنَّ الغاليَ لا يكونُ الظَّفَرُ به رخيصاً، وإذا كان غالياً فغيرُ عجيبٍ بِذَلِكَ الغاليِ في الغالي، إنما العجيبُ بِذَلِكَ الغاليِ - وهو هَمُّكَ ونفسُكَ وأوتِقاتُك، وخلواتُك وجلواتُك، وعمارةُ أرواحك - في الأمورِ الفانيةِ المتلاشيةِ الزائلة، التي إن أصبحت لا تمسي، وإن أمست لا تُصبح.

[الركنُ الثاني: الشكر]

وعلى الركنِ الثاني: هذه زاويةُ الشكر، فإن الشكرَ ملزومٌ يلزمه الزيادة، ومن كان في زيادة، فهو في تَرَقٍّ، ومن كان في تَرَقٍّ فهو في كمال، ومن كان

في كمالٍ فقد أصلح نفسه، ومن أصلح فقد أخلص، ومن أخلص فقد قُرِبَ،
ومن قُرِبَ فُتِحَتْ له السُّرَادِقَاتُ^(١)، ومن أَدْلَجَ^(٢) نَزَلَ وَعَرَّسَ^(٣):

إذا نحنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْتَ إِمَامُنَا كَفَى لِمَطَايَانَا بِذِكْرَاكَ هَادِيَا
أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبُ الْيَمَانُونَ عَرَّجُوا عَلَيْنَا فَقَدْ أَمْسَى هَوَانَا يَمَانِيَا

ومن نَزَلَ اسْتَقَرَّ، ومن اسْتَقَرَّ تَمَكَّنَ، ومن تَمَكَّنَ تَلَوَّنَ في نفسِ التمكن،
ومن تَمَكَّنَ طَلَّبَ، ومن طَلَّبَ وَجَدَ، ومن وَجَدَ شَاهَدَ، ومن شَاهَدَ انْدَهَشَ،
ومن انْدَهَشَ طَاشَ، ومن طَاشَ مَاتَ، ومن مَاتَ عَاشَ، ومن عَاشَ فَاتَ، ومن
فَاتَ تَكَلَّمَ بِالْمَكْنُونَاتِ الْغَيْبِيَّةِ، وَافْتَضَّ الْأَبْكَارَ اللَّدُنِّيَّةَ، وَوَصَلَ الْمَعَانِي
الْقُدْسِيَّةَ، وَلَاَحَتْ لَهُ اللَّوَائِحُ الْاِكْتِمَامِيَّةُ، وَزُقَّتْ لَهُ الْعَرَائِسُ الْجَبْرُوتِيَّةُ، وَأُعْطِيَ
الْمِفَاتِيحَ الْغَيْبِيَّةَ^(٤).

وربما أحالوه على أرض المعرفة، فَرَجَّجَ به فيها، فشاهد أن العَرَضَ يقوم
بنفسه^(٥)، وعجائب كم آذانا أهل السُّوء بإفشائها.

فَأُحِيلُكُمْ إِخْوَانِي عَلَى الذَّوْقِ^(٦)، فَجِدُّوا فِي السَّيْرِ فَإِنَّ الشَّمْسَ عَلَى طَرَفِ
النَّخِيلِ^(٧)، واجتهدوا أن لا يمرَّ بكم وقتٌ إلَّا وَلِسَانُكُمْ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، كي
تَأْتُوا بِخُبْرِ الزَّائِرَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ زَوَايَا سَفِينَةِ الْمَحَبَّةِ.

(١) السُّرَادِقَاتُ: جمعُ سُرَادِقٍ، وهو كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباء.

(٢) أدلج بالتخفيف: إذا سار من أول الليل.

(٣) التَّعْرِيسُ: نزول المسافر آخرَ الليل نزلةً للنوم والاستراحة.

(٤) أي أعطي الملكة في استنباط المعاني والإشارات.

(٥) عند علماء الكلام: العَرَضُ لا يقوم بنفسه.

(٦) الذَّوْقُ: التَّعَمُّنُ واستطعام المعاني ومراداتها.

(٧) في إشارةٍ إلى قرب فوات الوقت، وانقضاء العمر.

[الركن الثالث: التوبة]

وعلى الركن الثالث: هذه زاوية التوبة، فيسارعُ طالبُ الله للاستلامِ بأحجارها، وتقبيلِ أماكنها، والتمرُّغِ بأعتابها، ولُزوقِ صفحاتِ الشَّيْبِ بِبقاعِها، وجَرَيانِ لآلئِ الدموعِ السَّوَائِبِ بِفِنائِها، والاختِسالِ بِمَعِينِ عَذْبِ زُلَّالِها، والطهارةِ من كل قاطعٍ لا يرضى به عَنَّا، وننسلخُ من كل حالةٍ لا يرضاها اللهُ ورسولُه، وننظرُ إليها، وننظرُ أن لو اطلعَ علينا أخصُّ أودائنا على هذه الحالة - فأحرى الأجانب - أن يرضى ذلك منه ومنا أم لا؟^(١) فلا أقلَّ من أن نعاملَ اللهُ هذه المعاملةَ، أن نعامله معاملةً مَن إذا استروخنا أن أحداً نستحي منه بمرأى منا ومسمعٍ أَفْتَقِدُ على ذلك الفعل أم لا، حتى نَدْعَهُ بِطَلْعِ علينا ولا نأمنَ غائلته ونستحي من مقابلته مرةً أخرى؟!

فمن كان يعلم أن الله مطلعٌ عليه فليعامل الله معاملةً من يَغْبُدُ والناسُ ينظرون إليه، أَفَيَدْعُ شيئاً من التحسين والتتقيق؟ لا، لا، وإن ادعى أنه لا يرضى بهذه الرتبة فليعامل معاملةً مَن كأنه يرى الله حالة العمل، فليُنظر أي شيء يعمل، أيعمل: وأعضاؤه تتقطع، وفؤاده يتفتت، وروحه تضطرب، ونفسه تنصاعدُ شوقاً إلى لقائه، وعقله ينازعه في ترك الأغيار^(٢) والغشاوات، ويده لا تفتُر عن العمل، ولسانه لا يسكنُ من الذكر، ورجله لا تزال مقيمةً بالأمكن المقدسة كي يُظِلَّهُ اللهُ في ظله يوم لا ظل إلا ظله؟ ومنهم رجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد، ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه^(٣).

ولا تُشترط الخلوةُ المعلومَةُ في نيل هذا الأجر، بل المرادُ منه ذكرُ الله ولو في المَلَأ، غير أن قلبه خلا عن ملاحظة غير الله، واعتباره: بفَنائه فيه،

(١) الأغيار جمع غير، والمقصود به: ما سوى الله تعالى.

(٢) جزءٌ من حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة، أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واستفراقه: في محبته، واصطلامه: تحت أنوار مشاهدته، وغيبوبة فكره: في أنوار جبروته، ووقف عقله: على اقتناص الشوارد من ميادين القرب، وتحبسي نفسه: على الفناء عن المشتتهات والملذذات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمشمومات، شغلاً بربه، وامتلاءً بحبه، وتقرباً بشوقه، مؤثراً بصبره، متعمماً بخوفه، متقماً برجائه، متمطقاً بإيمانه، متسزلاً بهدایتة.

ومن كان لا يعلم أن الله مطلعٌ عليه حالة العمل فالخلل في إيمانه، وفي الحديث القدسي: «إن كنتم تعلمون أنني مطلعٌ عليكم فلم جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم! وإن كنتم لا تعلمون أنني مطلعٌ عليكم فالخلل في إيمانكم»^(١)، وهذا في القرآن أيضاً فاقروا: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]، فذم من يستخفي ويستحي من الناس باطلاعهم عليه، ولا يستخفي من الله باطلاعهم عليه فيبارزه بالعظام.

وروى الطبراني عن أبي أمامة رفعه: «ثلاثة في ظل الله يوم القيامة: رجلٌ حيث توجه عليم أن الله معه، ورجلٌ دعت امرأته إلى نفسها فتركها من خشية الله، ورجلٌ يحب الناس لجلال الله»، وفي هذا الحديث رجلٌ متروك^(٢).

وفي الحديث: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومن عصي الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن»^(٣).

(١) لم أفق عليه.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٨: ٢٨٦ برقم ٧٩٣٥)، قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٢٧٩): فيه بشر بن نمير، وهو متروك.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢: ٦٣٠ برقم ٢٣٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١: ٤٥٢ برقم ٦٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٢: ١٥٤ برقم ٤١٣) عن واقد مولى رسول الله ﷺ.

وأخرج الإمام أحمد عن عطاء بن يسار: «إن موسى عليه السلام سأل الله: من تزويه في ظل عرشك؟ قال: هم الطاهرة قلوبهم، البرية أبدانهم، الذين إذا ذُكِرَتْ ذُكِرُوا بي، وإذا ذُكِرُوا ذُكِرْتُ بهم، الذين يُنْبِئُونَ إلى ذكري، ويغضبون لمحارمي، وَيَكْلَفُونَ بِحَتِّي»^(١)، زاد ابن المبارك: «الذين يعمرن مساجدي، ويستغفرونني بالأسحار»^(٢).

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة: «ألا تدرون من السابق إلى ظل الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أُعْطُوا الحق قبلوه، وإذا سُئِلُوا بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» وهو من الأحاديث الغريبة^(٣).

وفي أحاديث من يظلمهم الله في ظله: «ورجلٌ يراعي الشمسَ لمواقيت الصلاة، ورجلٌ إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت عن حلم»^(٤).

فهؤلاء ثمانية عشر ممن يظلمهم الله في ظله، يُزادون على السبعة في الحديث الصحيح^(٥) فتصير خمسة وعشرين، وهي فائدة حسنة حديثية، ومن جدَّ

(١) أي: يُؤَلِّفُونَ به.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص ٧٤، وابن المبارك في «الزهد» أيضاً ص ٧١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦: ٦٧، ٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١: ١٦) و(٢: ١٨٦-١٨٧) وقال: «هذا حديث غريبٌ تفرَّد به ابن لهيعة عن خالد، حدَّث به أحمد ابن حنبل عن يحيى بن إسحاق في مسنده».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص ١٨٩.

(٥) وهم: «إمامٌ عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ معلقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعت امرأته ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». كذا لفظ مسلم في «صحيحه» (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجدَ أكثرَ من هذا، فلسنا بصدد جمعها^(١).

فما دام الإنسان لم ينسلخ من كل ما لا يرضاه الله فلا يصح له التقربُ أصلاً، لقوله تعالى: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه»^(٢).

ولا يخفاكم إخواني أن معاصي كل أحد وسيئاته بحسبه، وتذكروا قولَ الصادق: «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين»^(٣)، فاتقوا محفَّرات الذنوب فإنها تكدر معيشة الأرواح واقتطافات العقول^(٤).

وقد قال سيدنا أنس: «إنكم لتفعلون أعمالاً هي في أعينكم كالذر، وكنا نَعُدُّها على عهد رسول الله من المُوبقات»، أي الكبائر والمهلكات.

فإذا أتقن هذه الزاوية وما تَخْطِي خُطوةً إلا وما كُتِبَ على زاوية الركن الثالث بين عَيْنِهِ لا يفارق، لِيُعِينَهُ على التنصُّل، والاستغفار، والذل، والانكسار بين يَدَيِ الملك القَهَّار: خالطت بِشاشة الإيمانِ القلوبَ، فيصير المرءُ يحب المرءَ لا يحبه إلا الله، ويكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ويكره أن

(١) عمل على جمعها غير واحد من أهل العلم منهم الحافظ ابن حجر في كتابه «معرفة الخصال الموصلة للظلال»، والإمام السيوطي في كتابه «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش» واختصره في آخر سماء «بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال»، وقد أوصلها إلى سبعين خصلة.

(٢) حديثٌ قدسيٌّ أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ليس بحديث، إنما هو كلام أبي سعيد الخزاز رضي الله عنه أحد أكابر الصوفية كما رواه عنه ابن عساكر. قاله العجلوني في «كشف الخفاء» (٤٢٨: ١). ولعل المؤلفَ عنه - أي الخزاز - بقوله: الصادق.

(٤) وفي الحديث: «إياكم ومحفَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكتنه»، أخرجه أحمد (٤٠٢: ١) من حديث ابن مسعود، وأخرجه كذلك (٣٣١: ٥) من حديث سهل بن سعيد الساعدي، رضي الله عنهما، وكذلك أخرجه الطبراني عنهما في «الكبير» (١٠٥٠٠، ٥٨٧٢). الناشر.

يُقَذَّفُ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» فِي وَصْفٍ مِنْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ^(١).

فاحرصوا إخواني في دَرْكِ طَعْمِ الْإِيمَانِ كَيْ يَحْمَلَكُمْ ذَلِكَ عَلَى الْمَجَاهِدَةِ فِي الطَّاعَاتِ وَامْتِثَالِ الْقُرْبَاتِ، وَعَدَمِ الْمَلَلِ وَالْكَسَلِ، وَعَدَمِ مِرَاقِبَةِ الْخَلْقِ، وَعَدَمِ الْخَوْفِ مِنْهُمْ، وَعَدَمِ رَجَاءِ شَيْءٍ مِنْهُمْ، وَعَدَمِ جَعْلِهِمُ الْعُمَدَ^(٢) إِذَا دَهَمَتْكَ الْمَضَائِقُ الدَّهْرِيَّةُ، فَلْيَكُنِ اللَّهُ أَجَلٌ وَأَعْظَمَ مِنْهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ، ذَوْقاً لَا لِسَاناً وَشَقَاقَةً، فَإِنْ مِنْ ذَاقَ هَذَا الْمَقَامَ - وَلَوْ بِطَرَفِ لِسَانٍ - تَرَاهُ ذَا سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَخَشْيَةٍ وَمِرَاقِبَةٍ عَلَى الدَّوَامِ، وَلَوْ فِي حَالَةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالتَّطَيُّبِ وَالْجَمَاعِ وَالْبَسْطِ، وَصَاحِبَ فِكْرَةٍ مَشْغُولَةٍ مَشْعُولَةٍ، وَصَاحِبَ ذِكْرِ دَائِمٍ، وَصَاحِبَ إِقْبَالٍ عَلَى اللَّهِ دَائِمٍ، وَصَاحِبَ ضَحِكٍ بِنَبْشٍ وَعَدَمِ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالضَّحِكِ، لِأَنَّهُ مِنَ الْغَيْبَةِ عَنِ اللَّهِ، وَعَدَمِ مَدِّ الرَّجْلِ إِلَّا إِنْ اسْتَحْكَمَتِ الْغَفْلَةُ أَوْ طَرَأَ النِّسْيَانُ، فَإِنْ مَنْ عَرَفَ جَمَالَ اللَّهِ وَجَلَالَهُ وَكَمَالَه جَالِسَهُ عَلَى الدَّوَامِ كَمَا تَنْبَغِي مَجَالَسَةُ الْمُلُوكِ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَيْئَةَ اللَّهِ وَسُطُوته فَقَدْ دَلَّلْنَاهُ عَلَيْهَا، فَلْيَقْتَفِ آثَارَ قَوْمٍ طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَةَ^(٣).

(١) وَهُوَ حَدِيثُ أَنَسٍ مَرْفُوعاً: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بَيْنَهُ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ (٤٣) عَنْ أَبِي قِلَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) جَمْعُ هُمْدَةٍ، وَهِيَ مَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، كَقُرْبَةٍ وَقُرْبٍ.

(٣) يُشِيرُ إِلَى الْآيَاتِ الْمَشْهُورَةِ:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا تُطَنَّنَا	طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَةَ
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا	أَنَّهُ لَا بَيْتَ لِحَبِي وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا	صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفِينَا

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ الْمَعَارِفِيُّ: كَانَ كَثِيراً مَا يَشْدُنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ [أَبِي الطَّرْطُوشِيِّ].. ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَاتِ، انْظُرِ «الصلوة» لابن بشكوال (٢: ٥٧٥).

وإن قال قائل: هذا الأدب ليس من المؤكّدات، نقول له: نعم، لكن عند أهل الغفلة، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ الْبَقَرَةَ﴾ [العلق: ١٤]، وفي الحديث: «استحيوا من الله حقّ الحياء»^(١)، وكان الخليل ﷺ يُسْمَعُ وَجِيبُ قلبه على مسافة ميلين، أي صوت سقوط قلبه. وروى عائشة أنه ﷺ: «كان يُسمع من صدره أزيز كأزيز المِرْجَل، حتى كان يُسْمَعُ في بعض سِكَكِ المدينة»^(٢)، وروى ابن أبي شيبَةَ في «المصنّف» من قول سعيد بن المسيّب أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه»^(٣)، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقيل لخلف بن أيوب العامري البلخي^(٤) الفقيه العابد: ألا يؤذك الذباب في صلاتك فتطردها؟ قال: لا أعود نفسي شيئاً يُفسد عليّ صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: «بلغني أن الفُتّاق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال: فلان صبور، ويفتخرون بذلك، وأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابة؟!».

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤: ٥٥٠ برقم ٢٤٥٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرج أبو داود (٩٠٤) وأحمد في «مسنده» (٤: ٢٥، ٢٦) وابن خزيمة في «صحيحه» (٢: ٥٣ برقم ٩٠٠) من حديث عبد الله بن الشَّخِيرِ رضي الله عنه: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو يصلي - وفي رواية: رأيت النبي ﷺ وهو يصلي - ولصدره أزيز كأزيز المِرْجَل».

(٣) «المصنّف» لابن أبي شيبَةَ (٢: ٢٨٩).

(٤) الإمام المحدثُ المفتي العابدُ خلف بن أيوب أبو سعيد العامري البلخي الحنفي، فقيه أهل بلخ وزاهدهم، أخذ الفقهَ عن أبي يوسف وابن أبي ليلى، والزهدَ عن إبراهيم بن أدهم، وسمع الحديثَ من عوف بن أبي جميلة وإسرائيل ومعمّر وغيرهم، قال الحافظ الخليلي في «الإرشاد» (١: ٢٧٤): «كبير، قديم، ثقة، يُذَكَّرُ بالزهد»، وقال في موضع آخر (٣: ٩٢٩): «صدوقٌ مشهورٌ بخراسان.. كان يُوصَفُ بالسر والصلاح والزهد، وكان فقيهاً على رأي الكوفيين، أي الحنفيّة. وفاته سنة ٢٠٥ هجرية، رحمه الله تعالى. وانظر «سير النبلاء» (٩: ٥٤١). الناشر.

ويروى أن أبا الحسن علياً بن أبي طالب إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل - أي يرتعد - بدنه ويتلوّن، فقبل له: مالك يا أمير المؤمنين، فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها».

وقال علي بن الحسين: «من اهتم بالصلوات الخمس في مواقيتها وإكمال طهورها لم يكن له في الدنيا عيش». كان إذا توضأ للصلاة تغيّر لونه وارتعد، فقبل له في ذلك فقال: «أتدرون على من أدخل، وبين يدي من أقف، ولمن أخطب، وماذا يرّد علي؟».

وقد طال بنا جوادُ القلم هاهنا، وربما من لم يفهم إلا عكس ما نحن بصده من الصفاء يقول: وأي مشابَهٍ لذكر الصلاة هاهنا؟! نقول له: يا أخي فاليك عنا، لا يكن بك ما بنا، فإننا قوم نطلب الله أن تكون أوقاتنا كلها صلاة، فنحن نرخص أنفسنا على الحضور مع الله في الأوقات عسى الرحمة الإلهية تلحقنا بالسابقين، فقد عوّقنا من الرّلات^(١):

والشَّمْسُ تَرْفُلُ فِي قِمَاصِ أَصْفَرِ	وَالْوُرُقُ تَشْدُوا وَالْأَرَاكُ تَتَشِي
وَالزُّهْرُ بَيْنَ مُدْرَهَمٍ وَمُدْنَرِ	وَالرَّوْضُ بَيْنَ مُفْضَضٍ وَمَذْهَبِ
وَالشَّطُّ بَيْنَ مُرْغَفَرٍ وَمُعْضَفَرِ	وَالنَّهْرُ مَصْقُولُ الْأَبَاطِحِ وَالرُّبَى
إِلَّا لِفُرْقَةٍ حُسْنِ هَذَا الْمَنْظَرِ ^(٢)	مَا أَصْفَرَّ وَجْهُ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا

(١) أي: عوّقنا من كثرة الذنوب والآثام عن الوصول إلى درجاتهم رضي الله عنهم، وهذا من تواضع المؤلف رضي الله عنه وتنزله مع المخاطبين.

(٢) الورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة.

الأراكة: شجرة يُستاك بعيداتها، ومنها عود الأراك.

مفضض: هو ما يسري فيه الماء، أو فيه بياض كالفضة، والمقصود: الزهور البيضاء.

مذهب: أي أصفر كالذهب يعني به الورود الصفراء.

وكانني بكم إخواني أهملت ذلك الشرط الذي عندنا في الورد، وهو محاسبة النفس، فلا تهملوه فإنه سبب الربح الديني والدنيوي والآخرى.

[الركن الرابع: الحياء]

ثم يُقال لك: التفت إلى الركن الرابع، فإذا مكتوب عليه: زاوية الحياء. فتعطف أُنْقَالَك واستحياءاتِكَ من الخلق ومتابعاتك معهم، وتقبلُ على الله بما وَهَبَتْهُ من حُلَّة الحياء، والحياء لا يأتي إلا بخير^(١).

وارضَ اللهم عن سالم مولى أبي حذيفة الذي قال فيه ﷺ: «إن سالماً يحب الله حياً لو لم يخفه ما عصاه»^(٢)، وارضَ اللهم عن أبي عبيدة ابن الجراح المَقُول فيه: «إنه أمينُ هذه الأمة»^(٣) حتى لما قيل لعمر بن الخطاب لما طعن: لو استخلفت؟ قال: «إن تركتكم فقد ترككم من هو خيرٌ مني، وإن استخلفتُ فقد استخلفت عليكم من هو خيرٌ مني، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفتُهُ، فإن سألتني ربي قلتُ: سمعتُ نبيكَ يقول: إنه أمينُ هذه الأمة، ولو

= مدرهم: أي مائل الأغصان، أو أبيض شديد الياض، تشبيهاً بدرهم الفضة.

مدر: أي أصفر كالدينار، أو لامع مبرق لضارته.

مصقول: مستوفي الاعتدال، أي: قليل الانخفاض والتواء.

مُزَغَفَر: أي وردِّي اللون لكثرة ورود الوردية.

معصفر: أي مليء بنبات المُصْفَر، وهو يرتقالي اللون، أو كثير الالتواء.

(١) وهو حديثٌ أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧)، وأحمد (٤٢٧: ٤) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١: ١٧٧).

(٣) كما ورد في «صحيح مسلم» (٢٤١٩) أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي عبيدة وقال: «هذا أمين هذه الأمة»، وفي صحيح البخاري (٣٧٤٤) ومسلم (٢٤١٩) عن أبي قلابة رضي الله عنه قوله ﷺ: «إن لكل أمة أميناً، وإن آميناً ابتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

كان سالمٌ مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعتُ نبيكَ يقول: «ما قدمناه آنفاً»^(١).

ويا للعجب من كون الحياء شعباً من شُعَبِ الإيمان البضع والسبعين ومع ذلك لا توجد الشُعْبُ كُلُّهَا إلا به، بشاهد ما في الحديث: «إذا لم تَسْتَحْ فاصنع ما شئت»^(٢)، أي لم يبقَ لك حاجزٌ ومانعٌ يمنعُكَ عن المعصية، فترتَعُ إذ ذاك في وادي المتآلف، والله المستعان.

[أهمية الصُّحبة]

فتعلموا اليقينَ بمجالسة أهل اليقين، والخشيةَ بمجالسة أهلها، والحياءَ بمجالسة أهله، والخُلُقَ الحسنَ بمجالسة أهله.

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ: «إن لقمانَ قال لابنه: يا بُنَيَّ عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلامَ الحكماء، فإن اللهَ يحيي القلبَ الميتَ بنور الحكمة كما يحيي الأرضَ الميتةَ بوابِلِ المطر» رواه الطبراني في «الكبير»، وهو في «موطأ» الإمام «مختصراً، وهو من بلاغات «الموطأ»^(٣).

(١) روى نحو هذا الإمام أحمد في «مسنده» (٢٠: ١) دون تقييده بوقت طمعه، وفيه قوله رضي الله عنه: «لو أدركني أحد رجلين ثم جعلتُ إليه الأمر لوثقتُ به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو هبيرة بن الجراح».

قلت: في سنده علي بن زيد بن جدعان، قال الحافظ الذهبي في «سير النبلاء» (١: ١٧٠): «علي بن زيد لئِن، فإن صحَّ هذا فهو دالٌّ على جلالة هذين في نفس عمر...».

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٠) من حديث أبي مسعود البَدْرِي رضي الله عنه، وأوله: «إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح...».

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٨: ٢٣٥-٢٣٦ برقم ٧٨١٠)، «الموطأ» برواية الليثي (٢: ١٠٠٢)، وعزاه في «كنز العمال» (٢٥٥٨٣) إلى المسكوي.

وعند الطبراني والعسكري عن أبي جُحَيْفَةَ رَفَعَهُ: «جالسوا العلماء، وسائلوا الكبراء، وخالطوا الحكماء»^(١)، وعن ابن عباس: قيل يا رسول الله من نجالس؟ أو قال: أيُّ جُلُسانا خير؟ قال: «مَنْ ذَكَرَكُمْ اللهُ رُؤْيَتْهُ وزاد في علمكم منطِقُهُ، وذَكَرَكُمْ الآخِرَةَ عملُهُ»، رواه العسكري^(٢).

فَهَبْ أَنْكُمْ لَا تَجِدُونَ مَعَ مَنْ تَجْلِسُونَ، أَلَيْسَ مَوْلَانَا الْوَالِدُ^(٣) يَمْلَأُ أَعْيُنَ مَنْ هُمْ أَعْلَى هِمَّةً مِنْكُمْ؟! فَلَا زِمُوا مَجَالِسَهُ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَّا لِأَفْعَالِهِ، وَلَا تَهْتَدُوا إِلَّا بِهَدْيِهِ، فَنَعَمْ النَّاصِحُ وَنَعَمْ الْمُؤَدَّبُ، وَنَعَمْ السَّيِّدُ وَنَعَمْ الْهَمَامُ، وَنَعَمْ الْخَلِيلُ وَنَعَمْ الْأَخُ وَنَعَمْ الرَّفِيقُ، فَلَا تَغْشُوا إِخْوَانِي أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تَذْهَبَنَّ بِكُمْ الْبَاطِلُ.

[الدعوة إلى تفقد الإخوان ومحبتهم]

وعهدَ اللهُ بَيْنَنَا^(٤) إِنْ لَمْ تَتَفَقَدُوا أَحِبَّابَنَا وَإِخْوَانَنَا أَيْنَمَا كَانُوا، وَلَا تَدْعُوا الشَّيْطَانَ يَعْثُ بِهَمْ، وَلَا تَزِيدُوهُمْ عَلَى مُحَبَّتِنَا فِيكُمْ، وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟! وَمَا جَزَاءُ مَنْ يُحِبُّ إِلَّا أَنْ يُحَبَّ، وَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٢: ١٢٥ برقم ٣٢٤)، ولكن بلفظ: «جالسوا الكبراء، وسائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء»، وعنده كذلك برقم (٣٢٣): «جالس العلماء، وسائل الكبراء، وخالط الحكماء»، وهو نفس سياق المصنف ولكن بصيغة الأفراد.

(٢) عزاه إلى العسكري في «الأمثال» الهندي في «كتر العمال» (٢٥٥٨٨).

(٣) والده هو الإمام العلامة المفسر الفقيه المجتهد المحدث الحافظ أبو المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني، ولد عام ١٢٦٨، ونوفي عام ١٣٣٣، وكان متفانياً في العلم والتعليم والدعوة إلى الله تعالى، أفنى عمره في ذلك، وكان كثير التهجيد، بل لا يرتاح جنبه حتى يقومَ فَرَعاً من أجل قيام الليل، صَوَّامٌ، ذَكُورٌ، حَافِظٌ لِلْكِتَابِ السَّنَةِ، يَسْتَحْضِرُ أَحَادِيثَهَا كَأَصَابِعِ يَدِهِ، وَلَهُ مَوْلُفَاتٌ مِنْهَا: مُبْرَدُ الصَّوَارِمِ وَالْأَسَنَةُ فِي الذَّبِّ عَنِ السَّنَةِ، وَكِتَابٌ فِي وَفَرْتِهِ ﷺ، وَكِتَابٌ فِي شَرْحِ آيَاتِ: «تَوَضَّأَ بِمَاءِ الْغَيْبِ»، وَ«نَجْمُ الْمُهْتَدِينَ» فِي نَصَرَةِ الصُّوفِيَّةِ فِي مَسْأَلَةِ الرَّقْصِ. وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا يَقْرُبُ مِنَ الْأَرْبَعِينَ مَوْلاً أَوْ يَزِيدُ.

(٤) والتقدير: تكونون قد خالفتموه.

وجدَ حلاوةَ الإيمان وطعمه: أن يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ في الله ويغض في الله تعالى، وأن توقدَ نارَ عظمةٍ فيقعَ فيها أحبُّ إليه من أن يشرك بالله شيئاً، رواه البخاري ومسلم والترمذي^(١).

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «من سرَّه أن يجدَ حلاوةَ الإيمان فليحبَّ المرءَ لا يحبه إلا الله» رواه الحاكم^(٢). وعن ابن عباسٍ رفعه: «إن الله جلساءُ يومَ القيامة عن يمين العرش، وكلتا يدي الله يمين، على منابرٍ من النور، وجوههم من النور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين»، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «هم المُتَحَابُّون بجلالِ الله»، رواه أحمد^(٣). وعن أبي سعيد الخدري رفعه: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» رواه ابن جبان في «صحيحه»^(٤).

اللهم ارزقنا يا أرحمَ الراحمين افتقاراً إليك بقدرِ استغنائك عنا، ويرحمُ الله أبا الحسن علياً بنَ أبي طالبٍ فإنه دخلت له رقعةٌ من عند بعض رعيته، وهو الحارث بن صغصمة، يتظلم من أحد فوقَ تحتها: «ومن لك بأخيك كله؟»، فبما أعظمها من كلمة.

وعن سيدنا أبي هريرة رفعه: «إن رجلاً زار أخاً له في قريةٍ أخرى، فأرصد الله على مذرَّجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريدُ أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمةٍ تربُّها؟^(٥) قال: لا، غير أنني أحببته في

(١) «صحيح البخاري» (١٦)، و«صحيح مسلم» (٦٧، ٦٨)، و«جامع الترمذي» (٢٦٢٤) من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) «المستدرک» للحاكم (٣: ١)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٩٨: ٢، ٥٢٠).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢: ١٢٤ برقم ١٢٦٨٦)، قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٤٩١: ١٠): «رواه الطبراني ورجاله وثقوا»، ولم يعزّه لأحمد، ولم أجده فيه.

(٤) برقم (٥٥٤) و(٥٦)، وأخرجه كذلك الترمذي (٢٣٩٥)، وأبو داود (٤٨٣٢)، وأحمد (٣٨: ٣).

(٥) تربُّها: أي تقومُ بإصلاحها وتنهض إليها.

الله عز وجل، قال: فإني رسولُ الله إليك، بأن الله تعالى قد أحبك كما أحبته فيه، رواه مسلمٌ في «صحيحه»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما رفعه: «خيرُ الأصحاب عندَ الله خيرُهم لصاحبه، وخيرُ الجيران عندَ الله خيرُهم لجاره» رواه الترمذي وحسنه^(٢).
وعن أنس بن مالك رفعه: «ما تحابَّ رجلان في الله تعالى إلا كان أحبهما الله أشدهما حباً لصاحبه» رواه الطبراني وأبو يعلى^(٣).

وكان مولانا رسولُ الله كثيراً ما يزور رجلاً مكفوف البصر بالمدينة، ويجلس عنده. وفي الحديث: «من زار أخاه المسلم شيعه سبعون ألفَ ملكٍ يصلُّون عليه ويقولون: اللهم كما وصَّله فيكَ فصيله»^(٤). وفي حديث البخاري ومسلم: «سبعةٌ يظلهم الله في ظله يومَ لا ظلٌ إلَّا ظله»، ومنهم: «شابُّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه»^(٥).

(١) «صحيح مسلم» (٣٨)، وهو عند الترمذي (٢٣٩١)، وأحمد (٤٣٩:٢)، وابن خزيمة (٣٥٨)، وغيرهم.

(٢) «الجامع الصحيح» للترمذي (١٩٤٤)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. وأخرجه أيضاً الحاكم في «المستدرك» (٤٤٣:١)، والدارمي (٢٨٤:٢ برقم ٢٤٣٧)، وابن خزيمة (٢٥٣٩).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٣٦:٢٠ برقم ٥٢)، «مسند أبي يعلى» (١٦٣:٦ برقم ٣٤١٩)، وأخرجه كذلك البزار (٣٦٠٠)، وابن حبان (٥٦٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (١٧١:٤). قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٦:١٠): «رجال أبي يعلى والبزار رجالُ الصحيح غير مبارك بن فضالة، وقد وثقه غير واحد على ضعف فيه».

قلت: ومباركٌ مدلس، ولكنه صرح بالسماع كما في «صحيح ابن حبان» و«الأدب المفرد»، فزال المحذور من روايته إن شاء الله تعالى.

(٤) عزاه في «كتر العمال» (٢٤٦٦٤) إلى «حلية الأولياء» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) وقد تقدّم.

وعن أبي مسلم قال: قلت لمعاذ: والله إني لأحبك لغير دنيا أرجو أن أصيبها منك، ولا قرابة بيني وبينك، قال: فلاي شيء؟ قلت: لله تعالى. قال: فجذب جِبتِي، ثم قال: أبشر إن كنت صادقاً، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المتحابون في الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء والصديقون»، قال: ولقيت عبادة بن الصامت فحدثته بحديث معاذ، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى: «حَقَّتْ محبتي على المتحابين فيّ، [وحَقَّتْ محبتي على المتناصحين فيّ]، وحَقَّتْ محبتي على المتزاوئين فيّ، وحَقَّتْ محبتي على المتبازلين فيّ، هم على منابر من نور يَغْبِطُهم النبيون والشهداء والصديقون [بمكانهم]»، رواه ابنُ حبان في «صحيحه»^(١).

وفي حديث شرحبيل بن السمط عن عمرو بن عبسة وفي آخره: «وقد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي»^(٢).

فبيعوا إخواني دنياكم بأخراكم، ولا تبيعوا أخراكم بدنياكم فيصدق علينا قول الله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَايِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَقْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فزوروا في الله إخوانكم، وأطعموا في الله، وتناصحوا في الله، وتصادقوا في الله، وتبذلوا في الله، وتجالسوا في الله، وأعطوا لله، وتحابوا لله وفي الله وبالله، وعظموا بعضكم بعضاً، وتعاموا عن زلات بعضكم بعضاً، فمن لك بأخيك كله؟!

(١) «صحيح ابن حبان» (٢: ٣٣٨ برقم ٥٧٧ من الإحسان) قال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده جيد». وأخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، وأحمد في «مسنده» (٥: ٢٣٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٠: ٧٨ بالأرقام ١٤٤-١٤٩، ١٥١، ١٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢: ١٣١) و(٥: ١٢١-١٢٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠: ٢٣٣)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الإخوان» (٩٨).

[الخاتمة]

وسيسألنا الحق عن النعيم، فإنه بين وفتر ورغب ورهب وحذر وأنذر، ويروى أن جابراً الجعفي قال: دخلت على الباقر فقال: ما تقول أرباب التأويل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]؟ فقلت: يقولون: الظل والماء البارد. فقال: لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل وأسقيته ماء بارداً، أتمن عليه؟ فقلت: لا، قال: فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه، فقلت: ما تأويله؟ قال: النعيم هو رسول الله ﷺ، أنعم الله به على هذا العالم، فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولا يعترض عليه هذا التفسير بعد تفسيره ﷺ، لأنه قال: «ما تقول أرباب التأويل؟»، ومعلوم الفرق بين التفسير والتأويل، والتأويل لا يعلمه إلا الراسخون في العلم بطريق الفكر المنور والبصيرة المطهرة، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لِمَنْ حِزْبٍ مُنْتَقِيٍّ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فاجتهدوا في أن تركبوا في هذه السفينة، فما بعد ركوبها إلا الوصول، لكن:

إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَسْرِ^(١)

(١) وهو شطر بيت لأبي العتاهية، يقول فيه:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَسْرِ
وقد جرى مثلاً، انظر: «موسوعة الأمثال العربية» (٦: ١١٧). ومقصوده: الحضر على اتخاذ الأسباب والحزم فيها.

وكنْتُ أردتُ أن أذكرَ محلَّ جريانها، وبِمَ تجري، ومن أين مبدؤها، وإلى أين تنتهي، وما يرى ركبُها في الطريق من التبشير والمخاويف، لكن منعتني من ذلك الضعف^(١)، وخفتُ أن أزيدَ من قيام الحُجّة عليكم بزيادة البيان، فإن الله كَرِهَ البيانَ كلَّ البيان كما في الحديث^(٢).

وأستغفرُ اللهَ لي ولكم، وأشكُرُ اللهَ لي ولكم، وأستوهِبه لي ولكم، وأسترحمه لي ولكم، إنه رؤوفٌ رحيم، والصلاةُ على الرؤوف الرحيم، وآله وصحبه وشيعته، والسلام.



(١) أي ضعف الناس عن مزيد العِظَة وإقامة الحُجّة.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨: ١٩٤-١٩٥ برقم ٧٦٩٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٨: ١١٦): في إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف.

النفاثس الكتانية

٣

نسخةٌ مَن غابَ عنه المُطَرِّبُ

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاث سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صلِّ على سيدنا ومولانا أحمد، كهفِ الذات، ولوحِ التشكُّلات، وآله وصحبه وسلم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رتقِ الأنموذجات، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على بساط الأسماء والصفات، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بجميع ذرات المنفعيلات، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لفتكِ عُرى أضرار التشكيكات والإبهامات والإبهامات في صورة غيابات جُبِّ: «فزادني ثلاث حثيات»^(١)، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على بساط: إذا تَجَرَّدَت اللطائف من الشكوك كست الصورة رونقاً وبهاء بإزاحة الحثيات، و﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في الاصطفاف بأنات القربات ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهم يُسْكَرَى﴾ [الحج: ٢]، بنفث ﴿وَرَبِّطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أزرَ المكافحات والتلقّيات إذ قاموا على شأن: «إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»^(٢)، عند همس الفهوائيات^(٣)، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالسقي في

(١) إشارة إلى حديث أبي أمامة مرفوعاً: «إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمي ألفاً بغير حساب» فقال يزيد بن الأخنس: والله ما أولئك في أمك إلا كالذباب الأصهب في الذباب، فقال رسول الله ﷺ: «قد وعدني سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً وزادني ثلاث حثيات». رواه أحمد (٢٥٠: ٥) والترمذي (٢٤٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (٤٢٨٦)، وقال المنذري في الترغيب (٤١٨: ٤): ورواه محتج بهم في الصحيح.

(٢) عزاء في مجمع الزوائد - أي الهيمى - (٢١: ٩) إلى البزار وقال: وفيه حفص بن عمار الطاحي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا (اه) بغير قوله: «أجلس...». ولكن أورد آثاراً بمعناه.

(٣) يقال فهوت عنه أي سهوت.

مُسميات: «أوتيت جوامع الكلم»^(١)، في بساطِ بحثية الوجود المطلق على برزخية «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٢) باستهلاك الأثنيَّات في بساط المناديات، «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» بأن هَيَّؤُوا للسقي من التجليات الذاتية مع نعت المجاهدات «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» عندية مجهولة العين والآخر «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ» [الأعراف: ٢٠٦]، في جدول: «إنما الساجدُ يسجد على قدم الرحمن»، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» «غَيْرِ الْمَفْضُوبِ عَلَيْهِمْ» بالصبر على مقتضى السياسة ينال شرف الرياسة / ١ /، لأن النفوس المتجوِّرة تترك الشهوات البهيمية طبعاً لا خوفاً على ناموس الخيالات، «وَلَا الضَّالِّينَ» في ميادين التحكُّمات العقلية الظلمانية المستقرة تحت مقعرِ فلَكِ القهر، وكل ذلك في عالم الكثافات، والوجود المطلق عزَّ إدراكه حتى من باب الإطلاقات^(٣).

أما بعد، فيقول محمد بن عبد الكبير الأحمدى الإبراهيمي الصديقي الأويسى الكتاني: هذا قانونٌ سمَّاه: «نسخة من غاب عنه المطرب».

[المقدمة: في العدل]

وإنَّ أحقَّ ما استحكمت فيه نفوسُ أولي النظر وانقادت إليه آراء أهل الفكر وحلَّت الشبهة عنه نواظرُ المتصفِّحين، وأمضت به عزائمها قلوبُ المعتبرين: العدل، فإنه سُنْعٌ^(٤) العقل، وجليقٌ^(٥) النهر، وصنُوُ الفهم، وعدو الهوى، وبه امتاز الوجود الحق.

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والإمام أحمد في «مسنده» (٣١٤: ٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٤) عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه بلفظ «الكبر»، ومسلم كتاب الإيمان (١٨٠).

(٣) هذه مقدمة بلسان جامع لدني، فنحيل معرفتها للذوق لطول شرحها وعُسرها.

(٤) السُنْعُ: بالضم اليمن والبركة.

(٥) جليق: أي وعاء، والمقصود محل نهر المعرفة.

ونحن التحفنا بالجور فلأجل هذا اختل نظام العالم، ولم يقم على ساق، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فالباء نقول نحن هاهنا جزائية أي: ظهر الفساد والاختلال والاعوجاج في البر والبحر جزاء عما كسبت أيدي الناس، أي الذين نسوا توفية العهد الذي عاهدوا الحق عليه، فلم يوفوا بنهاهم الذي قام بهم هذا الوصف.

وأما الذين ليسوا بناس، أعني الذين لم ينسوا العهد الذي بين الرب والمربوب في حضرة الذر، وهذا وصف ذميم عند من لا يفقه المسائل الإلهية، ووصف حميد عند الفقيه، فوفوا أحق ما عاهدوا عليه، ومنهم الخليل صلوات الله وسلامه عليه فوقى، وفي القرآن ﴿وَاتَّبَعِيهِ الَّذِي وُفِّيَ﴾ [النجم: ٢٧]، فوقى الحق عهده معهم فنصرهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ولم يضيع أجرهم كما قال يوسف الحسن: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، بل حفظ من بعد منهم حيث قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وكان بينهما سبعون جدًا، ومع ذلك حفظوا بصلاحه^(١).

[الحق تعالى جامع للإطلاق والتقييد]

وينقدح لك يا وليّ مسألة إلهية، وهي: أن الحق قيد نفسه، فهو جامع للإطلاق والتقييد، والمحال هو أن نقيده بعقولنا، وآرائنا، أما هو حيث قيد نفسه فليس لنا إلا الإيمان بالغيب.

(١) قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية في كتابه «الدر المثور في التفسير بالمأثور» (٥: ٤٢٢): «حفظ الصلاح لأبيهما وما ذكر عنهما صلاحاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته... وأخرج أحمد في «الزهد» عن كعب قال: إن الله يخلف العبد المؤمن في ولده ثمانين عاماً».

وهب أننا لم نطلع على ماهية المسألة فنؤمن بها إيماناً بالغيب، وبابُ الإيمان بالغيب يا وليُّ بابٍ متسعُ المجال فلا ينحصر.

ولما كان كلام الحق من هذا القبيل ولا يسع سامعه إلا التصديق، صدر الحق ديباجة كتابه فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ثم فسر المتقين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، فهي قاعدة كلية لا تنخرم ولو اجتمع الأنبياء والمرسلون على هذه الآية بحسب مكنوناتها عند الله ما قدرها قدرها.

فإن كثيراً ممن يدعي الإيمان بالغيب لو فتح الله له أبواب الغيوب لاختل إيمانه ولم يثبت لعدم مؤلفاته إلا لعالم المحسوسات.

[سر تحسرننا على المعترضين علينا من أهل الغفلة]

ومن هذا ينقدح لك معنى تحسرننا على من يعترض علينا في إبرازنا للعلوم الخارجة عن طور العقول الظلمانية، فلو آمن بها إيماناً بالغيب لأمن بالحق وأن له شؤوناً غيبية لا تقبلها العقول التقيدية، لكن لما أنكرنا علمنا أنه لو برقت عليه بوارق في غيوبات الفيض الأقدس لربما تمايلت شجرة إيمانه فتنتثر أوراق شعب إيمانه، وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١)، لأن من أطلع على تراكيب الكائنات وجد هذه الجزئيات متحداً بعضها ببعض، وهذا مرتبط بهذا، ومتصل به كما أفصح عن ذلك حديث: «المؤمن مرآة المؤمن»^(٢).

ولا يخفى أنك إن قابلت من جهة اليمين والشمال والفوق والتحت مرآتي، بالضرورة ما هنا ينعكس هاهنا وبالعكس، فقله: «المؤمن مرآة / ٣ /

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٧١، ٧٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ولكن بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى...».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخيه»^(١) المرادُ أن الانفعالَ الظاهرَ في هذه المرأة والمؤثرَ في هذه هو أثر تأثير الأسماء والصفات، المراد: أن ما في هذه المرأة يظهرُ في هذه.

ولا يخفى أنا إذا قابلنا شخصاً لا نطلع على ما في سرائره إلا مَنْ وَمَنْ^(٢)، وعليه فيتضح معنى الحديث بما تلوناه.

وهذا الحديث يا وليّ من أمهات الأحاديث المأخوذ منها تحقيق المسائل الإلهية الفلسفية.

[سبب اختلاف الطبائع في الإنسان]

ولما كانت هذه الهياكل مركبةً من إطلاقٍ وتقييد، وكان الوصفان على طرفي نقيض: صار كلُّ شكلٍ يجبر إلى أصله. فالكثافات العنصرية تنجذب إلى وكر عناصرها الظلمانية، فلا تألّف إلا ارتكاب النواهي ومجانبة الأوامر، وعدم المشي على متن الأخلاق وشيم المكارم، واللطافات لاحقةٌ بعوالمها فلا تألّف إلا امتثال الأوامر، فلا تقدر على الزجر والإقماع من الخطابات الإلهية، لأنها على بساط القرب فلا تألّف إلا مقتضيات العصمة. فهما دائماً في التشاجر والتنافر.

فالأشكال لاحقةٌ بأشكالها كما أن الأضدادَ مبينةٌ لأضدادها، وفي معنى التشاجر:

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعْرُزٍ وَتَمْنُجٍ^(٣)

(١) أخرجه الترمذي (٤٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «المؤمن مرآة المؤمن». وفي محل آخر (١٩٢٩): «إن أحدكم مرآة أخيه».

(٢) أي: إلا بصعوبة ومشقة.

(٣) ورقاء: أي حمامة.

محجوبة عن كل ثقلية عارف
وصلت على كُزهِ إليك وربما
أنفث وما ألقث^(٢) فلما وصلت
وأظنها نسيث عهداً بالحمى
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها^(٥)
علقت بها هاء الثقيل فأصبحت
تبكي وقد نسيث عهداً بالحمى
حتى إذا قرَّب المسير إلى الجحى
وغدت تُغرَّد فوق ذروة شاهق
وتعود عالمة بكل خفية
فهبوطها إذ كان ضربة لازم
فلإي شيء أهيئت من شاهق

وهي التي سَفَرَتْ ولم تَبْرُقْ^(١)
كرِهَتْ فراقَكَ وهي ذاتُ تَفْجُعٍ
أَلَفَتْ^(٣) مجاورة الخرابِ البَلْقَعِ^(٤)
ومنازلاً بفراقِها لم تَقْعِ
من فيح مركزها بذات الأجرع^(٦)
بين المعالم والطلول الخُضْعِ
بمدايح تهيم ولما تُقْلِعِ^(٧)
ودناً الرحيل إلى الفضاء الأوسع
والعلم يرفع كل / ٤ / من لم يُزْقِعِ^(٨)
في العالمين فَخَرَقُها لم يُزْقِعِ
لتكون سامعة لما لم تَسْمَعِ^(٩)
سام إلى قعر الخَضِيزِ الأَوْقِعِ^(١٠)

(١) سَفَرَتْ ولم تَبْرُقْ: أي أظهرت جمالها دون ستره.

(٢) أَلَقَتْ: أي ما تزينت، أو ما قامت للنزاع.

(٣) أَلَفَتْ: محل.

(٤) البَلْقَعِ: الأرض القفر.

(٥) هاء هبوطها: أي بداية هبوطها أو حيث يظن هبوطها.

(٦) الأجرع: أي منها ما به حجاره، ومنها رمل. أي قاسية صعبة. وعند الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه عن ابن سينا ص ٨٦: «في ميم مركزها» على أن عنده سقطاً في الأبيات التي أوردها.

(٧) في المصدر السابق: تبكي إذا ذكرت دياراً بالحمى.

(٨) في المصدر السابق: ويدت تغرد.

(٩) في المصدر السابق:

فهبوطها - إن كان ضربة لازم - لتكون سامعة بما لم نسمع

(١٠) في المصدر السابق: لازم بدل: لازم، والأوضح بدل: الأوقع.

إن كان أرسلها إليه لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع^(١)
 إذ عاقها الشرْدُ^(٢) الكثيفُ فصَدَّها قفصٌ عن الأوجِ الفسيحِ الأرفعِ
 فكانها بَرَزَتْ تَأَلَّقَ^(٣) بالحمى ثم انطوى فكانه لم يَلْمَسْ^(٤)

وكان لا سبيلَ إلى صيرورة عينِ النفسِ والروحِ واحدةً إلا بسلوكِ متنِ الرياضةِ
 والمجاهدةِ، وإلا بقيَ الإنسانُ منبوذاً بالعراءِ وهو سقيمٌ، فلا خُبْرَ عنده ولا خَبَرَ.

[حال صوفية الزمان]

وهذا يا وليَّ بطريقِ الإنصافِ هو حالُ صوفيةِ الزمانِ، فتجدهم قد مضت
 سنواتٌ عديدةٌ وهم في الأذكارِ والمجاهداتِ ولم تظهرَ لنا ثمرةٌ مواجيدهم ولا
 شطحاتهم، ولا كثرةٌ لقيهم بالأشباخِ ولا كثرةٌ سياحتهم^(٥)، فأين ذهبَ ما ذُكر؟
 مع ما انطوا عليه من كثرةِ الغِلِّ والحسدِ والتباغضِ والشحناءِ، من تحجيرِ الحقِ
 في طريقِ واحدٍ، وأنه لا يصلُ إليه إلا مَنْ سلكَ طريقهم، فضلَّوا وأضلَّوا وظنوا
 أنهم قد زعموا بسلوكهم طريقَ الله، ورحم الله الجنيدَ حيث أنشد لما رأى فسادَ
 الحالِ:

أهل التصوِّفِ قد مضوا صارَ التصوُّفُ مخرقةً
 صارَ التصوُّفُ ركُوءاً وسُجَّادةً ومُزَلَّقَةً

(١) الأروع: أفعَل، من راع. ويوجد بتر في الشطر الأول بمقدار كلمة واحدة لا يستقيم الوزن بدونها. وهي: إن كان أمبها لحكمة [...]. فجبرت الشطر من المصدر السابق.

(٢) الشرْد: فَعِل، مبالغة من الشرود، أي: الشارد الهارب. وفي المصدر السابق: الشرك.

(٣) تألَّق: ارتفع وعلا.

(٤) وهذه القصيدة هي عينية ابن سينا المعروفة. وقد نقلها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، في

ترجمة ابن سينا ضمن سلسلة: «نوايخ الفكر العربي» ص ٨٥، مع اختلاف وزيادة

ونقصان، واختلاف في التركيب عما بين يدينا.

(٥) في الأصل بخط النسخ: لسياحتهم.

إسلامهم، ومنهم خبابٌ رضي الله عنه، وقاسى بلاءً شديداً من أجل إسلامه، وقال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه به ما نلقاه من البلاء وقلنا: ألا تدعُ الله لنا؟! ألا تستنصر لنا؟! فجلس مُخَمَّراً وجهه ثم قال: «والله مَنْ كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيوضع المنشار على رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه شيء، ويُمشط بأمشاط الحديد ما بين عصبٍ ولحمٍ ما يصرفه عن دينه شيء»^(١).

أردتُ أن أكتبَ رسالةً لنفسي قصد محاورتها ومناظرتها وإبداء عُوارثها ومعانيها وإنصافي منها، وذلك / ٦ / لأن محبتي فيها لها، لا لي.

[الفرق بين مَنْ أحبك لك وَمَنْ أحبك لنفسك]

وكل من أحبك لك أبرز من معاييك وفضائلك ما تقر به عينك يومَ تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً.

ومن أحبك لنفسك كتمَ معاييك، ودامت محبته لك على بساط المدارة والمداهنة، وبنتت الصحبة، وبش ابنُ عشيرةٍ من يرضى بها وهو يدعي علوَّ الهمة، وأما قول:

وعين الرضى عن كل عيبٍ كليلٌ ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المساويا
فهو مقامٌ من يحبك لنفسه، لا من يحبك لنفسك، وفي كلام أرسطوطاليس الحكيم^(٢): من لم يُردك لنفسك فهو النائي عنك وإن كان قريباً، ومن أرادك لنفسك فهو القريب، وإن تناءى قرابة.

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢)، وأبو داود (٢٦٤٩)، والنسائي (٢٠٨:٨).

(٢) النقل في هذه المسألة نقلٌ عقلي فلسفي، ولذلك كان دأب العلماء في هذه المواطن إجازة النقل عن سبق هذه الأمة من الحكماء والعقلاء، ومنهم فلاسفة اليونان كأرسطو، وأرسطوطاليس، وأفلاطون، وسقراط وغيرهم، انظر كتب الغزالي والرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ممن تطرقوا إلى العقليات.

وقال أيضاً: إذا تجوهرت النفوس الفلسفية لحقت بالعالم العلوي، فلا تسكن إلى الهموم الترابية ولا يعترضها زللٌ.

وإياك والاكتفاء والتطبع والتكحل، فقد قال الحكيم أيضاً: مباينة التكلف للمطبوع كمباينة الحق بالباطل. وقال من ظهرت معجزاته في المعاني: ليس التكحل بالعينين كالكحل.

[علل الأفهام أشد من علل الأجسام]

على أن من أصيب في جسمانيته فقد يُعرضُ على عقاقير الطب فتتفعل فيه بخلاف من أصيب بداء الرضى عن النفس أو الجهل أو قلة التدبر في الأشياء، أو قلة حُسن السياسة، فداؤه أعظم.

وقد قال الحكيم: «علل الأفهام أشد من علل الأجسام». ومن كلام أفلاطون: من القبيح أن نمتنع من الطعام اللذيذ لتصح أجسامنا ولا نمتنع من القبانح لتقوى بذلك أنفسنا.

فترى الإنسان يدعي الحكمة والعقل والتمييز والرأي السديد فإذا سمع أحداً يشتمه غضب غضباً منعه من سائر ملاذّه، وكان من حقه إذا سمع من يتكلم فيه أن يجرد نفسه ويقول: يا نفس: إن كان هذا فيك فلاي شيء تغضبين^(١)، وهل هذا إلا حمقٌ وجهلٌ مركّبٌ وتعام. فيتخذ من يتكلم فيه شيخه، لأنه أطلعه على عيوب كامنة فيه ولا يطلع هو عليها إلا بمرشد، وهذا قد شاركه في هذه / ٧ / المنقبة فيتخذ في هذه المسألة.

وإن لم يكن فيه ما وُصفَ فما معنى الغضب ولاي شيء يصفرُّ ويحمرُّ ويرزق؟! فيشكر الله حيث قدّسه من ذلك النقص المنسوب إليه، ويحزن على

(١) في الأصل بخط النسخ: تغضب.

حَسَنَاتِ أَخِيهِ كَيْفَ اجْتَنَّتْ مِنْ أَصْلِهَا وَوَضَعَتْ فِي صَحِيفَةٍ هَذَا الْمَتَكَلِّمِ فِيهِ،
كَأَنَّهُ يَغْضَبُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ وَقَعَتْ فِي مِثْلِ هَذَا.

وهذا الخلق من شعب الإيمان: «وَأَنْ تَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ»^(١)،
ثُمَّ إِنَّكَ لَا تَتَكَلَّمُ فِي الْمَتَكَلِّمِ فِيكَ وَهُوَ غَائِبٌ، لِأَنَّهَا غَيْبِيَّةٌ، وَهِيَ تَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ
بِقَدْرِ سِتِّ وَثَلَاثِينَ زَنِيَّةً إِنْ كَانَ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَهُ،
وَالْحَقُّ يَقُولُ: ﴿هَذَا يَهْتَنُّ عَظِيمٌ ۖ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾
[النور: ١٦-١٧]، فَشَرَطَ عَدَمَ الْعُودِ إِلَيْهِ بِكَوْنِهِ مُؤْمِنًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَامِلَ الْإِيمَانِ
عَادَ إِلَيْهِ، وَلَا يَخْلُو أَيْضًا مِنْ أَنْ تَعَيَّرَهُ وَالشَّارِعُ يَقُولُ: «لَا تَظْهَرِ الشَّمَاتَةُ بِأَخِيكَ
فِيَعَافِيهِ اللَّهُ وَيَتْلِيكَ»^(٢).

[خصائص النفس لا تزول]

وَإِنِّي يَا وَلِيِّيْ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ النَّفْسِ، وَلَا يَصِحُّ عِنْدِي انْقِطَاعُ صِفَاتِهَا
أَبَدًا وَلَا خِبَائِثُهَا لِأَنَّ مَذْهَبَنَا أَنَّ الْبَقِيَّةَ لَا تَنْقَطِعُ، وَمِنْهَا تَنْجَسُ مُقْتَضِيَاتُ
الْأَخْلَاطِ وَالْمَوَادِّ.

وَمِنْ كَلَامِ أَرِسْطُو: «النَّفُوسُ الْمُتَجَوِّهَةُ تَأْتِي مُقَارَنَةً الذَّلْ جَدًّا، وَأَيُّ ذَلٍّ
أَعْظَمُ مِنْ تَحَكُّمِ النَّفْسِ فِي الْإِنْسَانِ، وَمَهْمَا تَحَكَّمَتْ فِيهَا وَأَفْنَاهَا عَنْ مُحَسُّوسَاتِهَا
حَيَّتْ حَيَاةً دَائِمَةً لَا تَنْقَطِعُ، وَالنَّفُوسُ الدُّنْيَا بِضَدِّ ذَلِكَ، تَرَى مَوْتَهَا مَوْتَهَا مَعَ أَنَّ
مَوْتَهَا حَيَاتُهَا.

وَمِنْ كَلَامِ أَرِسْطُو فِي رِسَالَةِ لِلْإِسْكَانْدَرِ: «وَاجْمَعْ فِي سِيَاسَتِكَ بَيْنَ بَدَارِ أَيِّ
عَقْلِ لَا حَذَّةَ فِيهِ وَرَأْيٍ لَا غَفْلَةَ مَعَهُ، وَامْزِجْ كُلَّ شَكْلٍ بِشَكْلِهِ حَتَّى تَزْدَادَ قُوَّةً،

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (١: ٨٨-٨٩) عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَابْنُ مَاجَهَ (١٤٣٢)،
وَالدَّارِمِيُّ، فِي «مُسْنَدِهِ» (٢: ٣٥٧) بِرَقْمِ (٢٦٣٣).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥٠٦)، وَغَيْرُهُ.

وكن عبداً للحق فعبد الحق حر، وليكن وَكْرُكَ الإحسان إلى الخلق، ومن الإحسان وضعُ الإساءة في موضعها، وكن نَصِيحَ نفسك فليس لك أَرَأُفُ بك منك، ومهما أخطأك شيءٌ فلا يخطبك الفكرُ في الرحيل عن هذه الدار... إلخ.

على أن من رضيَ بجميع ما يصدر منه سُرِثَ عنه نقائصه، وظهرت كمالاته، مع أن الإنسان لا يخلو من نقائص أبداً، فيرى / ٨ / غيره من نفسه ما لا يراه هو من نفسه، لأنه هو أنزلها منزلة الرضى وغيره بالضرورة يفحص عن الأشياء فيرى عواراته، وصاحبها المتصف بها في غفلة عن هذا لجهله، وهذا يظن أنه يحب نفسه مع أنه - بحسب الحقيقة - ييغضها لأنه يترك غيره يطلع على معاييه، وهذا أجل ما تتصف به النفوس الدنية.

وهذا العبرة عنده بالظواهر وحسن الثياب وتنميق الوجه، مع أن الشارع يقول: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»^(١) إذاً: العبرة بالباطن في هذه المواطن لا بالظواهر.

فالإنسان إنسانٌ بجوهره الروحي المتصل بالعالم العلوي لا بإنسانيته، وقد قال أرسطاطاليس: الإنسان شبحٌ نورٍ روحاني، ذو عقلٍ غريزي، لا ما تراه العيون من ظاهر الصورة.

[صاحب الهمة لا يَغْتَرُّ بالإقبال ولا بالإدبار]

فصاحبُ الهمة لا يَغْتَرُّ بالإقبال ولا بالإدبار، ولا بالذم ولا بالفقر، ولا بالغنى، فالمال والحكمة متغايران فلا يجتمعان، فالحكمةُ حظ النفس الناطقة، والمالُ حظ النفس الشهوانية، والناطقةُ غالبٌ على الشهوانية، كذا علل

(١) أخرجه مسلمٌ (١١: ٨) وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد (٥٣٩: ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أفلاطون، فكل مَنْ خاطب نفسه وأمرها بفنائها عن ملاذها وامتنعت فليُخبرها بأن هذا العالم خَرِبٌ، وتقدّمه الخراب، ويعقبه الخراب، وهَبَ أنها جَمَعَتْ مَمَّها على الدنيا ومتعلقاتها فعمًا قليل تفارقها خُسرًا وحتماً عليها.

وإذا كان كذلك؛ فتعلم أن من رأى الأمر يفضي إلى آخر فيصير آخره أولاً، وقد روينا في «الصحيح» عن سيدنا ابن عمر أنه رضي الله عنهما قال له: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»^(١).

[هذا العالم ليس بمستقر، ولكن مجازٌ للمستقر]

ولا يخفى أن هذا العالم ليس بمستقر على الحقيقة، فهو مجازٌ للمستقر الحقيقي، فقد كنا على ساحل العدم، ثم أُبرِزنا لعالمٍ المرور إلى محل الحياة الدائمة إن شاء الله، فأدنى شيء يكفيك يا أيتها النفس الدنية. فلتأكل ما تجد، ولتلبس ما تجد، ولتنم على ما تجد ولو التراب^(٢).

فإذا اطَّلَعَ على هذا / ٩ / هانت عليه الدنيا وسهل عليه الزهد فيها، سيما مع علمه بأن العبرة بالجوهر اللطيف السماوي لا الأرضي الترابي، وإلا لما بقي فرق بين الدواب وغيرهم.

ويخبرها بأنها: هَبَ أنها ملكَتْ ما ملكَتْ واستولَتْ على ما استولَتْ، فلا تُخرجُ معها من هذه الدار غيرَ القطن والكفن مع كثرة التسامح منهم في أنه لا يستاهله، ويكفيه كذا مع كونه ترد عليه الآخرة والحق تعالى في أن يتركه لهم، ومع ذلك فربما يكون قطنه وكفنه شُعلاً من النار عليه مع أنه شَبَّ عليهما وشاب، فهكذا تفعل الدنيا بأهلها.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٤١٦)، وغيره.

(٢) كأن المؤلف - رضي الله عنه - يمزج بين أسلوب مخاطبة النفس ومخاطبة القاري، فليتبّه لذلك.

[رفع الهمة أساسُ الكمال]

ومن هذا تعلم يا وليّ أنّ من تقدّست نفسه عن الشهواتِ البهيمية هانت عليه مفارقةُ هذا العالم، وأما مَنْ تَلَطَّحَ بالشهواتِ وانشقَّ من الملاذِّ الحسية ما التحقَ بالعالمِ الدوائِيّ والبهيمي؛ صَعَبَ عليه مفارقةُ مساكنِ الأجسامِ الترابية، فالنظرُ في عواقبِ الأشياءِ يزهدُ في حقائقها.

وقد عَلِمَ أنه لكل شيءٍ صناعةٌ، وصناعةُ العقلِ حسنُ التدبيرِ والاختيارِ والسياساتِ، وقد رأى أرسطو إنساناً سمين البدن فقال: ما أشدَّ عنايتك برفعِ سُورِ جسمك^(١).

وهذا جافُّ الرطوباتِ المعنوية، فكأن ذاته شِنٌّْ بالٍ، والجسمُ إذا خلا من الثراءِ المعنوي مات وصار في حكم الإعدام.

وَمَبَّ أَنْ الإنسان تقوى ما تقوى ولم يُزَلْ عجزَ نفسه عن اللحوقِ بعالمِها، فهو أعجزُ العاجزين، ومن كلام أرسطو: أعجز العَجْزة من قدر أن يزيل العجزَ عن نفسه فلم يقدر.

[من تمام عقل المرء عدمُ الشكوى إلى الآخرين]

ومن تمام عقل المرء وأناته ألا يشكو ما به غيره، لأن المشكوى إليه إما أن يواسيك في همِّك، وهذه الذروة القصوى، وهو الصديق الكريم، وإما أن يسليكَ وهي الوسطى، وهو الصديق الحكيم ذو التجارب الذي جلب أسطر الدهر، وإما أن يتوجَّع وهذه السفلى، وهو الصديق العاجز.

ولا بُدَّ من شكوى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يُسليكَ أو يتوجَّع

(١) أي: علامته وشدته وسطوته واعتدائه.

وأعظمُ الأحبة اليومَ من يتوجع - وإن كان فيه شيءٌ من التسلية - لكن هذا فرقٌ / ١٠ / اتصف به العدو والصديق، فربما اختلس العدو وصار يتنصل، وليس مراده إلا أن يجذب ما في خباياك فيحصل له التشيع، وذلك أمينته، فاترك الكل.

بل الحيوان كله متقلبٌ، فربما شكوته قصدَ أن يفرِّجَ عنك ما بك فتجده حيرانَ مما دهمه وهاله فيشكوك فربما تصدعت، والبنية ضعيفة، فليس من السياسة شكوى بعض إلى بعض، ومن لا يصلح لأحد هذه الأمور فترك صحبته لأن كل من أردته اليوم لدفع ملئة تجده إحدى المصائب:

إذا كنتَ لا علمٌ لديك تُفِيدُنَا ولا أنتَ ذو دينٍ فترجوكَ للدينِ
ولا أنتَ ممن يُرتجى لكريمةٍ عملنا مثلاً مثلَ شخصِكَ من طينِ

قلت: لو كان صاحبُ هذا البيت ممن يعاشر صبيان الملا العلوي ويتعلم منهم المدة: الغيبة المأخوذة من السياسة الإلهية ما ضيع الطين في تمثاله، بل الأذى الذي يصيبك إنما هو ممن تعرف:

جزئُ اللهُ خيراً كلَّ مَنْ ليس بيننا ولا بينَهُ ودٌّ ولا متعرِّفُ
فما هالني ضيمٌ ولا مَسْنِي أذى من الناسِ إلا من فتى كنتُ أعرفُ

وكان ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم^(١) ولا ينفهم، ويكرم كريمَ كل قوم ويؤليه عليهم، ويحذرُ الناسَ ويحترسُ منهم من غير أن يطوي عن أحدٍ منهم بشره ولا خلقة:

مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِأَعْدَائِهِ تَجَرَّعَ الْهَمَّ بِلَا كَاسٍ

(١) المقصود: الصحابة رضي الله عنهم.

ولو كانت لي سجية في هذا البيت لقلت بأحبابه لا بأعدائه، فالعاقل من
كتم أمره ولم يشك إلى أحد:

لا تُظهرنَّ لمأذِرٍ أو عاذِلٍ حالتيك في السراءِ والضراءِ
بل حُمّةَ المتوجِّعينَ مرارةً في القلبِ مثلَ شِماتِ الأعداءِ
وآخر:

مالي شكوتُ إليك نارَ جوانحي لتكونَ مطفئها فكنْتَ المُسِعِلا
وقال أبو بكر عبادة ابن ماء السماء الأندلسي^(١):

لا تشكونَّ إذا عثرتَ إلى خليطٍ سوءَ حالِكُ
فيريكَ ألواناً من الإذلالِ لَمْ تخطر ببالِكُ

ويقال إن رجلاً كان على عهد كسرى يقول: من يشتري / ١١ / ثلاث
كلماتٍ بآلف دينار. إلى أن اتصل بكسرى فأحضره وسأله عنها، فقال: ليس في
الناس كلهم خيرٌ. فقال: صدقت، ثم ماذا؟ قال: ولا بد منهم، فقال صدقت،
ثم ماذا؟ قال: فالبسهم على قدر، فقال كسرى: قد استوفيت المال فخذ،
قال: لا حاجة لي به وإنما أردتُ أن أرى من يشتري الحكمةً بالمال.

[يجب عدم ترك المشورة]

ومع هذا فدع ما كدر وخذ ما صفى، فالعالم على قسمين، ويكفي في طلبه
المشورة حتى لو لم يكن في الوزير والصاحب إلا هي لكفت، وفي القرآن

(١) أبو بكر عبادة بن عبد الله الأنصاري الأندلسي، المعروف بابن ماء السماء، رأسُ الشعراء
في الدولة العمارية بالأندلس وشاعر عصره، وهو الذي أقام عماد «الموشحات» وهذب
ألفاظها وأوضاعها، واشتهر بها شهرةً غلبت عليه. له كتاب في «أخبار شعراء الأندلس»،
وفاته بمالقة سنة ٤٢٢ هجرية. قاله في «الأعلام» (٣: ٢٥٨). الناشر.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، لتستفيد منهم رأياً وعلماً، لكن لتعرف مقادير عقولهم وأفهامهم، وأي رتبة من الرتب استهلكك أفكارهم في الشغف عليها، فإذا شاورتهم في الأمر اجتهد كل واحد منهم في الوجه الأصح في تلك الواقعة، فتصير الأرواح متوافقة متطابقة، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله، وهذا هو السر في الاجتماع عند الصلوات وكون صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد.

[لا بد من الخليل أن يكون وزيراً]

فقد نبه - يا وليي - القرآن على أن من أراد اتخاذ خليل فلا بد من أن يكون وزيراً، لقول الكريم: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وِزِيرًا﴾ [طه: ٢٩]، والوزير مشتق من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر وهو الحيل الذي يتحصن به، أو من المؤازرة وهي المعاونة، والمؤازرة مأخوذة من إزار الرجل، وهو الموضع الذي يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب.

[العلم الإلهي وحال المصنف في زمانه]

ثم اعلم يا وليي أنني في هذه البلاد مسجون في قفص لشغورها عن أرباب تحقيق العلم الإلهي، وهب أنني عثرت على واحد أو اثنين أجد مستندهم في ذلك الأنقال عن الكتب، وإن تلوث عليهم شيئاً من الكلام القريب العهد من الحق المأخوذ عنه لا عن أحد تسارعوا للإنكار عليك أو اقتطفه آخرون فيسندوه لأنفسهم، ويقولون لآخرين: ورد علينا كذا وكذا.

وهذا العلم لم تتقدم لي خبرة به أصلاً، ولا تحاورت مع أحد فيه حتى جاء بغتة على العادة الإلهية، حتى إني ببركة سيدي وروحي / ١٢ / الشيخ عبد الكبير الكتاني لا آخذ علمي إلا عن الكتاب والسنة باعتبار بطونها التي لا تنحصر، وما ذلك إلا لأن الحق يريد أن لا يُخرجني عن دائرة قدسه.

وتراني يا وليّ أقول له قال تعالى بلسان عجمي، وهو يقول: قال فلان، وكل من استند في تحقيق المسائل الإلهية على الكتاب فلا تزيده إلا غموضاً وتحيراً، فيكون عارفاً بالحروف فيدخل في آية: ﴿مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، تدبر.

وما جلستُ للتذكير إلا قهراً وحتماً وواجباً عليّ، لكن مع هذا لا تستقلّ نفسي بالتدبير، لأنني عالمٌ بأحكامها ومخايلها، فلو تتبعتها لتركنتي زمناً^(١) ملقى على الأرض، فتالله لكنتُ أنظر إلى أمواج البحر وتلاطم جوانبه وأنظر إلى صدرِي فأجد العلم والحكمة التي يتفجر مني أكثر وأكثر، فأختلي بنفسي خوف أن يكون ذلك من باب ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَرَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، فيكون مكرّاً أم استدراج؟ إلى أن رأيتُ رؤيا منامية، وهي:

[رؤيا منامية للمصنف رضي الله عنه]

أنني رأيتُ كأنني وسطُ بحرٍ طامٍ ووسطه جدارٌ، فصرتُ أتعجب هل الجدار يثبت على الماء، مع أنه يحتاج للأساس، ولا يثبت على قعر الماء لاشتباك الماء به، والماء فيه ثَنٍ كهينة الرُّود^(٢)، وفي وَجَلٍ عظيمٍ من خوف سقوطي من أعلى الجدار فيتلقاني أسدٌ ضارٍ أعظم، فإذا بالجدار صار يتلو: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ﴾ [الزلزلة: ١-٥]، فشغلتُ عن الخوف بترنم الجدار فاستيقظت.

فعلمتُ أن الوحيَ منوطٌ بزلزال الأرض وإخراج الأرض أثقالها ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُوهَا حَوْلَكُمْ ۚ وَرَأَىٰ ظُهُورُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

(١) في الأصل بخط الناسخ: زمن.

(٢) الرُّود: ج زَرَد: وهو درعٌ منسوجٌ بتداخل على هيئة مخصصة.

[حوارٌ بينه وبين نفسه]

فعلمتُ أنني ظفرتُ بنفسي فقامت الحجةُ مني عليها، وقلت: يا نفسُ قد علمتُ بقصورِكَ وشدةِ اختيالك وعدمِ / ١٣ / تصبُّركِ للأمورِ العظامِ، فأنصفتُني من نفسك بأن أذهبَ بكِ على نهجِ كتابِ الله وسنةِ رسوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال ابن مسعود: «كن أنتَ المحدثُ إذا سمعتَ يا أيها الناسُ» فأنا أرافُ بكِ منك، وأحفظُكِ من كل حافِظٍ فاجعليني خليلاً صديقاً، ولا تجعليني خليلاً ماكرًا. ثم أمشي بكِ على نهجِ أهلِ الصفةِ، ثم التابعين وتابع تابعيهم لأنظرَ هل لكِ قَدَمٌ معهم أم لا.

ثم قلتُ لها: يا نفسُ، لأيِّ شيءٍ تكثرين من الكلام وقد رويتنا في «الصحيح» و«الموطأ» وغيرهما: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).
قالت: هذا ما عندك؟!.

قلتُ: وما عندك يا جَهُولَةٌ؟!

قالت: مراده صلى الله عليه به: مَنْ كان يؤمن بالله على سبيل اليقين والإيقان والكشف والمكافحة والعيان، بحيث لا يخرج دائماً عن المعية المجهولة الذاتية، وقد ارتقى عن مقام المراقبة، فليقل خيراً أو ليصمت فإنه لا يأتي إلا بخير، لأن الحقَّ مشهودٌ له على الدوام.

ومن كان بهذه الصفة حاله بعدَ التكليف كحاله قبلَ التكليف، لا يجدُ مَلَكُ الشَّمال ما يكتب عليه، لأن المعصية إنما تصدر حيثُ يغيب عن الحضرة العليا، فإذا صارت وكرَّ ذاتِه كلها فسائرُ جزئياتها: لا يتصورُ صدورُ المعصية منه أصلاً.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) عن أبي هريرة، ومسلم «كتاب الإيمان»: (٤٨) عن أبي شريح الخزاعي، وغيرهما.

وفي الحديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه» أي حفظ مدلولات مواده في نفسه على بساط التخلُّق به في نفسه، لا الحفظ الصدري.

والمراد: إذا حفظ أوامره ونواهيه عَصَمَ من الوقوع في المخالفات، فالتحق بدرجة النبوة، وإنما قال: «بين جنبيه» ولم يقل: «فيه» لأنها إن أدرجت فيه يصير نبياً حقيقةً، ونبوة التشريع انقطعت. وأما نبوة الإخبار عن الله فلم تنقطع، فالنبي في الأصل هو المخبر لكل نبأ مستقر، أي: خبر، فالنبي بمعنى المخبر عن الله بالعلوم الكثيفة لا زال، بدليل: «قد كان فيمن / ١٤ / قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي فقمر»^(١)، والتحديث ملزوم يلزمه الإخبار، فالمخبر عن الله نبي.

[الفرق بين المحدث والمناجي والمكلم]

وهامنا مسألة: وهي أنه فرق بين المحدث والمناجي والمكلم، فالمحدثون: ورآث الفاروق. والمناجون: رتبة أعلى من التحديث، لأن التحديث لا يلزم منه لُقِيَّ المحبب بالمحبيب، بشاهد: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، والحديث هو تلاوة القرآن بمعناه بخلاف المناجاة، فيلزم منه لُقِيَّ المناجي والمناجي، ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ﴾ أي كافحتموه بالخطاب وسألتموه ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢].

وقد يحدث المحدث على لسان الهواتف أو الملائكة، أو بلسان المظاهر، بخلاف التاجي.

والمكالمة: هي المكالمة في بساط المكافحة الذاتية بشاهد: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٦٤]، فآثر التعبير بالاسم: «الله» الدال على الذات بخلاف المناجاة، فإنما كانوا يكلمون ظاهراً صَدَفَ جسمانيته، وأما ذاته الحقيقية فليست المناجاة معها.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٨) عن عائشة رضي الله عنها، والترمذي (٣٦٩٣)، وغيرهما.

[البقية لا تفنى ولا تعدم، وجميع الوجود عابدٌ لله بطريق القهر]

فقلتُ لها: يا نفسُ وقد قَدَّمتِ - وما بالعهد من قَدَمٍ - أن البقية عندك لا تفنى ولا تقول بانعدامها عليه، فلا تأمن أن يدخلَ عليكَ التليُّسُ والإيهامُ من كداراتها فتقعَ في يد المكر والاستدراج فتظنُّ أن كلامَكَ باللهِ مع كونه بالهوى، فما هذا التهافتُ والهذيان؟

قالت النفس: غيرُ خفي عليك يا صَفِيٍّ أن جميعَ من في الوجود من الحقيقة الجنية، والحقيقة الإنسانية، والحقيقة الإبلِسية، كلها عابدةٌ للحق بطريق القهر الإلهي والعدل الأقدس، وذلك أن الحقَّ ما خلق الجنَّ والإنسَ إلا ليدوموا على عبادته، وإرادته لا تتخلف، فجميعُ من كان موجوداً أو معدوماً كلُّهُ يُطلق عليه شيءٌ، وقد أثبتَ الحقُّ في القرآن أن كلَّ من اتصف بشيئية الثبوت فهو يسبحُ الحقَّ بحمده.

ولا شك أن جميعَ ذرات الوجود شيءٌ، فهي تسبحُ قهراً عليها بطريق التوجه الإرادي، ومعلومٌ أنه يقال / ١٥ / (سَبِّح) إذا نَزَّه، ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، أي نَزَّهه عما لا يليق به، كالقول بأنه مشقوق، وقد كان مسمًى به قبل إيجاد الحروف الدالة عليه.

ولا غرور أن التنزيه لا يهتدي له إلا من أطلق نورَ عقله فعلم أن لنا خلقاً وحقاً، فالحقُّية لا تنزل للخلقِية، والخلقِية لا تصعد للحقِّية، فهذا أمرٌ ذهني يبرز للبيان، وهو الثناء على الحقِّ بمدلوله في صورة التسبيح.

وهذا يا وليَّ أمرٍ لا يطلع عليه إلا صاحبُ عقلٍ وروحٍ وحياةٍ وتمييزٍ وإدراكٍ وعلمٍ وافرٍ، ومزاجٍ لا يختلُّ ومعرفةٌ تامةٌ، وكل هذه الأوصاف مدموجةٌ في لفظ (يسبح).

ومعلوم في الحسن أن أفعال العقلاء تُصان عن العبث فأحرى ربُّ الأرباب ملك يوم الدين، كيف يصف شيئاً ويخبر عنه بأنه متصفٌ بكذا ونُجِيلُهُ نحن عن ظاهره لعدم مؤالفة عقولنا له، فهي تسبُّح بلسان المقال.

وها هنا مسألة: وهي أن الوصف الذي قصره الحق على العلماء في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلُوكُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالآية من قصر الصفة على الموصوف، أو قل: من قصر الموصوف على الصفة، وعلى كل فقد شارك الحق معهم في هذا المورد جنس الحجر^(١) فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلِيطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]، فتدبر يا ولي هذه المسألة وتذكر قوله ﷺ: «يقول الثوب الوسيخ لصاحبه: إن كنت مؤمناً فاضلني»^(٢)، ولا يُعدّل عن الحقيقة إلا إذا تعذرت، وهي عنده هاهنا لا يصح غيرها، فكيف تتعذر، فالثوب حقيقةً يتكلم مع صاحبه إلا أن الناس مفترقون مفترقون إلى السقي من حرف الشين^(٣) لا غير.

وتذكر قول القرآن: ﴿ وَمَنْ آتَيْنَاهُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ النَّبِيِّكُمْ وَأَلَّفَكُمْ فِي ذَلِكَ لَأَنِتَّ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، والعالم هو ما سوى الله، فبدخل فيه سائر الحقائق، فكلها عندها عجائب القدرة، واختراعاتها وانفعالاتها من عظم الآية الدالة على ربِّيَّة الحق، ولا يشعر بالآية إلا صاحب العقل السالم من الزيغ والخطأ، المتصف /١٦/ بالمعرفة التامة، الغير المنخرط في سلك

(١) في الأصل بخط الناسخ: الجن.

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجد معنى لحرف الشين فيما بين يدي من معاجم الصوفية، ولكن المصنف رضي الله عنه قال في «تأنيته»:

لنا الخوض في بحر المجانب جهرة ولنا أسارى الغير في فك حُجْمَة
 فربما لها معنى خاص بالمصنف - رضي الله عنه - إلا إن قصد بها مقام: «الشهود».

أرباب الكشافات الأرضية، فإذا سائر الجمادات والحيوانات كلها عندنا عارفة، وعليه فجميع حقائق الوجود عابدة الحق تعالى قهراً عليها.

ففي حال غفلتنا عن الله وحال انهماكنا في المعاصي تراكيب هيكنا تسبح الحق، وفي حال الزنى وشرب الخمر والنوم والفسق وسائر أنواع الضلال كلها عناصرنا وأخلاقنا وموادنا تسبح على سبيل القهر منا من غير شعور منا بذلك.

وعليه فما خلصت لنا معصية قط إلا وهي مخلوطة بطاعات وقربات وكمالات، فيكون الوجود كله منخرطاً في سلك: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، و«عسى» من الحق للتحقيق إلا في موضع. فإذا من صدر منه ذنب [فهو] مخلوط بالعمل الصالح.

وكل من وقع منه هذا المزج البديع سبقت إرادة الحق أن لا بد من أن يتوب عليه. وإذا تاب عليه تاب هو في الحين من غير تقهر ولا توان، لقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وهذه كلها إخبارات من الحق، وفي القرآن ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، وهذه الآية وما بعدها - أعني: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] - لو قيل إنهما أرجى شيء في كتاب الله ما بعد^(١).

ثم أقام الحق لنا عذراً فقال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وإذا كانت بنيته كذلك فكيف لا يخفف عنه؟! وهذا من أعظم العدل الإلهي كيف لم يُخل من عبادته ذرة من ذرات الوجود، فلم يتركها هملاً من خدمة عبته حبيبه المحمدي صلى الله عليه به.

(١) هنا مسألة عميقة جداً، قد نستعصي على الإفهام، والمؤلف لم يقصد قط ظاهر الكلام، إن المقصود أن المرة مجبور على فعل الخير إن لم يكن بقصده فبالرغم من أنه، فعليه أن يأتي طائماً لا كارهاً، أما المغفرة - والله أعلم - والرحمة هنا لا تعنيان انقطاع العذاب وإنما تخفيفه إلى ما كان ربما أن يكون، فلتنبه، وسوف يأتي كلام شبيه لما ذكرته، لاحقاً إن شاء الله تعالى، فصدق نظرك.

فإذا أحطتَ بهذا الفيضِ الغريبِ علمتَ أننا في حال غفلتنا ونوحنا وسائر ضلالتنا وموتنا نحنُ عابدون الحقِّ كرهاً من حقائقنا في عين معصيتنا، فسبح يا وليَّ أو لا تسبح فإنك مجبولٌ على العبادة كالملائكة^(١).

[ما قدَّر الحقُّ علينا المعاصيَ إلا في بساطِ التشریف لنا]

وما هنا مسألةٌ عجيبة: الحقُّ ما قدَّر علينا المعاصيَ إلا في بساطِ التشریف لنا / ١٧ / لنلتحقَ بخَلَّةِ التوبة التي مُنِع منها النوعُ المَلَكِي والنوعُ الشيطاني.

أما المَلَك فهو طاعةٌ بلا معصية، فلم يَذُق طعماً لمقام التوبة، فتَقَصَّ فَلَكُ المَلَكِيَّة عن التخلُّق بهذا الاسم ولا مفهومَ له. فكم من حضرةٍ من حضرات الأسماء لم يشربوا من عَذْب مَعِينِها، كحضرة الصُّبُور، ومقام اليقين، ومقام التوكل، ومقام الإنفاق في السَّراء والضَّراء، ومقام كظم الغيظ والعفو عن الناس الذي مرتكبه سارعٌ إلى مغفرةٍ من ربه وجنةٍ عرضها السماوات والأرض، ومقام مجاهدة النفس وغير ذلك، فصارت عصمة الملائكة ابتلاءً لهم، وإرسال الأنوار الإلهية علينا بالمعاصي تشریفاً^(٢) وتقريباً وسبباً لارتكابِ الكمالات الإلهية من التخلُّق بالتوابع والغفارِ والسَّيرِ والحكيم.

وكل هذا يا وليَّ من أثر قولهم: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقد أعلمتك يا وليَّ بمسألةٍ لم تخطر ببالٍ، فدعها في خِذْرِها.

(١) في هذا بعضُ توضيحٍ لما أسلفت.

(٢) هذه مسألةٌ فلسفيةٌ عميقةٌ أخرى، والمقصودُ أن الذنبَ سببٌ للاستغفار، فكان من هذه الوجهة تشریفاً، أي للنوع كنوع، وللمستغفر خاصةً وتحديداً، أما الذي لا يعي هذا ولا يستغفر فهو كالشيطان حيث يذنب ولا يحسن، وفي الحديث: «لولا أنكم تذنَّبون لجاء الله بقوم يذنَّبون فيستغفرون فيغفر لهم» رواه ابن عساكر عن أنس، وروى أحمد عن ابن عباس: «كفارة الذنوب الندامة، ولو لم تذنَّبوا لأتى الله بقوم يذنَّبون ليغفر لهم»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، انظر «كثر العمال» (٢٤٦: ١٤).

وَمِنْ أَثَرِ هَذَا أَنَّهُمْ لَمَّا وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّسْبِيحِ جَعَلَ الْحَقُّ هَذَا الْوَصْفَ حَتَّى فِي الْعَجَمَاوَاتِ وَالنبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَكُلِّ مَنْ هُوَ شَيْءٌ، فَقَالَ: ﴿وَلَا يَمُنُّ شَيْءٌ إِلَّا بِسَبْحِ يَحْيَى﴾ [الإسراء: ٤٤]، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا خَصِيصَةٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ بِالتَّسْبِيحِ بِحَمْدِهِ، فَتَأْمَلِ الزَّوَاجِرَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي تَقْصِمُ الظُّهْرَ وَتَقْرَعُ الدَّهْرَ.

وإِيَّاكَ وَالرُّكُونَ لَوْعِدِ أَوْ وَعِيدِ، فَعِنْدَ الْمَالِ تَكْرُرٌ عَلَى نَفْسِكَ بِالْإِبْطَالِ، وَانْظُرِ الْمُخَاطَبَ بِهَذَا الْوَصْفِ مَنْ صِفَّتُهُ، فَكَيْفَ بَكَ يَا وَلِيَّ وَصِفَّتِكَ^(١).

وَلَا كَذَلِكَ النُّوعُ الشَّيْطَانِي: فَهُوَ مَعْصِيَةٌ وَلَا طَاعَةٌ، فَامْتَازَ النُّوعُ الْإِنْسَانِي بِمَقَامِ التَّوْبَةِ وَحْدَهُ، وَمَا وَصَلَ إِلَى حُبِّهِ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي.

قَالَتِ النَّفْسُ: فَأَلْقِ بِأَلْكَ يَا وَلِيَّ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَجْنِبْنِي بِمَا عِنْدَكَ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ^(٢) بِمَا عِنْدِي لَمَّا أَلْقَيْتَ عَلَيَّ الشَّبْهَةَ.

قُلْتُ: آيَتَهَا النَّفْسُ، هَذَا كَلَامٌ عَجِيبٌ وَفَتْحٌ غَرِيبٌ مَا /١٨/ طَرَقَ سَمْعُنَا! وَلَا عَلِمْنَاهُ إِلَى الْآنَ، وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ.

[لَوْلَا الْمَعَاصِي مَا ظَهَرَتْ مَقْتَضِيَّاتُ عِدَّةٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ]

قَالَتِ النَّفْسُ: وَكَأَنَّكَ يَا صَفِيٌّ أَرَدْتَ أَنْ تَتَعَطَّلَ جُلُّ مَقْتَضِيَّاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَا يَظْهَرُ مَقْتَضَى مِنْ مَقْتَضِيَّاتِهَا كَالْتَّوَابِ وَالْغُفُورِ وَالرَّحِيمِ وَالرَّحْمَنِ وَالسَّلَامِ وَالْمُؤْمِنِ وَالسَّتِيرِ وَالْعَفْوِ وَالْغَفَّارِ وَالْقَاهِرِ، وَغَيْرِهَا! فَرَحِيمٌ لِمَنْ؟ وَغَافِرٌ لِمَنْ؟ وَسِتِيرٌ عَلَى مَنْ؟ لَوْلَا الْمَعَاصِي مَا ظَهَرَتْ مَقْتَضِيَّاتُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ.

(١) وَفِي هَذَا شَرْحٌ لِمَا مَضَى، فَلَا تَنْظُرْ لِلْوَعْدِ قِيَّاسًا، أَيُّ مِنْ هَذَا الْمُنْحَى، وَلَا لِلْوَعْدِ فَتَوَاضَعِ أَيُّ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمُخَاطَبِ لَكَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ، فَتَعْبُدُهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، بَيْنَ حَقِّهِ وَدَرَجَاتِهِ وَشَوْقٍ إِلَيْهِ تَعَالَى.

(٢) فِي الْأَصْلِ بَخَطِ النَّاسِخِ: فَأَخْبَرْتُكَ.

قالت النفس: ولما كان فَلَكَ النبوة ملتجئاً بالعِصمة وكان هذا الفتح يقتضي أنه لم يحصل له ذوق في حضرات هذه الأسماء أيضاً، أمره الحق بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَلِكَ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، لأجل أن لا تُترك حضرة من تسبب الإمدادات الإلهية إلا ويُعثر عليها.

وبعدَ عِلْم أن النبوة متصفة بالعصمة نعلم أن إطلاق الذنب في جانبهم من باب ﴿وَأَخْرَجْنَا مَثَلَهُمْ﴾ [آل عمران: ٧]، وليس لنا ذوق في مقاماتهم حتى نعلم ذنبهم ما هو، واستغفارهم مِمَّ، وبكاءهم مِمَّ. وهكذا كنا نسمع من روحنا وقُدوتنا الشيخ عبد الكبير الكتاني، وهذا محل صعب فدونك والكشف الصُراح مع كتاب الله وسنته، فكل كشف لم يعضده الكتاب والسنة - أعني بواطن^(١) الكتاب والسنة - فلا يُعتد به.

وهَب أن الكشف كيفما كان لا يخرج عن دائرة الإحاطة الإلهية، وإن ادعى أنه من حضرة الإطلاق فليأتِ بآثر منها، وهو الكتاب والسنة.

وبعدَ تعاطينا كأس المناقشة، واقتداحنا زناد المباحثة قلتُ لها: أيتها النفس، إي وربي إنه لحق، فمن أين جاءت هذه الحجة^(٢)؟

قالت: من كثرة مطالعتي على أحوال صبيان العالم الأقدس، فبهم اقتديتُ واكتسبت ما رأيت وسمعت، فهم المطلعون على الشؤون الإلهية، ومن عاشرهم اكتسب ما لهم. ومن المعنى:

شاورَ سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ يوماً وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَشُورَاتِ
فَالْعَيْنُ تَلْقَى كَفاحاً ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بِمِرآةٍ / ١٩ /

(١) أي: دقات المعاني والاستنباطات.

(٢) أي: الحجة في النظر.

وآخر:

أَقْرَبُ فَرَايِكَ رَأْيِي غَيْرِكَ وَاسْتَشِيرُ فَالْحَقُّ لَا يَخْفَى عَلَى الْإِثْنَيْنِ
فَالْمَرْءُ مِرَآةَ تُرْبِهِ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ بِجَمْعِ مِرَاتَيْنِ
وإيضاحُ هذا أن يجعل مرآةً بين يديه ومرآةً خلفه تقابلها، بحيث أن تكون
إحدهما كبرى لو كان فيها إنسانٌ رأى الصغيرة، وأما الصغيرتان اللتان تحجب
كلَّ منهما الأخرى فلا يتأتى معهما مطلوب، فإذا نظر إلى التي بين يديه اتصل
منه شعاعٌ بصريٍّ بها، ثم انعكسَ طالباً الجهة التي جاء منها، لأن المرآة في
القبالة، فتصل بالوجه وبما وراه فيجد وراه مرآةً أخرى، فينطبع فيها ما انطبع
في الأولى، لأن الصورة تجري في الشعاع كما تقدم، فينطبع فيها وجهه فيكون
له وجهان، أحدهما في التي هي أمام، والآخر في التي هي وراء، يجد شعاعٌ
هذه المرآة التي في وجهه خلف، لأنها صقيلة لا يمكنه الثبوت عليها، فيرجع
إلى الجهة التي تقابله فيجد القفا يتعلق به كما يتعلق بالوجه من التي هو أمامه .

فيؤول الأمر إلى أن طرف الشعاع متصل بقفاه، فتجري صورته في الشعاع
حتى ينطبع في المرآة التي هي وراءه، وتؤدي المرآة التي فيها إلى التي تقابلها،
فينطبع القفا في التي هي أمامه فيرى لنفسه وجهين، ويرى قفاه . وهذه مسألة من
علم المناظر .

فقلتُ لها: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يسف: ٧٦]، وإنَّ الحكيمَ تُربيه
الحكمةُ أن فوقَ عليمٍ علماً، فهو يتواضعُ لتلك الزيادةِ سواءً أكانت من الأدنى
أو المُساوي، فأحرى الأعلى، والجاهلُ يظن أنه قد تناهم فيسقط بجهله .

فلما وجدْتُها هكذا انتظمتُ معها كأصابع الكف، وتألَّفتُ معها تألَّفَ
أصحابِ الكهف، فقلتُ لها: يا نفسُ، ما علمتُ وصفاً ذميماً يبعدُ عن الله إلا
وقد اجتمعَ فيك، فمالكِ ارتكبتِ هذه الدناءةَ ورضيتِ بهذه الخِسة؟!!

فقلت: اسلك معي مسلك التبيان، واجلب عليّ خيل البرهان، كي أنظر
لنفسى أنصفك أم تنصفني؟!

[العهد القديم ونكران الناس]

فقلتُ لها: وصف اللهُ ورسولُه المنافيين، /٢٠/ واجتمعت فيك أوصافهم،
وقد رويْنَا في الخبر الصحيح عند مسلم وغيره: «أربعٌ مَنْ كُنْ فِيهِ فهو منافقٌ
خالصٌ وإن صلى وصام - وفي رواية: وزعمَ أنه مسلمٌ -: إذا حدث كذب، وإذا
وعد أخلف، وإذا اتّمن خان، وإذا خاصم فجر»^(١).

وقد حدّثنا الحقُّ تعالى بأن نفعلَ ما به أمر، ونكفَّ عما عنه نهى، ومع
ذلك خُفّا عن العهد القديم، فعاهدنا الحقَّ على أسمع كلامه القديم الخارج عن
طور ما تألفه البشر، ولولا ذلك ما أقرنا له بالربوبية، فإنه لما علم أنه لو أبرزنا
من ساحل العدم إلى ساحل الوجود وألقى علينا الخطاب لأجل التعرف ربما
ننكر كما يُنكر يومَ القيامة لما يتجلّى في صورةٍ لم تتقدّم لهم خبرة بها،
فيقولون: ها نحن في مكاننا حتى يأتينا ربنا.

فنقول: لم تتقدّم لنا معرفة بك ولا بما تفردت به ولا بما اشتركتنا فيه من
حيث النسبة الارتباطية، ومع هذا أوجدتنا ولا نعلم شيئاً كما قلت: ﴿وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، والبطن كنايةٌ عن التزلّات من
الفضاء الذاتي إلى بساط الواحدية محلّ التعريف، فهي الأمهات الحقيقة
الاستبدادية ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

فهل هذا إلا تكليفٌ بما لا يُطاق؟ وهَبْ أنه ممكنٌ لكنه لم يقع، بدليل
سؤال عدم وقوعه علينا في آية: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]،

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٨) بقريب منه، ومسلم (٥٨) عن عبد بن عمرو رضي الله عنه، وغيرهما.

و(ما) من صيغ العموم، فيدخل في عمومها التكليف بما لا يطاق، وما أمرنا بسؤال رَفَعِهِ حتى رَفَعَ عَنَّا: ﴿لُجِبْتُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فلما علم الحق أنا لو أبرزنا لمراقبي الحضرات لصرنا نُبْدِي هذه الحجج وهي علينا لا لنا؛ رَكَّبَ جوهرَ الروح الكلية والجزئية من عقاقير من جملتها أودع فيها جاذباً قدسياً، مهما تَلَمَّحَتْ أو لاحت ما يُشبه قرَنَ غزاةِ الحضرة طار لُبُّها وانجذب لمغناطيس ما يسمع.

[الروحُ مجبولةٌ على محبة الأشياءِ الحسنة]

لأن هوية الروح مجبولةٌ على محبة الحُسن والطيب والأصوات المتتممة والألحان المرتشفة، فهذا حظ المحقق من الدنيا في آية: ﴿وَلَا تَنسَ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصر: ٧٧]، لا غير، كما أعربَ عن هذا حديث: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءَ والطَّيِّبَ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، وتذكَّرَ قولَه: «حُبِّبَ» بصيغة الفعل [المبني] للمجهول، للإشارة إلى أن الغيرَ حَبَّبَ إليه هذه المستحسّنات على سبيل الكُره منه، وأما لو خُلِّيَ وسيله لما أَحَبَّ إلا ما دَلَّت عليه آية: ﴿فَقَرُّوا إِلَىٰ آفَاقٍ﴾ [الذاريات: ٥٠]، أي: على سبيل التجريد بدون ملاحظة لعالم الحس ولا لعالم مقتضياته ولا شؤونه، فلا يتعلق إلا به، لأنه حياته، وغيره فيه موته، والأضدادُ لاحقةٌ بأضدادها كما أن غيرَ المجانسِ مباينٌ لغير المجانس، فلا تآلفَ بين الأضداد كما أنه لا تخالفَ بين الأشكال.

ونستنبطُ من هذا الحديث أن مرادَ الحق من إبرازنا لعالم الشهادة هو: إعطاءَ عالم الحس مقتضاهُ وعدمُ إلقاء شؤونه وحركاته وأفعاله ونعوته، وإلا لو كان المرادُ هو عالم المعنى وحده لتركنا في حضرة زوايا البطون، لأنها تجريدٌ في تجريد.

(١) أخرجه النسائي (٦١: ٧)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٢٨: ٣)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

[السر في إبرازنا لعالم الحس]

وأما عالم الحس فقد كان يعلم الحق أنه يشغلنا ويلهينا ويثبُتنا عن الطيران لعالم القدس، ومع ذلك اختاره لنا دونَ العوالم الأخرِ الغيبية والشهادية، وما ذلك إلا لتقام شؤونُه ومقتضياته وإعطاء حقوقه، كما ينبغي إعطاء حقوق عالم المعنى.

وهذه مسألة إلهية قل من ينبئُ عليها من أصحابنا، لأنهم يظنون أنه شغلٌ والطريقُ كُلُّها أمرٌ بالإعراض عن عالم التكررات والأحداث والتشبُّتِ بالعالم الأعلى، وهو ظنٌ صحيحٌ، بيدَ أنهم فاتهم علمَ آخرِ نَبَأٍ عليه سيدنا صلى الله عليه به فقال: «الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا استيقظوا»^(١) أي نيامٌ عن عالم الحس لا يلتفتون إليه فلا يلاحظونه لاستغراقهم بعالم المعنى...^(٢)، وهو يلحق مَنْ دنا منه فلا يبقى له التفاتٌ لغيره، لكنه إن كان غيرَ محققٍ، وأما المحققُ فهو مستيقظٌ في عالم الحس والمعنى، يعطي المراتبَ حقَّها من جميع ما تطلب.

فكما أن المعنى تطلَّبَ الاستهلاكَ فيها بالكلية، كذلك حضرة الحس تطلَّبَ / ٢٢ / الاستهلاكَ فيها بالكلية، لكنهم بدَّلُوا فهم في بساطٍ: ﴿وَنَحْسَبُهُمْ آتِقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]، أي أيقاظاً في عالم الحس يستغرقون في صرف هياكله وهم رقودٌ عما تقتضيه هذه الملاحظة، فما حصل لهم الاستغراقُ في الحقيقة إلا بما انطوى عليه جوهره القدسي.

وها هنا قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وأما المؤمنون بأن الآياتِ محوٌّ في وجود

(١) قال الحافظ زين الدين العراقي في تخريجه على «الإحياء» (٤: ٢٣): لم أجده مرفوعاً، وإنما يُعزى إلى علي بن أبي طالب.

(٢) كلمة مقطعة في الأصل غير واضحة.

الهُيُوتِ الإِطْلَاقِيَّةِ فَتُغْنِيهِمُ الْآيَاتُ، لِأَنَّهَا بُدِّلَتْ فِي نَظَرِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَبَرُوا^(١) الْأَنَامَ، وَبَقِيَتْ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ صَوَرَتُهَا عِنْدَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ.

وهؤلاء لا يجدون قَدَمًا لأنفسهم في مقام الزهد الذي هو شيء عند قوم. لأن الزهد يكون في شيء لمن يساوي جناح بعوضة، وأما في هذا المناط فلا يقدر على الزهد في ذرة من ذرات الوجود. والناس نيام عن مثل هذا المشهد، فإذا ماتوا وطاح رسمهم ووسمهم ونعتهم انتبهوا للعالم المحسوسات فوجدوه في مكان الثبوت فأعطوه حقه.

[الأصلُ هو الاستغراقُ في عالمي الحس والمعنى]

فمن استغرق في عالم المعنى وفَرَّطَ في عالم الحس فهو من العامة لا خَبِرَ عنده ولا خَبِرَ، ومن استغرق في حضرة الحس قبل الانمحاق في بحر المعنى وصيرورة الحكم عيناً والوجود مَخَوًاً فهو من الناس، أي الذين نسوا عهد الحق الذي تعاهدوا عليه.

وأما من استغرق في عالم الحس والمعنى فهو رجلٌ من بني آدم، وفي القرآن ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ﴾ برُّ الحس وبحر المعنى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي معاني الأسماء والصفات المثبتة لهم في عين الانمحاق، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، كالمستغرقين في برِّ الحس من غير ملاحظة لبحر المعنى، أو المستغرقين في بحر المعنى دون البر، وأولئك فَضَّلُوا على هؤلاء.

ومثال هذا: آيتان مملوءتان بالماء، وماء هذه سُخِّنَ وماء هذه باردٌ، فإذا انقطعت بُخَارَاتُ الماءِ السخن وجاء شخصٌ: لا يميز إلا أنَّ فيها ماءً، مع أن

(١) حبروا، أو: جَبَرُوا. لم أمير.

حَكَمَ هذا انتفت عنه طبعه المائيه في الجملة، وهذا لا زال على مائته لم تَسْلُب عنه النار شيئاً.

ثم إن المراد من هذه الفذلكة هو / ٢٣ / أن جوهر الروح معجون بالجمال، فبمجرد ما أوقع الحق عليه الخطاب الأقدس تفتكت أزراره وانقطعت عُراه، فاجاب الكل كرهاً من غير شعور منه، فمن انقطع عنه هذا الخطاب كما كَلَمَتْ الأرواح هنالك فهو كذابٌ وخائنٌ وأخلف^(١)، وهذه من علامات النفاق: «إذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان، وإذا حدّث كذب»^(٢).

وأيضاً وصف الحق المنافقين بأنهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وهي بائنة فينا، وتسيحُ الجماداتِ عندنا لا ينقطع، فهي ذاكرةٌ ونحن غافلون، ومجاهدةُ السُّلَخفة لا نقدرُ عليها، لأنها تطوي أكثر من خمسة أشهر بلا أكلٍ ولا شرب، وهذا لا يقدرُ عليه حُلُ الرياضيات، والجَمَلُ يصبرُ على الماء الأيام المتداولة، فهو أصبرُ على الماء مع كثرة تحمله للمشاق والأخطار.

انتهى ما وجد من خط ابن سيدنا ومولانا الشيخ، وهو الصنو الجليل العارف الأثيل، الذاكر النيل، وهو ما وَجَدَ إلّا هذا القدر من خط المؤلف رضي الله عنه ونفعني ببركاتهما، آمين^(٣).



(١) لعل العبارة: فمن [ادعى أنه] انقطع عنه الخطاب لما كَلَمَتْ الأرواح هنالك فهو كذابٌ وخائنٌ وأخلف. الناشر.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كذا بخط الناسخ، ويبدو أن المؤلف - رضي الله عنه - ألف هذه الرسالة وهو في حدود العشرين من عمره أو دونها، وقول الناسخ: «وهو ما وَجَدَ... إلخ»، المقصود والد المصنف وهو جبل السنة والدين الإمام أبو المكارم عبد الكبير بن محمد بن عبد الواحد الكتاني رضي الله عنه.

النفائس الكتانية

٤

الفرق بين الواردات
الرحمانية والملكية والنفسانية والشيطانية
وكلام في طريقة التصرف

تأليف

أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني، كساه مولاه بأسرار السبع المثاني،
آمين.

إلى إخواننا وأحبائنا، وأودائنا المختارين من يمين القبضة الحكّمية،
المطبوعين بطابع العناية الإلهية، المستظّلين بظل كهف رعاية رُوح العالمين^(١)،
وسرّ أسرار الأنبياء والمرسلين، وجه الله المحيط بجميع الحقائق^(٢)، والمرأة
الكبرى المنطبعة فيها جميع الرقائق.

فهنيئاً لكم بمحبة هذا النبي الأعظم، والنور الأتم، والقهرمان^(٣) الأفخم،
ﷺ، فهو الكعبة التي تطوف بها جميع أهل الحضرات المُلْكِيّة والملَكُوتِيّة^(٤)،
والمغناطيسُ الجذّابُ لجميع الأرواح الوجودية، وحضرة الله الخاصةُ الإِطلاقيّةُ

(١) المقصود به: رسول الله ﷺ، والروح المقصود به اللب والأصل والمنصر الذي به يقوم
الغير، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولولا الرحمة لما
قامت الموالم كما لا يخفى، وفي الأمر تفصيلٌ ليس هنا محله.

(٢) المقصود هنا بالوجه: الواجهة التي لا يتوصّل إلى ما واماها إلا بها، والمنصر المنمكس فيه
ما قبله، إذ كان ﷺ خلّقه القرآن كما ورد في «صحيح مسلم» (١٣٩)، فهو المتجلية فيه
الصفات الإلهية التي أمرنا بالتخلّق بها على أكمل وجه بناله مخلوق.

(٣) القهرمان: أمين الداخل والخارج.

(٤) الحضرة المُلْكِيّة: نسبة إلى عالم المُلْك وهو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية، أما
الحضرة المَلَكُوتِيّة: فنسبة لعالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس.

والتقيدية^(١)، ولهذا يلزم أهل محبته ما لا يعدُّه الحصرُ من أنواع الآداب، وضروب التعظيمات، ويُخافُ على مَنْ لم يقم بذلك أن يُرمى بشُهْبِ الإبعاد، ويُنال ما لا يحصى من الأنكاد.

ذلك ساداتنا أهل مزاكش من أشراف وعلماء وحملة القرآن، ومتجردين، ومحترفين، كلُّ واحدٍ باسمه:

سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه وإنعاماته.

أما بعد: فطالما نضع القلم بالدَّواة لنرايِلَ وُصْلَتكم، ولم يتهيأ ذلك لكثرة الأشغال، وعدم المُعين، واللهُ المستعان.

[الفرق بين الواردات]

فأما الفرقُ بين الواردات الرحمانية والمَلَكِيَّة والنفسانية والشیطانية فهو: أن كلَّ ما يكون سبباً للخير بحيث يكون مأمون العاقبة ولا يكون سريعَ الانتقال إلى غيره، ويحصل^(٢) بعده توجُّه تامُّ للحق، ولذة عظيمة مرغبة في العبادة، فهو: مَلَكِيٌّ أو رحمانِي، وبالعكس الشيطاني.

(١) إذ إنه ﷺ الواسطةُ في كل خير، ولا يتوصَّلُ إلى الله تعالى إلا عن طريقه ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهو ﷺ وعلى آله مرسلٌ إلى الموالم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وما من نبيٍّ سبقَ إلا وأمر باتباعه إن هو جاء في زمانه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَآ آتِيَنَّكُمْ مِن سِمْكَةٍ وَجَحَظَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتَقُولُنَّ يَهُودُ لَقَدْ كَذَبُوا فَارْتَضَ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، ولذلك قال سلطان العاشقين الإمامُ ابنُ الفارض رضي الله عنه على لسان الحضرة المحمدية:

واني وإن كنتُ ابنَ آدمَ صورةً فلي فيه معنى شاهدُ بآبوتِي

(٢) في «الأصل»: ولا يحصل، فيظهر أن «لا» مقحمة في السياق، فحذفناها.

وما يُقال: إن ما يظهر من القُدَامِ أو اليمين أكثره ملكي، ومن اليسار والخلف أكثره شيطاني، ليس ذلك من الضوابط بين الواردات، إذ الشيطان يأتي من الجهات كلها كما نطق به القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، عدا جهة الفوق، فإنها معصومة، لأنها الوجه الخاص الذي بين الله تعالى وبين / ١ / كل مخلوق.

أو يُقال: إن كلَّ خاطرٍ وداعٍ يدعوكَ إلى قرب الفرائض بقطع العلائق عما سوى الله تعالى وتصفية [القلب] عن جميع الدواعي إلى غير محبة الحق تعالى: فهو خاطرٌ رحمانى.

وكلُّ خاطرٍ يدعوكَ إلى قرب النوافل بالتعبُّدات والرياضات غير المفترضة عليك، برغبة النفس في النوافل والتخلُّق بالأخلاق المرضية: فهو خاطرٌ ملكي رُوحاني.

وكل خاطرٍ يدعوكَ إلى المباحات من الأعمال والأحوال، من الشهوات ودواعيها: فهو خاطرٌ نفساني.

وكل خاطرٍ يدعوكَ إلى المنكرات والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة بترك أحكام الشريعة والتهاون فيها والتكاسل في أدائها: فهو خاطرٌ شيطاني بمعاونة النفس الأمارة بالسوء وموافقتها.

أو تقول: الخاطرُ هو ما يَرِدُ على القلب من الخطاب، أو الوارد الذي لا عملَ للبعد فيه.

وما كان خطاباً فهو أربعة أقسام:

— رباتي: وهو أولُ الخواطر، وهو لا يخطيء أبداً، وقد يُعرف بالقوة والتسلُّط وعدم الاندفاع.

— وملكى: وهو الباعث على مندوب أو مفروض، ويسمى: إلهاماً.

— ونفساني: وهو ما فيه حظُّ النفس، ويسمى: هاجساً.

— وشيطاني: وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق سبحانه، قال سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولكن الكلام على الخواطر ربما يكون في رسالة مستقلة، ولنذكر هاهنا ما سمح به الوقت، فنقول:

[تربيع القلب]

إن جميع الأفعال الصادرة من الإنسان وأخلاقه مصادر تلك الخواطر الأربعة^(١)، ولذلك قيل بتربيع القلب، يخطر كل خاطر من جانب، كما أن للكعبة - شرفها الله تعالى - أربعة أركان، كل ركن بمقابلة خاطر القلب، غير أنها في الحقيقة مكعبة ليست مربعة، كما أشار لذلك أعلم الحكماء صلى الله تعالى عليه بالأدعية الموضوعة عند كل ركن.

وكان الركن العراقي مظهر الخاطر الشيطاني، فلذلك كان يستعبد صلوات الله وسلامه عليه عند مقابله من الشيطان^(٢)، والكعبة صورة قلوب الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلذلك كانت مكعبة، لأنه ليس للقوى الشيطانية نفوذ في قلوبهم أصلاً.

فالخاطر الشيطاني - ومصدره مهمل عندهم وفي نظرهم عليهم الصلاة والسلام - لا يذوقون له ذوقاً ولا طعماً، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَرِئَسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وهو معنى العصمة في لسان المتكلمين^(٣). /٢/

(١) أي: الإلهية والملكية والنفسية والشيطانية.

(٢) وهو قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق». قال الحافظ في «التلخيص» (٢: ٢٤٧): أخرجه البزار من حديث أبي هريرة مرفوعاً، لكن لم يقيده بالركن ولا بالطواف.

(٣) أي: علماء التوحيد والمقائد.

ولأجل كون إلقاء الشيطان ووسوسته يكون بين الكتفين قريباً من اليسار بخرطوم له كالفيل، وهو في صورة خنزير، ولا يزال يوسوس ما لم يذكر المؤمن، فإذا ذكر الله تعالى انخنس - فمن أراد قطع وسوسته فلا يغفل عن الذكر أصلاً - كان الختم منه صلى الله تعالى عليه بين الكتفين، فكان خاتم النبوة ثمة حسماً لمادة الشيطان عنه بالكلية، ولذلك أسلم قريبه الكريم فأعانه الله عليه^(١).

[الذكر يردُّ الخواطرَ الشيطانية]

ثم إن مادة الخواطر لا تنقطع، ولا تضعف، ولا تنخنس الإلقاءات الشيطانية إلا بدوام الذكر، وعدم الفتور عنه لا في العادات ولا في العبادات، ولا في سائر أطوار الإنسان.

ولا يُقال: إنه يلزم على هذا أن لا يشتغل بغيره مع أن التكليف جمّة.

لأنا نقول: أول ما يفتنم المتعطش لصلاح حاله أن يتتهزّ فرصة من التشويشات الخارجية^(٢)، كالاستماع إلى حديث الناس، والداخلية كالجوع المفرط والغضب والألم والشَّبع المفرط، ثم يذكر الموت، ويحضِّره بين يديه، ويستغفر الله تعالى مما صدرَ منه من المعاصي.

[ملاحظة النورين الجامعين في الذكر]

ثم يقبل بكنه الهمة على الذكر، مع ملاحظة النورين الجامعين الكاملين:

(١) كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» (٢٨١٥) وقد مر ذكره وتخرجه.

(٢) أي وقتاً تبعد فيه تلك التشويشات التي سيذكرها.

[النور الجامع الأول]

النور الأول، النور الأعظم المحمدي، فيشتغل بملاحظته قبل الذكر وحيته، ويتخيله أولاً مُخَدِّقاً به ومُحِيطاً به، ومكتشفاً له من جميع جهاته، لأنه الدليل والرفيق قبل الطريق، والجار ثم الدار.

ويجتهد في استحضار الهمة المحمدية معه من كل جهاته، ولا يثبت مع هيمته - صلى الله تعالى عليه - سوى ولا غير، ولا أقدار ولا أغيار، ولا سلاطات^(١) ظلمانية، ولا تسورات رَجِمية، لأن القلب بمثابة السماء، وقد كان عالم الأفلاك قبل قدومه صلى الله تعالى عليه لعالم الشهادة غير مَصُونٍ من النفوذ الشيطاني، فلما بعثه سبحانه قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۚ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلشَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ مِنْهَا بَأْرًا صَدًّا ۚ﴾ [الجن: ٨-٩].

وكذلك القلب قبل استحكام مصاحبة نوره صلى الله تعالى عليه معه ونمكين الروابط المعنوية معه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، للشيطان النفوذ الكُلِّي فيه، حتى لا يجد للعبادة لذة ولا طعماً ولا ذوقاً.

وأما إذا استحكمت مصاحبة - صلى الله تعالى عليه - البرزخية في سِرِّكَ بحيث لم تزل تستحضره وتتكلَّف إحضار صورته الكريمة في عالم خيالك إلى أن تأخذها مرأتك فتحفظها: فهناك يُحَفَظُ باطنك / ٣ / من الأغيار والأقدار، والتشويشات والتغييرات والتفريقات، بسبب دخول النور المحمدي للقلب.

إذ هو - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - الإنسان الكامل، فقصر النظر عليه متضمن للتوجه للعالم الأكبر والأوسط والأصغر، بل الحقائق الإلهية^(٢).

(١) السلاطة: الشدة، والمقصود الظلمانيات الشديدة.

(٢) للمؤلف عدة رسائل في طريقة استحضاره ﷺ في الذكر منها: الإجازة الطرقية، وهي ما اخترناه للنشر في هذه المجموعة المباركة.

فمن هناك كان حفظُ صورته الكريمة في مرآة القلب يتضمن حفظَ الباطن من الأغيار، لأنَّ الإنسانَ الكاملَ هو الجامعُ لجميعِ العوالمِ الإلهية والكونية، الكلية، والجزئية، وهو كتابٌ جامعٌ للكتبِ الإلهية والكونية، فمن حيثُ رُوحُه وعقلُه: كتابٌ عقليٌّ مسمًى بأمِّ الكتاب، ومن حيثُ قلبُه: كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيثُ نفسه: كتابُ المحو والإثبات، فهو الصحفُ المَكْرَمَةُ، المرفوعةُ المطهَّرة، التي لا يَمَسُّها ولا يُدركُ أسرارها إلاَّ المطهَّرون من الحُجُبِ الظلمانية.

فنسبةُ العقلِ الأولِ إلى العالمِ الكبيرِ وحقائقه بعينها نسبةُ الروحِ الإنساني إلى البدن وقواه.

وإنَّ النفسَ الكليةَ قلبُ العالمِ الكبير، كما أنَّ النفسَ الناطقةَ قلبُ الإنسان، ولذلك يُسمًى العالمُ بالإنسانِ الكبير؛ فاعقل.

[كيف يُستعان على استحضار صورته ﷺ في الذكر]

ويُستعان على هذا بأمور:

منها: معرفةُ السمائلِ المحمدية والتغلغلُ فيها، وإدماُنُ مخالطتها حتى تُرسمَ تلك الصورةُ الكريمةُ المحمدية التي لا يتمثلُ الشيطانُ بها في مرآتك:

إذا ما الشوقُ ألقني إليها ولم أظفرَ بمطلوبٍ لَدَيْهَا
نَقَشْتُ مِثَالَهَا فِي الْكَفِّ نَقْشاً وقلتُ لناظري: قَصراً عَلَيْهَا
يُمَثِّلُكَ الْفَكْرُ الْمُرَوِّعُ فِي النَّوَى وأرتاحُ إذ يبدو خيالكُ في فكري

ومنها: عدمُ الخروجِ عن السنةِ المحمدية ظلَّ نَفْسٍ في العاداتِ والعبادات، والمعاملاتِ والمعتقدات، فإنه بهذا تتوفَّرُ له الأنوار، ويقربُ من عالمِ المعاني، ويتباعدُ عن عالمِ الأكدار، لأنَّ السنةَ المحمدية هي في الحقيقة صورةُ سِرِّ

العالمين إلى ربهم سبحانه، لو تمَّ لهم التوفيق لما انقطع أحدٌ، ولو صلَّ الجميع، لأنها لا يُوصلُ بغيرها، وهي عنوانُ الوصول، وهي مِقْصَمُ الوصول، وهي الضياءُ في مُذْلَهَمَاتِ الحوَالِكِ السَّيرِيَّةِ والِدَهْرِيَّةِ، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فتأمل جلالَةَ النبوة في هذه الآية الكريمة، وهذا التوعُّد العظيم على الإعراض عن السنة المحمدية.

ومنها: / ٤ / عدمُ الغفلة عن الصلاة على مركز دائرة الأنوار صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، في كل حين، فيها تقوى الرابطة معه صلى الله تعالى عليه، مع استحضر مجالسته صلى الله تعالى عليه، لأنه جليسُ المصلين عليه.

فإنه سبحانه أدبُهُ فأحسن تأديبه^(١)، وليس التأديبُ إلا بالتخلُّق بأخلاق الله تعالى، وهو تعالى جليسُ مَنْ ذكره^(٢)، فهو صلى الله تعالى عليه جليسُ مَنْ صلى عليه.

وإنما أُنهي على الخَلْقِ من جريان الأعمال على اللسان فقط وعلى الجوارح الظاهرة، وعدمِ تعقُّل معانيها وتفقُّهها الفقه النافع الذي هو الاطلاع على أسرار الشارع في كل جزئية وكُلِّيَّة أمر بها، فهذا يعظمُ موقعُ الشرع الكريم في القلوب، ويعدِّمه يأخذه الإنسان أحكاماً مجرَّدة، وأقوالاً تعبدية، فلا يجدُ لها لَذَّةً ولا طعمًا ولا ذوقًا، ولا يحصل له تَرَقُّقٌ بسبب أخذها كذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [الفلم: ٤]، وأما الحديث: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» فمرويٌّ لكن بأسانيد ضعيفة جداً، انظر «كشف الخفاء» (١: ٧٢).

(٢) أخرج البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أنا عند ظنِّ عبيد بي، وأنا معه إذا ذكرني...»، وفي «المستند» للإمام أحمد (٥٤٠: ٢) عن أبي هريرة كذلك مرفوعاً: «إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبيد، إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه».

[لكل أمرٍ من أوامر الشريعة سرٌّ يعلمه العلماء بالله تعالى]

وإن جميع أسرار الشرع كلها يفقهها العلماء بالله تعالى، ليس عندهم شيء لا يُعقل، ولا يُفقه، ولكن قديماً قيل: «إذا عَجَزَ النحويُّ عن التعليل قال: هكذا سُمِعَ، وإذا عجز الفقيه عن العلة والحكمة قال: هذا تعبديٌّ أمرنا الشارعُ به ولم يُطلعنَا على حكمته».

ولكن معرفة الفقه المعنوي، بعد إتقان الفقه الحُكمي يقوِّي الباعثَ على الامتثال والاجتناب، ويُجِلُّ وَقَع مسائل الشرع الكريم في القلوب، فلذلك قال الشاطبي في «الموافقات» إنَّ القومَ حَمَلُوا أَنْفُسَهُمْ طَرَفًا من التعبد حتى ألحقوا المكروه بالحرام في طلب الترك، والمباح بدرجة المندوب، والتسَنُّ بدرجة الواجب^(١)، كل ذلك رغبةً فيما عند الله تعالى، ويصيرُ الشرعُ عنده ذوقاً لا يشككه فيه ألفٌ ملحدٍ يُصَيِّرُ الظلمة نوراً والنورَ ظلمةً والبطحاءَ ذُهباً، لا يوقعه في شيءٍ من الرَّيب لما وجده من امتزاج الفقه المعنوي بالفقه الحُكمي.

وصاحبُ هذا المقام له علاماتُ الممنان بها في «الكمال المتلالي»^(٢).

[النور الجامع الثاني]

النورُ الثاني مما يُلاحَظُ حالة الذكر: النورُ الإلهي^(٣)، النورُ الحق، النورُ القدُّس، نورُ السماوات والأرض.

(١) الموافقات (٤: ١٢٢)، (مشهور)، والنقل بالمعنى، وذكر إلحاق المباح بدرجة المكروه لا المندوب.

(٢) هو: «الكمال المتلالي، والاستدلالات الموالي، في محاجة أهل التفريط والتغالي، وأنَّ فيضان الربوبية والمحمدية لا يتقطع بل متالي»، طبع في المطبعة الحجرية بفاس.

(٣) سبق المؤلف - رضي الله عنه - ذكرَ النورِ المحمدي على النورِ الإلهي لأن النورَ الإلهي لا يتوصل إليه إلا من طريق النورِ المحمدي.

فيلاحِظُ نفسَه مستغرقاً فيه، وذاهباً في تياره، وهائماً في وسعه، وولياً في لَذَازَاتِ إحراقَاتِ شعاعَاتِهِ، وهذا النورُ يستحضره لا في حالة ذكر الكلمة المشرفة، ولا في حالة ذكر الأسماء الإلهية، ولا في حالة ذكر الاسم الهويّة، / ٥ / ولكن يحبسُ النَّفْسَ ويكررها بقوة وهمة تامة، بحيث يتأثر به من غير أن يظهرَ على ظاهره أثرها في باطنه، بحيث لا يشعر به جليساً جنبه.

ويجعلُ أوقاته مستغرقةً فيه، منهيمكةً به في أيامه ولياليه، ولا يتركه لشغل، ولا يهمله لعُذر، لا في القيام والقعود، ولا في الركوع والسجود، ولا في الاستقامة والانحناء، ولا في الشدة والرخاء، فحيثُ يظهرُ المطلوبُ من الحرارة الغريزية، والحُرقة الباطنية، والحركة الفؤادية، أي أن يتشرق صاحبه بالتجلي، وهو ما ينكشفُ للقلوبِ من أنوار الغيوب.

وأما الغيوب التي تُظهرُ التجلياتِ من بطاننها سبعة:

- (١) غَيْبُ الحقِّ وحقائقه.
- (٢) وغَيْبُ الخفاءِ المنفصل من الغيب المطلق بالتمييز الأَخْفَى في حضرة: ﴿أَرْأَيْتَ﴾^(١).
- (٣) وغَيْبُ السر المنفصل من الغيب الإلهي بالتمييز الخفي في حضرة: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾^(٢).
- (٤) وغَيْبُ الروح، وهو حضرةُ السر الوجودي المنفصل بالتمييز الأَخْفَى في التابع الأمري.
- (٥) وغَيْبُ القلب، وهو: موضعُ تعانق الروح والنفس، ومحلُّ استيلاء السر الوجودي، ومنصةُ استجلانه في كِبْوَةٍ^(٣) أحدية جمع الكمال.

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَكَنَّ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَرْبَعِينَ﴾ [النجم: ١٩].

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَكَنَّ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَرْبَعِينَ﴾.

(٣) الكِبْوَة: السقطة. كبا يكبر: سقط على وجهه.

(٦) وغيبُ النفس وهو: أنس المناظرة.

(٧) وغيبُ اللطائف البَوْنِيَّة، وهي مطارح أنظاره لكشف ما يحق له جمعاً وتفصيلاً. كما في «التعريفات»^(١).

فإذا واظب الطالب^(٢) عليه زماناً، وداوم عليه أياماً، ظهر أثرُ الغيبة وعدمِ الشعور في بعض الأحيان، وهو مقدمةُ الجَذْبَةِ، فلا يغفل عنه، وإن وقع الفتورُ يستغفرُ الله تعالى ويرجعُ لذلك الحضور.

وبعدَه تحصلُ له المَلَكَةُ التامةُ الطاردةُ جيشَ الغفلة عن ساحة القلب، لكن بشرط أن لا يريدَ من اللفظِ المباركِ إلا الذاتَ المقدَّسةَ عن جميعِ الكيفياتِ المتخيَّلة.

فإذا داومَ على الذكرِ بكنهِ الهمة، صار مَلَكَةً راسخةً للقلب، كالسمع للسامعة، والبصرُ للباصرة، فلو كُلفَ زواله لا يزول، بل تسكُنُ صَوْلَتُهُ، فيصيرُ [الالتفاتُ]^(٣) الشهودي له مَلَكَةً، وهو قائمٌ في باب المعلوماتِ النظرية مقامَ البَدَاهَةِ، والبديهيُّ هو: الذي لا يتوقف حصوله على نظيرٍ وكَسْبٍ، سواء احتاجَ إلى شيءٍ آخرَ من حَدْسٍ أو تجربة، أو غير ذلك، أو لم يجده، فيراه من الضروري كصور الحرارة والبرودة، وكالتصديق، فإنَّ النفيَ والإثباتَ لا يجتمعان ولا يرتفعان.

وهذه / ٦ / الطريقُ التي نشيرُ إليها تقطعها في سبع خطوات، اثنان منها من عالم الخَلْق، وخمسة من عالم الأمر: القلبُ، والروح، والسُّر، والخفي، والأخفى، من عالم الأمر، و[القالبُ] والنفس من عالم الخلق، والقلب مركَّبٌ من العناصر الأربعة.

(١) «التعريفات» للشريف الجرجاني ص ٥٣.

(٢) أي طالب الوصول إلى الكمال.

(٣) ما بين العلامتين [] كلامٌ غير واضح في الأصل، وقدَرناهُ كما ترى.

[كيفية الوصول إلى الصفاء الرباني]

ومن أراد الصفاء الرباني فعليه بالانكسار جوف الليل، ولحبس النفس، والاحتياط في حبسه - حرصاً على جمع الهمة وعدم تشتيت الخاطر - خاصيةً عجيبةً في تسخين الباطن، وجمع الهمة، وهيجان العشق، وقطع أحاديث النفس.

وكذلك لعدد الوتر خاصيةً عجيبةً، حتى أجازوا لحبس النفس والتوجه بكنه الهمة الغوص في الماء، وفي تلك الحالة يشتغل المريد بالذكر مع هذه المراعاة، وكل من لم يحبس نفسه سبع عشرة مرة، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثاً وعشرين، أو سبعا وعشرين، أو ثماناً وعشرين^(١) لا يظفر بالتأثير الذكري، والحرارة الجاذبة، والنور الخارق.

ولذلك تجد المريد يذكر السنوات وهو بحاله قبل التلقين، لأنه لا يدري ما معنى النسبة، وما معنى أخذ العهد على أهل الله، ولا القصد من صحبتهم ورفقتهم، إنما غاية ما يفهم أنهم وسائل في طلبهم من الحق سبحانه أن يشفي رأسه من الوجد، وأن يسط على الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[احتراس رسول الله ﷺ من تشتت الخواطر]

وليُعتبر بحال سيد الخلق، أطهر الذوات الكونية - صلى الله تعالى عليه - كيف احترس من تشتت الخواطر وتوزيع الهمة، فقال: «أخذوا خَمِيصَتِي هذه فإنها شغلتنِي عن صَلَاتِي، اذهبوا بخَمِيصَتِي إلى أَبِي جَهْم واثبوني بَأَنْبِجَانِيَةِ أَبِي جَهْم»^(٢)، كل ذلك حرصاً على عدم وجود مشوّش وموزّع للهمة حالة المناجاة.

(١) ربما ذكر المؤلف الرقم (٢٨) وهو ليس وترأ، لأنه من مضاعفات العدد (٧) وهو وتر!

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٥٨١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وللمؤلف رضي الله عنه مؤلف ضخم في شرح حديث الخميصة هذا، جمع فيه علوماً كثيرة، وما زال مخطوطاً.

وهذا ضربُهُ صلى الله تعالى عليه مثلاً للموجوداتِ لترتاضَ وتحترسَ على اختلافِ وحدةِ الوقت، ووحدةِ الصفاء، ووحدةِ المناجاة، لتذوقَ لذةَ العباداتِ والقرباتِ الشرعية.

ولا يختلجُ بوهمِ روحاني أنه صلى الله تعالى عليه تُؤثّرُ فيه صُورُ الكائناتِ أجمع، علويها وسُفليها، لأنه جوهرٌ صقيلٌ شفاف، بل لا يثبتُ عليه ما قابله، ولذلك يشيرُ بقوله: «لو كنت متخذاً خليلاً غيرَ ربي لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوةَ الإسلام أفضل»^(١)، فلم يتأثر صلى الله تعالى عليه بمصاحبة الكائنات له؛ قطعاً.

وانظر كيف احترسَ على هذا المسلَكِ / ٧ / فقال: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدثُ فيهما نفسه بشيءٍ غفرَ له ما تقدم من ذنبه»^(٢)، تأشياً لمسألة حفظِ خاطر، وحرصاً من انطباعِ صور الكائنات في مرآة الذات حتى تكونَ لها حجاباً عن وحدةِ الشهود صنعاً.

[تنزيهُ الرسول ﷺ عن انطباعِ صورِ الكائناتِ فيه]

وأما ما أشار إليه شروح^(٣) «الصحيحين» من أنه صلى الله تعالى عليه كان تنطبع فيه صور الكائنات، لذلك تحرى من الصلاة بالخَمِيصة لها أعلام، فهو منهم ذهولٌ عن خاصية مطلق النبوة.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه باختلاف يسير.
 (٢) أخرجه البخاري (١٥٦) ومسلم (٢٢٦)، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وزاد هناك: «من توضأ نحو وضوئي هذا فأحسن...»
 (٣) إنما ذكر المؤلف - رضي الله عنه - شروح البخاري ولم يذكر شراحه، أدباً معهم رحمهم الله تعالى، فليتنبه لذلك.

والعجبُ أنه صلى الله تعالى عليه واسطة الكائنات في كل ما يترزُّ لهم، فإنما هو قاسمٌ واللهُ - جَلَّ شأنُه - يعطي^(١)، ومع ذلك لا يتأثر بصحبة الكائنات، حتى إن ليلة الإسراء زُفَّت له الحقائق العلوية بالازدهاء، ومع ذلك وصف سبحانه حاله الكريم الأسنى بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ عما هو بصدده من الطموح لمشاهدة الجمال صِرْفاً بدون ألبة المظاهر ﴿وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] بما قُوبِلَ به؛ بل لم يزل ناظراً إلى مركز عبوديته وعبودته^(٢).

وهذا غاية التبريز من الحق سبحانه والتعديل لحبيبه الكريم في حاله معه في حالة قُرب القُرب، فإيّاك والغلط في الجانب المحمدي فتسقط من عين الله مرة واحدة.

[محاربة الخواطر أثناء الذكر وطريقة ذلك]

وقد تحرّى أرباب الطريق في هذا المعنى حرصاً على الجمعية القلبية مع الله تعالى، حتى قالوا: إن مراعاة العدد ينبغي أن يكون بمجرد الحفظ، لا بالأصابع لئلا تضيق درجة أو درجتين في أمر مشوّش.

وحتى قالوا: إنّ الذاكر إذا عجز عن الحبس لكثرت وضعف عن الذكر لقوة السلطان الغالب، فله إرسال النفس مع الذكر، ويكون ذلك نافعا.

وصاحب هذا ينبغي له أن يكون فيه متيقظاً، فلا يدع خطرة تخطر بقلبه، بل يصدم الخطرة في أول ما تظهر، لأنها إذا ظهرت مالت إليها النفس وألفتها، فيعسر زوالها^(٣).

(١) كما ورد في البخاري (٧٣١٢) من حديث معاوية رضي الله عنه، وغيره قوله ﷺ: «إنما أنا قاسمٌ والله يعطي».

(٢) للمؤلف رضي الله عنه مؤلف في الفرق بين العبودية، والعبادة، والعبودية، لم يطبع بعد.

(٣) ولذلك قال الإمام ابن الفارض رضي الله عنه:

ولو خطرَ لي في سواك إرادة
على خاطري، سهواً، قضيت برؤني
أي: رجوعي إلى أول طريق السلوك.

فهذا طريقُ تحصيل مُلكِ خلْوِ الذهن عن خطورِ الخطراتِ وأحاديثِ النفسِ، وهو المعبرُ عنه بـ«التجريدِ الشَّرِّيِّ»، المعتبر عندَ أهل طائفتنا، وهو: إماطةُ السَّوئِ والكونِ عن السرِّ والقلبِ، إذ لا حجابَ سوى الصُّورِ الكونيةِ والأغيارِ المنطبعةِ في ذاتِ القلبِ، والسرُّ فيها كالتَّوَهُ والتَّشْهيراتِ في سطحِ المرآةِ، القادحةِ في استوائه، المزيلةِ لصفائه.

وما أتيَ على المريدِ إلا من استرساله في الغفلة، وعدمِ علمه بما يصنع، وذهوله في باب الهوى القاتل المهلك، حتى لا يشعرَ بما يجري على لسانه والسبحةِ في يده، والأستاذُ أمامه، وبيتُ الله محيطٌ به، والرفقاءُ بجنبه، والأصواتُ مرتفعةٌ، والصدورُ مرتجةٌ، وهو في دُكانه يقلبُ أوراقَ الكنائسِ، أو يتجاذبُ أذيالَ المخاصماتِ مع زوجة أو رفيقه أو خصمه أو عدوه، والحالُ أنه في حضرةِ الله في الوردِ، أو في الصلاة، أو في التوجُّه، وكل هذا خروجٌ عن الطريقِ وسَنَنِ أهلها، ولذا قالوا: فإنَّ تساهلَ المريدُ عن تكبيرة الإحرام؛ فلا كلامَ معه!

فيا لَيْتَ شعري ما يقولون فيمن هذه صفته؟ اللهم خذ بأيدينا أخذَ الكرامِ عليك، ولا تكلِّنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عَيْنٍ ولا إلى أحدٍ من خلقك، آمين يا ربَّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا، والحمدُ لله على ذلك.

[الكلامُ عن الفناء وأقسامه]

وقد قال بعضُ السادات: «إنه يجوز أن يحصلَ لبعضِ السائرين فناءُ القلبِ والروحِ ولا يحصلَ له فناءُ السرِّ، وربما يحصلُ فناءُ السرِّ ولا يحصلُ فناءُ الخفي والأخفى، فيكتفي بفناء القلبِ والروحِ والسرِّ فقط، ويكونُ بهذا القدر من السلوكِ في زُمرة الأولياء، لكن إذا ظهرتْ حقائقُ اللطائف الخمسة بعدَ الموتِ

لا يفوز هذا السالك - بالثمرات والتتائج المناسبة لفناء تلك اللطائف وبقائها، التي لم تشرق بالفناء والبقاء في هذه النشأة الدنيوية - فوزاً كاملاً . . اهـ.

والذي يلوح: أنه إذا حصل للعبد الفناء في الأفعال، والفناء في الصفات، والفناء في الذات، ورجع إلى البقاء الثاني الذي هو في الولاية بمنزلة الرسالة في حق المرسلين: بالضرورة يحصل فناء اللطائف الخمسة، فاعلمه.

والمعتبر عند أكابر طائفتنا: هو الحضور الذاتي، والشهود الدوامي الغير البرقي، ولا عبرة بالحضور الزائل المتبدل بالغية. والتجلي الذاتي: ما يكون مبدؤه الذات، من غير اعتبار صفة من الصفات معها، وإن كان لا يحصل ذلك في الغالب إلا بواسطة الأسماء والصفات، إذ لا يتجلى الحق من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجب من الحجب السماوية، بخلاف التجلي الصفاتي؛ فهو ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعيينها وامتيازها عن الذات.

وقول / ٩ / من قال: «إنَّ التجليَّ الذاتيَّ برقيٍّ» معناه: أن خرقه جميع الحجب عن حضرة الذات يكون في زمن يسير كالبرق، ثم تنسدل حجب الأسماء والصفات، وتُسَرَّ سطوات أنوار الذات، فيكون الحضور الذاتي كالبرق.

والغية الذاتية كثيرة جداً، ولكن كل من لم يتمكن من الانسلاخ من جلايب البشرية لا يظفر بالتجلي الذاتي أصلاً، أو هو الذي يتمتع به برقياً.

وأما الذين تولاهم الاسم «الولي» وقدسهم الاسم «القدوس»، وتبناهم التخصيص المحمدي، فيتمتعون بالتجلي الذاتي صِرْفاً بدون بَرِاقِ حجب الأسماء والصفات، ويحتاج صاحبه لتلاشيه ألف مرة في اليوم أو أكثر، أو في اللحظة الزمانية، لقوة التجلي وتمكُن جلايب البشرية منها.

فلا يقوى على التجلي المجرد عن حُجُبِ الكثرة إلا أهل التجريد عن
البشرىات، وربما تعرف في وجوههم نضرة النعيم، فتستدل عليهم بذلك، فلا
يُقال - إذا لم تكن لهم علامة رسمية - : فِيمَ يُعَرَفُونَ؟!

نقول: إن آيتهم في أنفسهم، وهو دوام ترقّيهـم في مدارج العلم والمعارف،
بحيث يعرفون الأشياء كما هي، وراثـة محمدية.

[نتائج تجمّع الهمة أثناء الذكر والعبادة]

ثم إن تجمّع الهمة، وعدم توزيع الخواطر، والتوجّه للنور الصّرف بكنه
الهمة تنفعل عنه الكائنات، فتأثر منه الحقائق العلويات والسفليات، ولذلك
قيل: «ارتفاع الأصوات بالدّعوات، في مساجد الجماعات، يحلّ ما عقّدت
الأفلاك العلويات».

ومن تمكّن من جمع الهمة، ولم يسترسل مع الخواطر وقعت له تصرّفات
عجيبة من التوجّه لمراد فيكون على وفق الهمة والتأثير، ورفع المرض عن
المريض، وإفاضة التوبة على العاصي، والتصرّف في قلوب الناس حتى يحبّوا
ويعظمّوا، وفي مداركهم حتى تحدث فيها واقعات عظيمة، والاطلاع على نسبة
أهل الله من الأحياء وأهل القبور^(١)، والإشراف على خواطر الناس وما يختلج
في الصدور، وكشف الوقائع المستقبلية، ودفع البلية النازلة.

وأما نسبة كسر النفس والتبرّي عن حظوظها؛ فهي نسبة أهل البيت عليهم
السلام.

وها نحن نشير لأنموذج من ذلك؛ فنقول:

(١) لم يقل المؤلف «الأموات» أدباً معهم، ولأن الأولياء الكُمل أحياء في قبورهم وراثـة نبوية،
حيث الأنبياء أحياء في قبورهم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، والله أعلم.

[تأثيرُ الشيخ في المريد وكيفية ذلك]

أما التأثيرُ في الطالب المتوجِّع بشراشرِه^(١) إلى جنابِ القُدسِ بواسطة شيخه:

بأن يتوجَّهَ الشيخُ إلى نفسه الناطقة، ويُصادِمَها بالهمة النامة القوية، ثم يستغرق في نسبته بالجمعية بعد أن / ١٠ / يكون الشيخُ متحملاً لنسبةٍ من نسبِ القوم^(٢)، ويكون راسخَ القدم فيها، فينقل نسبتهُ إلى الطالب على حسب استعدادِه، أو: متحملاً لهمةٍ محمديَّةٍ وبها يسير وهو أرفعُ المعارج، ومهما عرضَ خاطراً أثناء هذه الجمعية؛ فليصادم وليراجع بالمرة، لأنه يُفسدُ عليه صفوَ وقته.

وليضرب الشيخُ أو خليفتهُ بأصبعه اليمنى في فخذِه الأيسر، فإن الخاطرُ يذهب، كما علَّمَ صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله لمن غلبت عليه الخواطرُ في الصلاة أن يفعلَ ذلك، فيذهبُ خاطره^(٣)، ولكن ينبغي لمن هو في الصلاة أن لا يفعلَه إلا عندَ ركوعه حتى لا يفوته الاعتدال.

(١) الشراشر: الشُرْشيرة: القطعة من كل شيء، والجمع شراشر، أي بجميع أجزاء جسده، أي: ب كله.

(٢) أي طريقة من طرقهم.

(٣) روى الطبراني في «الكبير» رقم (٥١٢)، والبخاري برقم (٥٨٠) عن أبي المليح بن أسامة عن أبيه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إني أشكو إليك وسوسة أجدُها في صدري، إني أدخل في صلاتي فما أدري على شفع أنفيل أم على وتر؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإذا وجدت ذلك فارفع أصبعك السبابة اليمنى فاطعته في فخذك اليسرى، وقل: بسم الله، فإنها سكين الشيطان».

قال الهيثمي في «المجمع» (٣٥٢: ٢): «رواه الطبراني في «الكبير»، والبخاري [و] لم يحسن سياقة الحديث، فلعله من سقم النسخة - والله أعلم - وفيه: المهاجر بن المنيب عن أبي المليح، وهو مجهول».

قلت: وأورده الحكيم الترمذي كذلك في «نواذر الأصول» (٢٩: ٣).

ونؤكدُ على من يريد إعطاءَ الرِّدِّ من أهل طائفتنا أن يجمعَ هذه الهمّةُ ثم يلقنَ الوردَ إثرَها، فبذلك تقع النتائجُ والسرايات^(١).

ولكن قد يقع التشويشُ على الشيخ أثناء هذه الجمعية إذا كان في المجلس مَنْ هو على غير طُهر، أو صاحبُ جناباتٍ معنوية^(٢)، كما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله في الصلاة لما جهرُوا معه بالقراءة فشغلوه.

خرَّج الإمام في «الموطأ» والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، والترمذي - وقال: حديثٌ حسن، وابن ماجه وابن حبان عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أنَّ مولانا رسولَ الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله انصرف من صلاةٍ جهرَ فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ معي أحدٌ منكم أنفاً؟» فقال رجلٌ: نعم يا رسول الله، قال: «فلاني أقول: مالي أنازعُ القرآن...؟»^(٣).

قوله: «أنازع»، بضم الهمزة للمتكلم وفتح الزاي، والمنازعةُ: المجاذبة، قال صاحب «النهاية»: «أنازع، أي: أجاذب [في قراءته]، كأنهم جهرُوا بالقراءة خلفه - الكريم - فشغلوه»^(٤) فالتبست عليه القراءة. وأصلُ النزاع: الجذب، ومنه نزعُ الميت بروحه.

زاد الراوي: «فانتهى الناسُ» عن القراءة مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله فيما يجهرُ فيه رسولُ الله صلى الله تعالى عليه^(٥).

(١) أي: الأنوار والمواد السارية إثر ذلك.

(٢) يعني بها الذنوب والمعاصي وفساد الباطن، نسأل الله العافية.

(٣) الموطأ (١٩٠) واللفظ له، والشافعي كما في «السنن الكبرى» للبيهقي (١٥٧: ٢)، وأحمد (٩٥٢٧)، وأبو داود (٨٢٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٩)، وابن ماجه (٨٤٨)، وابن حبان (١٧٨٥) من الإحسان.

(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» للإمام ابن الأثير الجزري (٤١: ٥).

(٥) انظر «الموطأ» (١٩٠).

وقوله: «فانتهى الناس...» مُدرَجٌ^(١) في الخبر كما بينه الخطيب، واتفق عليه البخاري في «التاريخ»، وأبو داود، ويعقوب بن سفيان، والدُّهلي، والخطّابي، وهو مما لا خلاف فيه بينهم^(٢).

وعن سيدنا عبادة بن الصامت - رضي الله تعالى عنه - قال: صلى مولانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - الصبح، فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إني أراكم تقرأون وراء إمامكم» / ١١ /، قال: قلنا: يا رسول الله، إي والله. قال: «فلا تفعلوا إلا بأم القرآن، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»، رواه أبو داود والترمذي^(٣).

قوله: «ثقلت عليه القراءة» أي شقَّ عليه التلُّفُّظُ والجهْرُ بالقراءة، ويحتمل أن يُراد به أنها التبست عليه القراءة، بدليل ما عند أبي داود من حديث عبادة في رواية له بلفظ: «فالتبست عليه القراءة»^(٤).

فانظر كيف ثَقَلَتْ عليه - صلواتُ الله وسلامُه عليه - القراءةُ لما نازعوه فيها، والتبست عليه، فكان ينبغي للطالب أن يحتفظَ على قلب المرئي حتى لا يَسُدَّ المجاري التي بينه وبينه، ويبقى عُرْضَةً للضياع، ضِحْكَةً بين الناس.

وانظر قوله عليه الصلاة والسلام لمن قالَ له: اضمَنْ لِي الجنة، فقال له: «أعني على نفسك بكثرة السجود»^(٥)، فكيف مع هذا أن يُخْلِدَ المریدُ إلى أرض

(١) المدرج: ما زيد في لفظ الحديث من كلام الراوي، وقد يأتي في أول الحديث، أو وسطه، أو آخره - كهذا الحديث - وليس هو من لفظه ﷺ بل من لفظ بعض الرواة، وهو هنا من كلام الزهري كما في «السنن الكبرى» للبيهقي (٥٧: ٢)، وقيل: من كلام أبي هريرة وهو ما رجحه الحافظ الكاندهلوي في «أوجز المسالك» (١٠٧: ٢).

(٢) وينحو هذا عبارة الحافظ في «التلخيص» (٢٣١: ١).

(٣) «سنن أبي داود» (٨٢٣)، و«الجامع» للترمذي (٣١١)، وحسنه.

(٤) «سنن أبي داود» (٨٢٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٦) ولفظ طلب السائل: «أَسْأَلُكَ مرافقتك في الجنة».

الكسل والراحة والجُبْن، ثم يتمنّى مراتب الرجال! لا نامت عينُ الكسل والجبن والبخل^(١).

وكذلك الطالبُ إذا غاب فإنهم يتخيّلون صورته ويتوجّهون إليها^(٢).

[تعريفُ الهِمّة]

وأما الهِمّةُ فعِبارةٌ عن اجتماع الخواطر، وتأكّد العزيمة، بصورة التمني والطلب، بحيث لا يخطر في القلب خاطرٌ سوى هذا المراد، كطلب الماء للعطشان.

وقد حُكيَ أنّ بلدةً كانت اعتاصت وتمنّعت على بعض الملوك أن يستولي عليها مع قوته، فبحث عن ذلك، فقليل له: إنّ أهلها مجتمعةً قلوبهم على أنها لا تُدخِل، وطامِحُونَ لذلك، فهم في قوة رجلٍ واحد، فسأل عن سبب قلّ عزائمهم حتى يمكنه الدخول للبلدة، فقليل له: شوّش أفكارهم حتى تتفرّق هِمَمُهم فلا نجدُ مانعاً يمنعك منهم. فاتخذَ طُبولاً لها أصواتٌ مُفرّعة، وأحاطها بسور البلد، فالتفتت لذلك أفكارهم، وانشغلت بالبحث عنها، فتوصّل ذلك المَلِكُ للاستيلاء عليها، لعدم المُمانع والمُدافع. فهذه القضيةُ عبرةٌ لمن اعتبر.

(١) وهذا ما حدث في هذا الزمان، حتى أصبح المذمّون الانتسابَ لطريق القوم أخملاً الناس وأعجزهم عن العمل من قيام وتهجيد وصيام وجهاد في سبيل الله تعالى، مع الاعتماد على فضائل الأذكار دون استحضار معانيها والآتصاف بحقائقها، والله ذرّ الإمام أبي مَدِين التلمساني إذ قال:

واعلم بأن طريقَ القومِ دارسةٌ وحالٌ من يدعيها اليوم كيف ترى
(٢) قد يستأنس هنا بما عقده رسول الله ﷺ وعلى آله من بيعة سيدنا عثمان رضي الله عنه له في بيعة الرضوان عند غيبته كما ذكره أهل السير، ويقولون ﷺ وعلى آله في عدة أحاديث: «أمنت بكنا أنا وأبو بكر وعمر...»، وغير ذلك من الآثار المتضاربة على هذا المعنى.

وكذلك يفعل الشيطانُ حتى يتمكن من القلوب، لا في الصلاة ولا في الذكر، ولا في جميع الأعمال، حتى يَجْلِبَ عليهم بخيله ورجله، ويستفز من استطاع منهم بصوته، ويشاركهم في الأموال والأولاد، ويعدّهم، وما يعدّهم الشيطان إلا غروراً.

[طريقة رفع المرض عن المريض]

وأما رفع المرض عن المريض فكيفيته أن يتخيّل نفسه المريض، وأن ذلك المرض متلبّس به، ويجمع كُنهَ الهمّة، بحيث لا يخطر بباله سوى هذا الخاطر، فإن المرض ينتقل / ١٢ / إليه، وهو من عجائب صنّع الله تعالى في خلقه.

[طريقة التصرّف في العاصي بإفاضة التوبة عليه]

وأما إفاضة التوبة على العاصي، فصورته: أن يتخيّل نفسه ذلك العاصي، ويقطع ملاحظة الغيرة بين النفسين، كأنّ نفسه تعانقت مع نفسه، ثم يجدد الأوبة والإنابة إلى الله تعالى، ويَجَارُ إليه بالندم والتوبة والاستغفار، فإن ذلك العاصي يتوب عن قريب، وليُعاود ذلك المرار بعد المرار، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فإنما لم يقل جل شأنه: (يقبل توبة عباده) لإفادة هذه المسألة، وهي أنّ مَنْ تابَ نِيَابَةً عن شخصٍ فإن توبته تُقْبَلُ عنه، ويُزَلُّ ذلك المَتُوبُ عنه منزلةً التائب، هذا في النِيَابَةِ، وأما الآن فقد أَفْضَتْ النفسَانِ إلى نفسٍ واحدة، والسلام.

[طريقة التصرّف في قلوب الناس لإرساء المحبة بينهم]

وأما التصرّفات في قلوب الناس حتى تقع رابطة المحبة والوداد، أو في مداركهم، حتى تسري فيها الوقاعات، فصورته: أن يصدّم نفس الطالب بقوة الهمّة والعزم والتوجّه الروحي، ويجعلها متصلة ومتلبّسة به، ثم يتخيّل صورة

الحبِّ والود، أو الواقعة المثالية، ويتوجَّه إليها بمجامع القلب، فإنَّ هذا المتوجَّه إليه يتأثَّرُ وتحصُلُ له الواقعة.

[طريقة الاطلاع على نسبة أهل الله ومقاماتهم]

وأما الاطلاع على نسبة أهل الله فطريقه أن يجلسَ بين يديه، إن كان حياً، ونجاة قبره إن كان في البرزخ، ويجرِّد نفسه عن كل نسبة، ويُقضي بوجهه إلى روح هذا الشخص زماناً حتى تتصل بها، وتختلط، ثم يرجعُ إلى نفسه، فكلما وجدَ فيها من الكيفيات فهو نسبة هذا الشخص لا محالة.

وقد يتعرَّف الإنسان بهذا - إن تمَّ له الحضورُ والالتفاتُ الروحي - الحالة التي مات عليها الميت، أيَّ اسم غلبَ عليه وروحُه بسكوته حالة خروج روحه، فإنَّ الأموات كل واحدٍ منهم يتجلَّى له مقتضى الاسم الذي كان أغلبَ عليه في الحياة^(١).

ومن عَلِمَ هذا: لا يشترط في الميت النطق بالكلمة المشرقة، بل العلمُ بها كافٍ عندَ خروج الروح، لقول الأنبياء المحمدية: «مَن مات وهو يعلمُ أن لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٢)، تأديباً من الشارع لمن رأى مريضاً خامراً المرضُ وغيبه عن حِسِّه إلى أن مات، فإنَّ الحاضرَ عنده لا يجوزُ له أن يلِمَّه بشيءٍ، لأنَّ العلمَ بمقتضى التوحيد كافٍ، وطُرُقُه تتشعَّبُ حسب الأسماء الإلهية، وهذا المحدث عنه يعلم أيَّ الشعب خرج عليها من الدنيا هذا الميتُ بتوجهه للحضرات الأسماوية. / ١٣ /

وهذا العلمُ لم تَرَّ له ذاتقاً، والله الواهبُ المفضل، الجوادُ الكريم.

(١) لما توفي المترجم رضي الله عنه كان آخرُ ما تلقظ به: «الله» بصوت عالٍ اهتز له السجن الذي كان به بغاس، كما في «بلوغ الأمان» ص ٢١، لنجله الإمام الباقر رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦) في باب من مات على التوحيد دخل الجنة عن عثمان رضي الله عنه.

[طريقة الإشراف والكشف عن الخواطر]

وأما الإشرافُ على الخواطر فطريقه: أن يجردَ نفسه عن كل حديثٍ وغيره، ويفضيَ بنفسه إلى نفسِ هذا الشخص، فإن اختلجَ في نفسه حديثٌ من قبيل الانعكاس والتقابل، فهو خاطره.

[طريقة كشف الوقائع المستقبلية]

وأما كشفُ الوقائع المستقبلية فطريقه: أن يُفرِّغَ نفسه عن كل شيءٍ إلا انتظار هذه الواقعة، فإن انقطعَ عنه حديثُ النفس وكان التوجُّهُ بكنهِ الهمة وتباعد عن العالم السفلي بالمعنى والملاحظة وأكثرَ من مطالعة العالم العلوي إلى أن يقربَ بروحه للملأ الأعلى على حسب استعداده والتجرُّد عن العلاقات الكونية فإنه عن قريبٍ ينكشفُ له الأمر، إما بهاتفٍ، أو رؤيةٍ واقعةٍ حسيةٍ أو خيالية.

ومن أنكرَ هذا فكأنه لم يعلم ما في «الصحيح» من قول المربي للنفوس والأرواح: «قد كان فيمن قبلكم محدثون، وإن يكن في أمي فعمرو منهم»^(١).

وقد قال سيدنا علي: «إنا لنرى في القرآن رأياً من رأي عمرَ تعبَّدنا الله سبحانه به».

والموافقاتُ العمريةُ من هذا القبيل، وقال أبو ثراب^(٢): «كنا نرى أنَّ السَّكِينَةَ تنطقُ على لسانِ عمر»^(٣)، والسلام.

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٦٨٩)، والترمذي (٣٦٩٣)، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهي كنية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) ذكره الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (سير الخلفاء الراشدين) ص ٧٦ عن الشعبي عن علي بلفظ: «ما كنا نُبعد أن السَّكِينَةَ تنطقُ على لسانِ عمر».

ولكن شرط صاحب المسألة أن يعرف ارتباط العالم السفلي بالعالم العلوي، ويعلم شعباً من عالم الخيال بقسميه: المتصل، والمنفصل، ونوعيه: المطلق، والمقيد، ويكون له السبج الكامل في العالم الخيالي، فإنه يتحقق بالوقائع المستقبلية.

وبإياه أن يغتر بالبرق الخلب، فإن الصديق الأكبر لما عبّر الرؤيا قال له سند الكل: «أصبت بعضاً، وأخطأت بعضاً»^(١)، ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَالْيَوْمِ تَرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]^(٢).

[طريقة التصرف بدفع البلية النازلة]

وأما دفع البلية النازلة فطريقه: أن يتخيل نزولها ويستحضر روحانيته صلى الله تعالى عليه، ويستحضر تأديياته وإرشاداته في مثل هذه المسألة، ويعلم أنه لا ينطق عن الهوى، فإنه قال: «الدعاء يرد القضاء المبرم»^(٣)، أي: الذي يُظن أنه لا يتحل، وقال: «الدعاء والقضاء يعتكجان بين السماء والأرض إلى يوم القيامة، فيقول الدعاء: أمرت أن أرُدَّكَ، ويقول القضاء: أمرت أن أنزل»^(٤).

(١) كما في البخاري (٧٠٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) تكلم المصنف رضي الله عنه بنوع من التوسع عن هذه العلوم في كتابه الفخيم «الأمالي في علم الأمهات»، المضمّن بعضاً وتسعين جُلماً، وهو مما أعدناه للنشر - بحمد الله - ضمن هذه السلسلة المباركة.

(٣) أخرج الترمذي عن سلمان رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»، ورواه أحمد وابن حبان والحاكم عن ثوبان مثله. قاله الحافظ في «التلخيص» (٤: ١٢١).

(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» بلفظ قريب (١: ٤٩٢)، في إسناده زكريا بن منظور، قال الذهبي: «زكريا مجمع على ضعفه». وأخرج الطبراني في «الأوسط» (٤٤٦) من مجمع البحرين) والبيزار (٢١٦٥) وغيرهما من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «لا يغني =

ثم يجمعُ هِئْتَهُ عَلَى ذلك، ويربو عن الملابسِ الكونيةِ إلى حيزِ العالمِ
التقديسي والسافل، / ١٤ / فإنها عن قريبٍ تنفُص بركة الأنفاسِ المحمدية،
والسلام.

[الخاتمة: في شرط التصرفات السابقة]

والشرطُ في هذه التصرفات: الإفضاءُ بنفسك إلى نفس المؤثرِ فيه، والإلمامُ
بها، والاتصالُ بها، واعتناقُها اعتناقَ لام الألف.

وروحُ هذه المسألة التجردُ من الغواشي البدنية، ومحوُ النقوش الكونية،
وأربابُ هذا التجريدِ القلبِي يعرفون هذا الاتصالَ وهذا الاعتناقَ بالمعاني
التجريدية الكائنة في الآماد^(١)، والسلام.

انتهت بحمد الله



حَذَرَ من قَلَر، والدعاء بنفع مَن نزل ومَن لم ينزل، وإنَّ الدعاء ليلقى البلاءَ فيعتلجان
إلى يوم القيامة، وفي إسناده زكريا بن منظور أيضاً، وروى البزار (٣١٣٦) نحوه عن أبي
هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده: إبراهيم بن خيثم بن عراك، متروك، قاله الهيثمي في
«المجمع» (١٠: ١٤٩).

(١) في الأصل: في الأمادة.

النفاثس الكتانية

٥

الرسالة إلى أهل سَلا
في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ والحَضُّ عليها

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

التي تعرفت قبل الصلاة او على تلك الاعمال والتميز التي جعلت له
 ذلك الركوع مادة الجود له نعل البحر غير اضعف من شأبه حربة فيه مكانه
 سجود في طاهره كسجود في باطنه فيجعل كل مقام المناجاة مقربا له
 سر رجع اليه في الركوع والرفع منه ويعتبر الحور الفعورات في الخيلام
 ومن الرفع عن تكبير الاحرام انفسا حاص بحسب العمل الذي تعرفت قبل الصلاة
 وانما فكر الامام الاكبر عليه السلام في قوله تعالى ان الله عز وجل انزل من السماء ماء فاعطى
 الغرب وانه امر خاص بالعارفين في قوله تعالى فمنهم من جعله والى حياه
 متصفيا بالحرمان انكر الرفع من حيث هو الامام قائم به بسبب وعقيدة من
 نفسه ولانه منصرف عن له عنى في اصطلاحه وزن كان ثابتا عن العباد
 يصرف لمن لم يرد في ذلك المقام انه يعطى متصفيا بالسادة في الارام

ومن سائر ما بلغه العظمة التبع العظيم الرفع ما كتب به اخواننا اهل البيت
 صلاوات الله عليهم وانه لم يسم الله الا بالجميع اللهم صل وسلم وبارك على من
 لم يعقل عن الله طرفة عين ولا ينقصه وتعالى الله عن عيوب رعاك عنه
 وانما يعقل جماعة الله عز وجل
 من غير ان يسمي غير الكبر والحق الذي لا يفتقر لاضواء اهل البيت
 والبر والسيره اما ما جرد الاما ان لا تاجر الا ما جرد ما رجع لسم ما رجا
 ومنه وانما جرد الاما ان لا تاجر لم يسم اليه وجمع فلو سمع عليه ومنه
 عنهم الصواب والاعمال التي تعظم عنه ليجل به جميع نعمه وبارك في كل
 ونعمته الكمال في كل حال يسلا اخبر به المعلوم الاما ان لا يسمي
 والوجه في المشرق في الامام في الصلاة العظمى الاما في المارة واولد الاما

١٠٠ - وروى عن علي بن ابي طالب عن ابي عبد الله عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول
 ١٠١ - من اراد ان ينجى نفسه فليكن من اهل البيت فانه لا يهلك من اهل البيت الا من اراد
 ١٠٢ - ان يهلك نفسه وروى عن ابي عبد الله عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول
 ١٠٣ - من اراد ان ينجى نفسه فليكن من اهل البيت فانه لا يهلك من اهل البيت الا من اراد
 ١٠٤ - ان يهلك نفسه وروى عن ابي عبد الله عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول
 ١٠٥ - من اراد ان ينجى نفسه فليكن من اهل البيت فانه لا يهلك من اهل البيت الا من اراد
 ١٠٦ - ان يهلك نفسه وروى عن ابي عبد الله عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول
 ١٠٧ - من اراد ان ينجى نفسه فليكن من اهل البيت فانه لا يهلك من اهل البيت الا من اراد
 ١٠٨ - ان يهلك نفسه وروى عن ابي عبد الله عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول
 ١٠٩ - من اراد ان ينجى نفسه فليكن من اهل البيت فانه لا يهلك من اهل البيت الا من اراد
 ١١٠ - ان يهلك نفسه وروى عن ابي عبد الله عليه السلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل وسلم وبارك على من لم يغفل عن الله طرفة عينٍ لا في نومٍ ولا يقظة، وعلى آله وصحبه عددَ رضاك عنه.

«رَأْسُ الْعَقْلِ مَخَافَةُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلٍ» «مِلَاكُ الدِّينِ الْوَرَعُ»

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الأحمدي الكتاني إلى كافة إخواننا الأقطار المضية، والبدور المنيرة، الأماجد الأماثل، الأناجد الأفاضل، مَنْ نرجوا لهم من رب الأرباب ومسبب الأسباب جلَّ جلاله أن يأخذ بوجهاتهم إليه، ويجمع قلوبهم عليه، ويصرف عنهم العوائق والعلائق التي تقطع عنه سبحانه، ويجمع لهم ضروب السعادة وتشقبات الكمالات، آمين.

أهل «سلا»، أخص منهم: المقدّم الأجل الأحفل، والوجية الأحب المطرب: سيدي الطاهر، والصابي القلب: الأمين الحارثي، وولد القلب: / ١ / سيدي ابن حساين، وكُمكمة النور: سيدي أحمد (نَجَلٌ تُلِدُ الْعِصْلُ) (١).

(١) المقدّم هو: أبو بكر بن محمد التطواني، السلاوي، خليفة المؤلف بسلا، وصاعقة العلم والمعرفة، له عدة مؤلفات ورسائل، وكان له الفضل في نشر العلم والتصوف الصحيحين بسلا، وطنجة، اعتقل في سبيل الله تعالى، فجعل السجن كأنه مدرسة علمية وصوفية، فأطلق سراحه، وقد وصفه المؤلف كما في «الرحلة الحجازية» للعراني بـ: «عتيق الله في الأرض». توفي سنة ١٣٣٧هـ، وذكر الجراي في «تاريخ علماء الرباط وسلا» (٢: ٢٦٧) أنه سمع على المصنف رضي الله عنه حوالي المائة سفر.

سلامُ الله على سيادتكم والرحماتُ والبركات، عن خير ظلِّ الله في الأرض،
أما بعد:

فقد اشتقنا أخباركم، وتعشُّقنا رؤية آثاركم أو سماعها، ونطلبُ من الله جلَّ
كرمه أن تكونَ الزاويةُ عامرةً في الأسفار، وقبلَ طلوعِ العصرِ يومَ الجمعة،
وعموماً الأوقات، فإنَّ المحلَّ الذي يحضره مولانا رسولُ الله ﷺ تكونُ العبادةُ
فيه مضاعفةً على غيره من الأماكن، وتكونُ التهليلُ فيه ليست كالتهليلِ في
غيره، والتسبيحُ والحسْبُ، والركعاتُ والتلاوة.

[الحض على الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ]

فأكثرُوا إخواني من الصلاة على مولانا رسولِ الله ﷺ، بالمتردِّي والقاسم^(١)

الظاهر: لم أنعرف عليه، وكذلك الأمين الحارثي.

ابن خُساين: فهو محمد بن أحمد بن حسان النجار السلاوي، رئيس الطريقة الكتانية
بسلا، ومدير المدرسة الكتانية التي أخرجت أجيالاً كثيرةً بسلا، العلامة المشارك الصوفي
الداعية، أحد المتفَعِّ بهم في المغرب، ما ترك التدريس والدعوة إلى الله حضراً أو سَفْراً،
صحة أو مرضاً، له عدة رسائل صوفية، وتوفي عام ١٣٧٥.

أحمد: كأنه أحمد بن عبد الله القباچ، الشهم الهمام الذاكر العابد الوجيه، كان متغنياً
في محبة آل البيت الكرام. وقوله: «نُحِلَّ تلد العسل» أي: «نُحِلَّة تلد العسل» وهي بشاردة
له، وقد ذكرها بالعامية المغربية.

(١) المتردي والقاسم صلاتان أنشأهما المؤلف - رضي الله عنه - فيها جملةٌ عظيمةٌ من الثناء
على رسول الله ﷺ وعلى آله، أما القاسم فهي مضمنة في ورده الشريف، وقد عهد عن
جملةٍ من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم أنهم أنشأوا صلواتٍ على رسول الله ﷺ،
وعلموها بعضُ أتباعهم. وقد فصل المؤلف - رضي الله عنه - في هذا الأمر في كتابه:
«لسان الحجة البرهانية»، و«الكامل المتلالي»، وكذلك في كتابه الكبير «خبيئة الكون».

أما صلاة المتردي فنصها:

حتى تتلطف الكشاف، وترق مراتب الظلام التي خلقت عليها الذات الإنسانية، فإن الصلاة على مولانا رسول الله أم السعادات، وأساس الكمال والقربات، حتى قال سيدنا الجد علي بن أبي طالب: «لولا أن الله فرض علي ذكره ما أتقرب إليه إلا بالصلاة على مولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، لما سمعت منه فيها»^(١).

وفي الحديث: «إن غزوة لمن حج حجة الإسلام تعدل غزوة أربع مائة حجة»، فانكسرت قلوب قوم لا يتيسر لهم الغزو والجهاد، فأوحى الله تعالى إليه: «ما صلى عليك أحد إلا كُتِبَتْ صلاته بأربع مائة غزاة، وبأربع مائة حجة»^(٢).

ولعل هذا في الصلاة على مولانا رسول الله بصلاة عظيمة اشتملت على أمهات الكمال المحمدية، والمَلَكَات القدسية الماثورة في تلك الذات التي لا مثل لها في النوع البشري والمَلَكي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله.

«اللهم صل على سيدنا ومولانا أحمد، المُتَرَدِّي بأردية الكبرياء وأشيعة الفردانية، المثلّم بمعاني عظمة سرادقات غيب الهوية، المتأخذ في عين الكثرة، المتكثر في عين الوحدة، الملتحف بوحشات الذات، المستوي بقدم الأحذية على عرش الصفات، المثني عليه بلسان جَمْع الجَمْع في مهام الغارات على خط قوس لسان الأزل، يَمْخِرُ الذَّاتِ بالذَّاتِ للذات في ذات، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، خط الدائرة ونقطة البروج، دفتر المثاني وقهرمان العروج، العبد الحَقَّاني، المُتَفَرِّد بلبس كمثلته شيء، الأحدي الثاني، المتلو عليه بلسان الجمع في حضرة جمع جميعه: ﴿وَلَقَدْ نَلَقْنَا الْفُرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، هيهات هيهات وما يَغْلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ، وآله وصحبه وسلم».

(١) رواه الإمام بقي بن مخلد الأندلسي في مسنده: حدثنا هانيء بن المتوكل عن معاوية بن صالح عن رجل عن مجاهد عن علي بن أبي طالب به. كما في «وسيلة الولد الملهوف إلى جده الرحيم المعطوف» لخاتمة الحفاظ الشريف عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني شقيق المصنف.

(٢) لم أجده.

[الله تعالى يصلي على من يصلي على رسوله ﷺ]

وحيث كان المصلي يصلي مرة واحدة عليه فيصلي الله سبحانه عليه بجلاله وكماله وعظمته سبعين صلاة^(١)، والصلاة من الله تعالى على قدر جلاله وإكباره، وصلاتك أنت على قدر حدوثك وقصورك وتقصيرك وجهلك وضعفك، وصلاته - جل سلطانه - على قدر عزته وعلوه وحيطه علمه.

فصلاة واحدة من الله تعالى على من صلى على حبيبه توجد في صحيفة العبد، أفضل له من ٢ / عبادة أهل الدنيا والآخرة وأهل السماء وأهل الأرض تكون في صحيفته بدون صلاة الله عليه.

هذا في صلاة واحدة يصلي عليه سبعين كما في الحديث الآخر، والسلام عليه كذلك، فكيف بمائة صلاة في اليوم، فكيف بخمسمائة في اليوم، فكيف بألف ١١؟

وإذا تيقظ الإنسان لما تلوناه وشرحناه، وعلم جلالة مركز دائرة الأنوار، انبعثت من قلبه دواعي الإكثار من الصلاة والسلام عليه، قياماً وقعوداً، وفي المنشط والمكروه، والعسر والبسر، واليقظة والنوم، وفي الأكل والبيع والشراء.

[جعل الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ من الجاه ما لم يجعله لغيره]

وقد جعل الله لسيدنا محمد من الجاه ما لم يجعله لغيره في العوالم كلها، فمن تعلق به أدنى تعلق، وانتسب إليه أدنى انتساب، وانحاش إليه أدنى انحاش؛ أخذ الخير بكلتا اليدين، وسقي من حضرة العين، وانزاح عنه الغين.

وتذكروا قضية الإسرائيلي الذي قبل اسم مولانا رسول الله لما وجده في التوراة، فغفر الله له ذنوب مائتي سنة، وزوجه سبعين حوراء.

(١) رواه أحمد عن ابن عمرو (١٧٢:٢).

والمَلِك الذي قال: وددتُ أن لو كنتُ في زمن مولانا رسول الله لنصرته
بهذه الجنود، فغفر الله له على ما كان منه .

والباغية المِسْرِفة على نفسها التي كانت تتحسّر على عدم رؤية مولانا رسول
الله كلما أرادت أن تنام، فلما ماتت أوقفها الله سبحانه بين يديه وقال لها: إنا
نستحي أن نعذب من كان يشاقق إلى حبيينا .

[الله تعالى ملأ العوالم كلها بذكرِ رسوله ﷺ]

وانظر كيف ملأ الله جل أمره العوالم كلها بالشغل به ﷺ وعلى آله، عالمَ
العزة، وعالمَ الملكوت، والعالمَ الأرضي، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

فحضرة الربوبية: حضرة العزة، وحضرة الملائكة: عوالم التقديس، وقد
ملأها سبحانه بالثناء عليه، والشغل به، وكذلك العوالم الأرضية فقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا
الْبَيِّنَاتُ صُلْبًا صَلَوَاتُ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ قَسِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهذا مجموعُ أصولِ
العالم .

وبه يُعلم أن الكثيرَ من الصلاة / ٣ / والسلام عليه: ذاكِرُ الله تعالى أيضاً،
لأن الله تعالى ما شغل هذه العوالم إلا بأعظم الطاعات، وأفضلِ القربات،
فالذاكرُ له صلى الله تعالى عليه وسلم ذاكِرُ الله تعالى حقيقةً، لأنه أمرٌ من الله
بذلك، على أنه يقول: «اللهم» .

فاكثروا إخواني من الصلاة على مولانا رسول الله ﷺ، لتكونوا أقرب إلى
الحق من كل أهل عصركم .

وفي «القشيرية»: «أوحى الله تعالى إلى كليمه سيدنا موسى على سيدنا
محمد وعليه السلام: «يا موسى، إني قد جعلتُ فيكَ عشرة آلافِ سمعٍ حتى

سمعتُ كلامي، وعشرة آلاف لسانٍ حتى أجبتني، وأحبُّ ما تكون إلي إذا أكثرَت الصلاة على محمد^(١).

وفي رواية: «أحب أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك، ومن نور بصرك إلى عينك، ومن رُوحك إلى بدنك، وأن لا ينالك عطش يوم القيامة؟!»، فأكثِر من الصلاة على محمد^(٢)، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله.

[لرسول الله ﷺ من النعم على جميع العباد ما استرقهم بها]

سيما ولمولانا رسول الله من النعم على جميع العباد ما استرقهم بها، وصيرهم، فنعمة السمع هو الوسطة فيها، ونعمة البصر، ونعمة الشم، ونعمة الذوق، ونعمة الإدراك، ونعمة السعي. فالحلُّ كُلُّهم مغمورون في نعمته، ومستفيضون من أبخرِ برزخيه، ومظاهر تكريمه، فهو القاسم^(٣) أمداد الخزائن

(١) انظر «الرسالة القشيرية» للإمام أبي القاسم القشيري ص ٦٥٧.

(٢) لم أجده في «القشيرية»، وربما هو في غيرها.

(٣) في الحديث الصحيح كما في البخاري: «إنما الله معطي وأنا قاسم» انظر تخريجه في «سفينة المحبة» التعليق رقم ٢٢.

وهنا اقتباس من صلاة كريمة للمصنف - رضي الله عنه - نصها:

«اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا أحمد، القاسم أمداد الخزائن الإلهية، على أجناد الدوائر المُلْكِيَّة، من لُجَّة قاموس بخر جودك الأعظم، الطامحة لشايب فيضه قوابل المُمَكِّنات في عالم البطون والظهور، الذي جعلت اسمه - الجامع المُفِيض ميازيب رَحَمات المطايا، الراعي برعاية الله، والحامي بحِزْرِ الله، والكالِي بكَلَامَة الله - متحداً باسمك الأعظم، الذي به انتظم أمرُ العالم، واستقام أمر السماوات والأرضين، من مُكِّ وَنَعَمِكَ. وَوَضَعْتَ في عالم التخطيط من التجلي الرحماني، صورة هيكلة الجسماني، مثلاً انطَبَهَتْ الكائناتُ أجمعُها بشكله المحمدي عزناً للسعادات الأبدية السَرْمَدِيَّة، على صورة أنموذج الأشياء من رحمة بخر حقيقة «خَلَقَ الله سيدنا آدم على صورته»، وَفَجَّرَتْ عَنْصَرَ =

الإلهية، على أجناد الدوائر الملكية، من لُجّة قاموس بحر جُودِكَ الأعظم،
الطامحة لشآبيب فيضه قوايلُ الممكنات في عالم البطون والظهور، فإذا كانت
أمدادُه للخلق بهذه المثابة، فكيف لا يدأبون في كل أوقاتهم على ذكره والشغل
به والثناء عليه؟!

سَيِّما بصلوات الطائفة الكتانية الجامعة لما تفرّق في غيرها من الصلوات،
والمصلّي بها يحبّه مولانا رسولُ الله محبةً جمعيّةً من جميع ذاته المحمدية، إذ
صلواتنا تصفُ الكمالات المحمدية وأمهاتها بالمرّة، فتنبعث من كل فضيلة في
الذات المحمدية محبةً وتوجّه خاصّ لمن أثنى عليه بها، ضرورة أن الكرام إذا
/٤/ مُدِّحُوا أَجْزَلُوا الْعَطَايَا وَالْمِنْحَ.

فعمّروا إخواني أوقاتكم وأنفاسكم بالتعلّق بمولانا رسولِ الله ﷺ التعلّق
الخاص، حتّى لا تُرَدَّ لكم طَلِبَةٌ، ولا يُسَدَّ في وجوهكم باب، ولا يغسّر عليكم
مأرب سماويّ أو أرضي، لما أن الجاءَ عظيم، والبحرُ فيّاض، والمددُ واسع،
والكرمُ عميم، والجودُ طمّ:

إنسانَ عينِ الكونِ سرُّ وجودِهِ ياسينُ إكسيرِ السعادةِ طنه
كيف السبيلُ إلى تقصّي مَدْحِ مَنْ قال الإلهُ له - وحُبُّكُ جاها -

= موضوع مادة محموله، روح العالم، وآدم آدم، ونُقْطَةُ بَاءِ كُتِبِ الغيوبات من أُنْبِيَةِ «أنا الله»
بابِكَ الأعظم، وصراطِكَ الأقدسِ الأقوم، السابح في بحار عَظْمَةِ نُورِ وَجْهِكَ، الدال عليك
بك في جميع الحَضَرَاتِ والحَبِيبَاتِ، وَزُجَّ بِِي فِي أَرْضِ الْأَنْوَارِ، وَاخْبِلْنِي بِعَيْنَائِي عَلَى
مَظِلَّةِ الْأَسْرَارِ، وَأَشْهَدْنِي حَتَّى أَتَحَقَّقَهُ وَجَدَانًا وَعِيَانًا، وَأَغْرِقْنِي فِي عَيْنِ حَيَاةِ طَوَالِحِ سَعُودِ
حَقِيقَةِ الرِّبَانِيَةِ حَتَّى أَكُونَ بِهِ وَمِنَهُ وَإِلَيْهِ، بَلْ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ،
وَالَهُ وَصَحْبَهُ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا عَدَدَ رِضَاكَ عَنْهُ، يَا اللَّهَ، يَا اللَّهَ، يَا اللَّهَ.

وقد شرح هذه الصلاة العلامة الإمام عارف مراکش الشريف أبو عبد الله محمد ابن
المعطي الممراني الإدريسي الحسني، في مؤلف سماه «حل التلاسم في شرح صلاة
القاسم»، طبع في مصر عام ١٣٢١هـ.

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
هَذَا الْفَخَارُ، فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ
مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ
يَقُولُونَ: زِيدُوا مِنْ مَدَائِحِ أَحْمَدَ
فَجَبْرِيلُ وَالْأَمَلَاكُ فِي دَرَجَاتِهِمْ
وَحُذَامِ رَبِّي فِي السَّمَاوَاتِ كُلِّهَا
وَجُمْلَةِ أَهْلِ اللَّهِ كُلِّ بِذِكْرِهِ
وَهَلْ سَيِّدُ السَّادَاتِ إِلَّا نَبِيُّنَا
وَلَا رَافِعٌ لِلْحُجُبِ إِلَّا مُحَمَّدٌ
وَمَا الْمَصْطَفَى الْمُخْتَارُ إِلَّا مُرْفَعٌ
أَضَاءَتْ قُلُوبُ السَّالِكِينَ بِحُبِّهِ
وَمَا ذَكَرُ خَيْرِ الْخَلْقِ إِلَّا مُطَهَّرٌ
وَهَلْ تَثَبُّتُ الظُّلُمَاءُ فِي قَلْبِ ذَاكِرٍ
وَأَيُّ سَنَاءٍ مِثْلُ نُورِ مُحَمَّدٍ
وَكُلُّ حِبَا فِي الْمَجْدِ يُنَمِّحُهَا الْفَتَى
وَذَكَرُ حَيْبِ اللَّهِ لَا شَكَّ عِنْدَنَا
وَوَافِقُ أَخَا الْإِرْشَادِ يُبَيِّنُكَ نَاصِحاً
وَلِذَلِكَ إِمَامٌ لَا يُفَارِقُ سُنَّةَ
فَمَا يَرْتَعُ السُّبَّاقُ إِلَّا بِهِدِهِ

- فِيمَا يَقُولُ - يَبَايِعُونَ اللَّهَ
وَاهَا لِنَشَائِهِ الْكَرِيمَةِ وَاهَا
تَعَفُّ بِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ مُحَمَّدًا
وَجُدُّوَا وَلَا تَتَّوَا مَدَى الدَّهْرِ أَحْمَدًا
غِذَاؤُهُمْ ذِكْرُ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا
يُصَلُّونَ إِكْرَاماً عَلَى عِلْمِ الْهَدْيِ
تَوَسَّلَ لِلرَّحْمَنِ فِي مَوْقِفِ النَّدَى
أَتَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَسَيِّدًا
وَمَا مُنْقَذٌ غَيْرُ الْحَبِيبِ مِنَ الرَّذَى
وَذَاكِرُهُ أَضْحَى بِذِكْرِهِ سَيِّدًا
فِيَا حَبِّذَا قَلْبٌ يُحِبُّ مُحَمَّدًا
لَا دَنَاسَ قَلْبٍ قَدْ أَضُرَّ بِهِ الصُّدَا
تَلَالاً بِالنُّورِ الْعَلِيِّ تَوَقَّدَا
بِهِ أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ قَلْبٍ مِنْ اهْتَدَى
بِذِكْرِ نَبِيِّ فِي الْهُدَى بَلَغَ الْمَدَى
طَرِيقُ إِلَى الْجَنَاتِ فَاسَلْكَ مَجْرَدًا
عَنِ الْمَسَلَكِ السَّامِيِّ وَلَا تَكُ مُفْرَدًا
وَدَعْ عَنْكَ مَنْ أَضْحَى عَنِ الرُّشْدِ مُبْعَدًا
أَلَا يَا فَتَى فَاسَلْكَ طَرِيقاً مُؤَيَّدًا^(١)

(١) من قصيدة شهيرة للإمام الساحلي رضي الله عنه، وسيأتي ترجمته.

ولذلك وردَ أنَّ من صلى عليه في يومِ جمعةٍ بعدَ العصرِ ثمانينَ مرةً غُفرتَ له ذنوبُ ثمانينَ سنة^(١).

فاكثروا - إخواني - منها يومَ الإثنينِ وليلته، لأنَّ فيه ظهرَ هذا النورُ الأعظم، ويومَ الخميسِ وليلةَ الجمعةِ ويومَها^(٢)، ولا بُدَّ، واعطُوا المواطنَ حقَّها تكونوا من خُدامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله وأحبابه، وخاصته، واغتنموا العمرَ فقد ضاعَ سَبَهلاً.

فاذكروا اللهَ يذكركم، واشكروه يَزيدُكم، وخافوه يؤمِّنكم، وارجوه يُنلِّكم، واسألوه يُعطِكم، وتادَّبوا عندَ ذكره يُجِلِّكم، وقوموا عندَ أمره ونهيه يرفعكم على أقرانكم، واطمَّحُوا لوجهتكم إليه يُشهِدكم ويُطِلِّعكم على ما عنده، وأخلصُوا أعمالكم إليه وحده يَكفِّكم شرورَ أنفسكم، وإنَّ اللهَ بكم لرؤوفٌ رحيم، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

انتهت



(١) رواه الدارقطني من غير قوله بعد العصر، وحسنه المراقي، كما ذكره شيخنا العلامة عبد الله ابن محمد الغماري الإدريسي في «النفحة الإلهية في الصلاة على خير البرية». وورد بمعناه عند ابن بشكوال عن أبي هريرة مرفوعاً، كما ذكر الحافظ السخاوي في «القول البدیع في الصلاة على الحبيب الشفیع» ص ٢٨٤.

(٢) يوما الإثنين والخميس تُعرضُ فيهما أعمالُ الأمة على رسول الله ﷺ، أما يوم الجمعة وليلته فيستحب فيهما الإكثارُ من الصلاة على رسول الله ﷺ، كما وردت بذلك كله الأحاديث الكثيرة، فناسب أن يكثر المرء فيها من فعل الخيرات بالأخص الصلاة على مركز الخيرات وأُسُها رسول الله ﷺ وعلى آله.

النفاثس الكتانية

٦

وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى
وكلامٌ في وجوب التزام الأدب

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

عدم مخالفت كنسج وعدم زلا معتدلا بما ثابته معتدرا به وهو الخ (البدل)
 لا احتياج من مثل هذه السلطة والحد السلطاني كما يعرفه عند هم
 في هذه الايام فهو يستحق تلك العزيمه وهجرت وحدث احد اى
 وكذا تيجرات ما مثل العزيمه وروى عن السلطه وهجرت قنبل
 القوم وانه ريلكن اربابا هلا يدافع من بيته ولحقه لا يقبل اريد
 سبحانه على العزم من نفسه على ان لا يتصور ان يعين في المؤمنين
 على ان لا يتصور ان لا يكون له علم والى الكتاب والى العزمه وحمل على
 وجهه لا تسلم العليم واخلاقه حقيقه ومثل هذه حقيقه وعلمه
 زنه سبحانه كان خيرا له ان هو تشي من اشكال الدين والى حقيقه
 دينه ومجاد شرعه والى كتاب هذه البقيه التيقظ والى السلام
 معرفة الارض ومنها الغرب والى السلطه والى عزمه لا يستحق
 مستحق ارجنى ببحر هالاه من بنيه الاسلام اليوم وليست حقيقه
 ليكن في هذا العهد الاسلامي وفردا بظهوره لئلا يكون له
 كما عظمه له ببقاه البقاء بالدين بنيه هذا الارض من اهل الاسلام
 وعدم استخفاف بل عدم والى انزعج انقلاب العلم جهلا ومنه احد
 من الله وكما القوم يعرفون والى السلام

سيهالسم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صلّ وسلم وبارك على مُتَّبَعِ اللطاف، وعلى آله وأصحابه المُرتَفِعِينَ على الأعراف.

من محمدٍ إلى إنسانٍ عين الزمان، بل عين إنسانٍ نوع الإنسان، وسَنَدِ الليالي المُضْمَرِ في خاطر الدهر، بل نَذْرُها الذي وَقَّتْ به لهذا المِضَر، عالم الفضلاء، وسيد النبلاء، وجيه الدين، كريم الذات، بديع الأخلاق: مولانا وسيدنا الوالد^(١)، حفظ الله سبحانه فيكَ بغية المسلمين، وقواكَ وأعانَكَ على بَثِّ سنن سيد المرسلين، ولا عَقَمَ لجلالتك قريحة، وأبقاها يتولَّدُ منها الدرُّ واللؤلؤ، وتُوفِّي على كل البحور فيوضها المنيحة، آمين.

وأمدَّ بك الأكوان، وأعلى مكانتك على كيوان، وزادكَ من الأمداد العَطُوفية والمناحيح الودُودية، والإفاضات الرَّحْمُوتية، آمين.

ولا أبعدَ بيننا زماناً، ولا أمكنة، ولا تَغِيبُ عنا والحمدُ لله كلَّ آن، ولا في النوم، وكذلك مولاتنا وسيداتنا وشجرتنا من نُعُولٍ في المهمات على دعواتها وفي شِبهِ المضايق على تضرعاتها^(٢)، والله الواقِي العاصمُ الحافظ، وكذا

(١) انظر ترجمته في المقدمة.

(٢) هي والدة المصنف رضي الله عنها، انظر الكلام عنها في المقدمة، ولنجلها الحافظ الشيخ عبد الحي الكتاني فيها مصنفٌ خاصٌ اسمه «ترقية المريدين، بما تضمنته السيدة الوالدة من أحوال العارفين».

مولانا الأخ الذي عَزَّ نَظِيرُهُ^(١) فما وجدنا له شافعاً، زاده الله من حُسن الاستعداد، وأكمل لمولانا الوالد فيه المراد، ونفع به العباد، آمين.

أما بعد، فقد وَرَدَتْ علينا مكاتبتكم... إلخ، إلى قوله: وفيه الإخبارُ بوفادة العالمِ الحَيِّ سيدي محمد بن أحمد^(٢) للزيارة، وكذا إرسالُ سعادتك لوليِّ الله تعالى الصالح مولاي عبد السلام بن الفاضل^(٣) من أجلِ المسألة التي أُلِفَ فيها، وأن العلماءَ العارفين اختلفوا فرقتين.

[كلمتا الشهادة كلمتان متقارنتان]

والحقُّ في تلك المسألة أنها تحتاجُ إلى تفصيلٍ كبير، وأدنى ما يُقال فيها مع ضيق الوقت والشغل: أنَّ هاتين الكلِّمَتَيْنِ الشريفتين متقارنتان كما قال اليوسَفي، لا تقومُ إحداهما بدون الأخرى شرعاً وعقلاً.

(١) هو شقيق المصنف الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو الإسعاد عبد الحَيِّ بن عبد الكبير الكتاني الحسني، صاحب «فهرس الفهارس» و«التراتب الإدارية في الحكومة النبوية» وغير ذلك. ولد عام ١٣٠٣، وتوفي فجر الجمعة في ٢٨ من ربيع الثاني عام ١٣٨٢.

(٢) محمد بن أحمد العلوي الإسماعيلي الحسني، العلامة الكبير فاضلي مكناس، الفقيه النوازلي المحدث المشارك المتضلع، من تلامذة وأتباع المصنف رضي الله عنه، والدعاة إلى طريقته، له مؤلفاتٌ كثيرةٌ منها شرحُ عليٍّ همزية ابن زيدان في السيرة النبوية في مجلدين، وشرحان لأول وآخر حديث في البخاري، ونوازلُ فقهية في مجلدين، وغير ذلك، توفي يوم الجمعة ٢٨ محرم الحرام ١٣٦٧.

(٣) هو العالم المجاهد الصالح عبد السلام بن الفاضل العلوي الحسني، من خواص أتباع المؤلف - رضي الله عنه - قام بالجهاد ضد الاستعمار ثلاثاً وعشرين عاماً لم يتمكنوا منه إلا بعد أن أحاطوه بالطائرات والدبابات، فاستسلم، ولزم العبادَة إلى أن توفي في مكناس عام ١٣٦٨، وهو من خاصة المؤلف - رضي الله عنه - الذين قاموا بالجهاد ضد الاستعمار، هو ومحمد بن حمو الزياتي، والزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، وغيرهم، بالأخص الأولين، وكذلك قام بالجهاد الإمام أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العيين الشنقيطي الإدريسي الحسني، وكان من أصدقاء المصنف - رضي الله عنه - لا من أتباعه، وبا حبذا لو يقوم بعض الأفاضل بالتأريخ لهؤلاء المجاهدين رضي الله عنهم وتقييد سيرهم.

أما شرعاً: فلأن الإيمان لا يُقبل من أحد اليوم إلا بمجموعهما، ألا ترى أن من لم يؤمن بسيدنا محمد ﷺ فهو كافر، وإن وُحِدَ الله أو لم يوحد فهو كافر وإن آمن بالرسول^(١) ١٢ ولأجل هذا التقارن يُكتفى بالأولى كثيراً، نحو: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٢).

وأما عقلاً: فلأن الأولى مادة للثانية، والثانية مظهره للأولى، وبيان ذلك: أن الألوهية عنها نشأت [الرسولية وظهرت]، فكانت الأولى مقتضية للثانية، باقتضاء السبب للمسبب، والثانية مقضية للأولى على العكس.

إلا أنه قد عُلِمَ من استقراء سنة الله سبحانه في كتابه أنه لا يذكر نعتاً من نعوته تعالى إلا وقرن معه نعتاً من النعوت المحمدية، هذا على [العموم] في كل رتبة، حتى قارن رسالته بالألوهية في: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأمر أن يُشغَلَ بها العمر، وأمر أن يُعلنَ بها في أوقات الصلوات كل يوم، واستحبَّت السنة أن يكون المؤذن على محل عالٍ زيادة في الإعلان بها والاستماع، وأن يكون صيماً زيادة في الإذاعة بها^(٣)، شرفها الله وأدام أنوارها، آمين، وأظهر أنوارها على الأديان / ١ / كلها إنه قوي متين.

وحتى ذُكِرَ ذلك في النعوت التي لا يمتري أحد أنه سبحانه مستبذ بها جلال الربوبية، فلا يُقرن معه غيره، كإفضاله تعالى وتفضله على خلقه وإغنائه لهم

(١) انظر هذا الكلام وانظر كلام بعض المرجفين من مدهي العلم في هذا الزمان الذين يدعون أن اليهود والنصارى ليسوا كفاراً.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٣: ٥، ٢٤٧) عن معاذ رضي الله عنه، وأبو داود (٣١١٦).

(٣) استنبط الفقهاء - رضي الله عنهم - ذلك من حديث أحمد (٤٣: ٤)، والدارمي (٨٦٩: ١) وأبي داود (٣٣٧: ١)، والترمذي وصححه (٣٥٩: ١)، وابن ماجه (٢٣٢: ١) عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري عن والده عن رسول الله ﷺ، وفيه: «فألقها إلى بلال - أي صيغة الأذان - فإنه أندى وأمد صوتاً منك، ومره ينادي به».

وإنعامه عليهم، فظاهر هذه النعوت أن لا يقرن معه سبحانه غيره، بل ربما هذا لا يقوم ببال أحد أنه يقرن معه تعالى غيره في مطلق النعوت فضلاً عن هذه.

[ما ذكر الله نعتاً من نعوته تعالى إلا وقرنه بنعت من نعوت حبيبه ﷺ]

ولما قال الخطيب: «ومن بعضهما...»، قال مولانا رسول الله ﷺ: «بشر الخطيب خطيبكم»^(١)، فهذا هو اللائق بمرتبة العبودية، وهو الذي فعلت الحضرة المحمدية.

ومع هذا الكمال - مكانة حضرة المحمدية وشرفها - ابتكر سبحانه هذا المورد، وما ذكر نعتاً من نعوته إلا وقرن معه نعتاً من نعوت حبيبه إيداناً بأن نكون نحن هكذا، حتى ذكر النعوت التي قلنا إنه ربما يخطر بالذهن أنها لا تقرن، فقال: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]... وهكذا.

[قرن الله تعالى اسمه باسم حبيبه ﷺ تشريعاً لنا]

فلما علمنا هذا من سنة الحق جلّ سلطانه تأكد على الخلق تأكداً تاماً، وطلب منهم طلباً حتماً أن يتقظوا لهذا الإجلال وهذا التشریف الذي شرف به سبحانه نبيه وحبيبه ومصطفاه، ويكونوا على أهبة ويقظة كلما جرى ذكر ربهم جلّ أمره وذكره إلا ويهرعوا ويذكروا نبيهم، إن ذكرت النعوت فتذكر النعوت، أو الأوصاف فتذكر الأوصاف، أو الاسم فيذكر الاسم، أو الثناء المطلق فيشكر.

(١) أخرجه أحمد (٢٥٦: ٤، ٣٧٩)، ومسلم (٨٧٠)، وأبو داود (١٠٩٩، ٤٩٨١)، والنسائي (٩٠: ٦) عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه، وغيره.

مولانا رسول الله ﷺ، لأنه الواسطة في جميع النعم الدينية والدنيوية، المُلْكِيَّة والمَلَكُوتِيَّة، الأوليَّة والآخريَّة، الدنيويَّة والآخرويَّة.

ما أرسل الرحمن أو يُرسل من رحمة تصعد أو تنزل
الآيات^(١).

وهذا القرآن الكريم أفصح عنه غاية الإفصاح حتى لم يدع لأحد مساعاً في هذا البساط إلا والعمل عليه، والقيام بمشروعته، والتحفظ على سنته تعالى في كتابه، فإنه قارن براءته براءة حبيبه ونبيه ومحمّده صلى الله عليه وعلى آله، ومُحَادَّته بمُحَادَّته، ومُحَارِبَتِهِ بمُحَارِبَتِهِ، ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا قَدْ تُوْا يُحَرِّبُ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، والإيمان به بالإيمان به، وقارن رضاه برضاه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، واستجابته باستجابة رسوله ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

[ما فرض الله سبحانه فريضة إلا وسنَّ ﷺ سنة أو سُنَّاً]

ولِيُنْظَرَ فإنه سبحانه ما فرض فريضة إلا وسنَّ ﷺ سنة أو سُنَّاً، ففروض الصلاة من جانب الحق سبحانه وسُنَّتها من جانب الرسول صلوات الله وسلامه

(١) وهي للإمام أبي عبد الله البكري رضي الله عنه ونص المراد منها:

ما أرسل الرحمن أو يُرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في مَلَكُوتِ الله أو مُلْكِهِ	من كل ما يُخْتَصَر أو يُشْتَل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مُخْتَارَه المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يَعْلَمُ هذا كل من يَعْقِل

وقوله: واسطة، هو معنى: القاسم، وقوله: أصل لها، لأنه رحمة للعالمين كما ذكره تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

عليه، بل سُنَّ الصلاة أكثر من فرائضها: ففَرَضَ سبحانه الفاتحة، وسُنَّ رسوله القيام لها، وسُنَّ / ٢ / السورة وسُنَّ القيام لها، وسُنَّ صَفَتَهَا من سرٍّ وجهرٍ.

وفرض سبحانه تكبيرة الإحرام والقيام لها، وسُنَّ الرسول تسع عشرة تكبيرة في الرباعية والتشهدين والجلوسين إلا الذي فيه السلام يحصل، وسمع الله لمن حمده... وهكذا.

وهذا القدر هو المنصوص عليه صراحة في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وفسرها سبحانه بأنه لا يذكر إلا وذُكِرَ معه حبيب كما هو مأثور في التفسير الطوال والمختصرات: الإمام ابن جرير، وابن أبي حاتم، والشافعي في «الأم»، وسعيد بن منصور في «سننه»، والبتوي، وابن كثير، و«الدر المثور»، والفخر الرازي، والمختصرات، كالبيضاوي، و«الكشاف»، والخازن، والجلالين، والشرييني، و«عرائس البيان ومقاصد القرآن» لملك الهند العلامة^(١)، و«الشفاء» وشروحها، وقد استوفينا نصوصهم في «لسان الحجة»^(٢).

[هذا الاقتران إما أن يُقال: إنه جازم، أو غير جازم]

فإذا عُلِمَ هذا وتحقَّق به المتحقق أيقن أن القرنَ بين الكلمتين المشرفتين متأكدٌ ومتحتم، واقتضاء الحق سبحانه من المؤمن المكلف اقتضاءً جازماً.

لأنه لا جائز أن يُقال إنَّ هذا المطلب الشريف، إما أن يُقال: اقتضى من الخلق اقتضاءً غير جازم، بأن جَوَّزَ ترك الفعل، وهذا حدُّ الندب، والمندوب والفضيلة والرغبة والمستحب والتطوع والسنة: أسماء مترادفة عند الجمهور من

(١) يعني به صديق حسن خان البخاري القنوجي (ت ١٣٠٧هـ). الناشر.

(٢) واسمه كاملاً: «لسان الحجة البرهانية في الذب عن شمائر الطريقة الكتانية»، طبع طبعة حجرية في فاس، ثم في بيروت سنة ١٣٢١ هجرية، ويقع في حوالي ٣٠٠ صفحة.

أهل الأصول كما في «جمع الجوامع»، قال: «خلافاً لبعض أصحابنا». قال الأزهرى في «الشعر البائع» في شرحه: «وهو القاضي حسين، وتلميذه البغوي، والخوارزمي تلميذ البغوي، فإنهم بينها فقالوا: السنة ما واطبَ عليها ﷺ، والمستحب ما فعله مرة أو مرتين، والتطوع ما لم يرد فيه بخصوصه نقل، بل يفعله الإنسان ابتداءً باختياره كالنوافل المطلقة، وهذا مذهب الفقهاء أيضاً، فإنهم فرقوا بين هذه الأسامي».

فعلى هذا الاقتران اقتضي من الخلق اقتضاء غير جازم، فهذا يقتضي أن هذا القرآن بين «محمد رسول الله» و«لا إله إلا الله» سنة ومندوب وتطوع ومستحب عند الأصوليين.

أو يقال: اقتضى الخطاب الإلهي تركه جازماً بأن لم يجوز فعله، وهذا حد التحريم، لكن لا ينطبق على هذا، وإذا كان تكرار النطق بـ «محمد رسول الله» مع الكلمة المشرفة حراماً مع أنه ﷺ الدليل الحقيقي إلى الله تعالى، ولولاه لما عُرِفَ رَبٌّ مِنْ مَرُئُوبٍ، ولا إله من مألوه، ولا خالق من مخلوق، ولا عُرِفَتْ أصول التوحيد ولا الأصول التي / ٣ / عليها صلاح العالم، ولا الفروع التي يتعبد بها، ولبقي الخلق في وخشة الجهالة هائمين، فما بقيت قرينة يقرب بها إلى الله تعالى، لأن تكرار ذكره إذا كان حراماً فلا جائز أن يكون ما انتشر عن جلالة من الأحكام كله مُبَعَّدٌ عن الله تعالى، وليس بمقرب، مع أنه ما عُرِفَتْ المسائل المبيدة من الله تعالى والمسائل المقربة منه إلا منه صلوات الله وسلامه عليه.

وإما أن يقال: إنه اقتضاء غير جازم بنهي مخصوصي بالشيء، وهذا حد المكروه، وهو أيضاً لا ينطبق على هذه المسألة الشريفة، لأن التسنن بسته سبحانه وتعالى في دوام قرين نعوته بنعوت حبيبه وكمالاته سبحانه بإفاضة تعالى عليه يقتضي أنه لا يمكن للخلق ولا يجوز لهم فعل غيره، وغيره هو عدم الاقتران أولاً أو عدم العلم به ثانياً، حتى يُظَنُّ أن هذا الاقتران من الخلل في التوحيد.

وَجُلٌّ من يتكلم في هذه المسألة لا يستحضر المقارنات التي في القرآن العزيز من أوله إلى آخره وكلام المفسرين جُمْلَةً عليها، والمُسْتَكْفُ من قبول هذا التشريف الإلهي لنبیه ﷺ ربما يُوجب عدم الإيمان بـسُتين آية قرآنية، هذا في خصوص المقارنات في النعوت.

وأما دلالة الحق سبحانه على متابعتة ﷺ وعلى آله، والوقوف عند أمره والرجوع إليه وردّ الأمور كلها إلى علمه، وتحكيمه ﷺ في جميع ما شجر بين المكلفين، وأن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى ويسلموا تسليماً، بل جعل سبحانه وتعالى أن الخلق لا يؤمنون حتى يكونوا هكذا، وأقسم على ذلك، فالقرآن كله طافح بذلك، إلا أن جُلَّ الخلق صار القرآن عندهم اليوم ليس حتى في رتبة القول الضعيف المرجوع إليه في أوقات الضرورة، وهذا من أسباب سَخَطِ الله على العباد، اللهم إنا نعوذُ برضاكَ من سخطك، وبمعافاتِكَ من عقوبتك، وبِكَ منك لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك.

وإما أن يُقال: إنه اقتضاء غيرُ جازم، بغير نهْيٍ مخصوصٍ بالشيء، بأن يكون النهْيُ في ضمن الأمر بضده كما في مسألة: أن الأمرَ بالشيء نهْيٌ عن ضده، أو يستلزمه على الخلاف، فـخِلَافُ الأولى، وقد جعل الفقهاء خلافَ الأولى واسطةً بين الكراهة والإباحة، وهذا الحد لا ينطبق على ما نحن فيه أيضاً بوجهٍ من الوجوه، لأنه لا رائحةُ / ٤ / نهْيٍ في الباب، إنما في الباب الأدلة المتكاثرة على دوام الاقتران، حيثما ذُكِرَ الحق سبحانه يُذكر نبيه معه، وهو معنى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وإما أن يُقال: إن المكلف خَيْرٌ بين فعله وتركه، وهو من الإباحة، فيكون مباحاً، وهذا لا يقتضيه الخطابُ الإلهي المتنوع في ألف موضع من القرآن وأزِيد.

فإليك أيها الأبيُّ الآن: الخيرةُ بين أن تقول إن هذا القرن يكون مكروهاً، أو حراماً، أو مباحاً، أو خلاف الأولى، ويَطُلُّ الأول والثاني والثالث والرابع،

فلم يبق إلا التأكد والتحتم وعدم الغفلة عن ذكر نبيك ﷺ وعلى آله حيثما ذكر ربك جل سلطانه.

[الأحاديث الحاضرة على ذكر رسول الله ﷺ]

والصلاة عليه في كل مجلس]

ثم إن صريح الأحاديث المنذرة بأنه ما جلس قومٌ مجلساً فلم يذكروا الله تعالى، ولم يصلوا على حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة^(١)، يقتضي أنه مهما ذكّرت الهيلة في مجلسٍ إلا وتذكر: «محمدٌ رسول الله»، وهو شرطٌ مؤكّدٌ لا يقال إنه عين الكمال فقط؛ بل هو شرط.

وقد خرّج الأحاديث المؤكدة لهذا الإمام أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رَفَعَهُ: «ما قعد قومٌ مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»^(٢)، وقد خرّج هذه الأحاديث المُنْثَلِي عبد العظيم المنذري في «الترغيب والترهيب» ولم يتيسر الآن جلب ما فيه جميعه، فليراجع.

وهذا هو دليل الإمام السّاحلي^(٣) في قوله:

(١) أخرجه أحمد (٤٤٦: ٢)، ٤٨١، ٤٥٣، ٤٨٤، ٤٩٥، والترمذي (٣٣٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤٦٣: ٢)، والترمذي (٣٣٨٠)، وابن حبان (٥٩١)، والحاكم (٤٩٢: ١).

(٣) الإمام الولي العارف بالله أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري المالقي السّاحلي (ت ٧٣٥هـ)، طلب العلم وسلوك، وكان مقبلاً على نفسه، مستوعباً ضروب الخير وأنواع القرب، وخطب الناس بمالقة وغرناطة، عمي بعد السبعين وصبر، وله كتاب «الحجة في رسوم المحجة» وشعرٌ كثير. ترجمته في «الدرر الكامنة» (٣: ٣٢٢)، و«نيل الابتهاج» ص ٢٣٤-٢٣٥، و«الإحاطة» لابن الخطيب، وغيرها. الناشر.

وَصِلَ بَيْنَ ذِكْرِ الْمُصْطَفَىٰ وَاللَّهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْسِيَ نَبِيَّكَ فِي الدَّفْرِ
فَمَا فَازَ مَنْ قَدْ فَارَقَ الْبَدْرَ لَمَحَةً وَهَلْ فَازَ إِلَّا مَنْ تَمَسَّكَ بِالْبَدْرِ
تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ الَّذِينَ تَفَرُّغُوا لَخِدْمَةِ هَذَا الْمُصْطَفَىٰ كَأَبِي بَكْرٍ
فَمَا فَارَقَ الصَّدِيقُ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَفْرَادِ كَالْكُوكَبِ الدُّرِّيِّ
وَمَا نَالَ تَصَدِيقًا بِغَيْرِ حَبِيبِهِ فَذَعْ قَوْلَ بِدْعِي تَدْنُسَ بِالْوِزْرِ

فجعل عدم إيمان قول: «محمدٌ رسول الله» مع الهيلة من قول أهل البدع والمتدنسین بالأوزار، وقد سلمه جمع، ومنهم المحقق^(١) في شرح «المرشد» مقتصرًا عليه، إلا أنه جعله عين الكمال، والحديث المذكور حيث تُوعَدُ علينا بخصوصه اقتضى أن تركه معصية، فهو شرط في كل مجلس. وأما حيثما ذُكر سُبحَانَهُ فهو الاستدلالات العوالي التي قدمناها أول تحرير المسألة، فأول المسألة كان استدلالاً عالياً على العموم، وآخرها صار استدلالاً نازلاً على الخصوص.

[التشديد على من خالف هذا الأمر]

وكما وصف المخالف الساحلي بالابتداع، وصفه الإمام السنوسي أواخر «شرح الصغرى»^(٢) بأنه: ضالٌّ وقائلٌ كلمةً قريبةً من الكفر أو هي الكفر بعينه، ووصفه بأنه: قال كلمةً لا عُقبَى لها إلا دارُ البوار، وأنه آيلٌ / ٥ / إلى انحلال رِبْقَةِ الدِّينِ مِنْ عُنُقِهِ، لأنه يتدرج من هذا إلى القول باستغناء العقل وإرشاده عن إرشادات صاحب فَلَكَ الرِّسَالَةُ، ومن هنا ضلَّ المعتزلة حيث حَكَمُوا الْعَقْلَ

(١) انظر «الدر الثمين والمورد المعين» في شرح المرشد المعين» في فقه مالك، للإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أحمد مَيَّارَةَ الْفَاسِي، رحمه الله تعالى، ص ٥٤.

(٢) انظر «شرح أم البراهين» للإمام الشريف أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله تعالى، ص ٩٠.

واستغنوا عن إرشاد الشارع، وضلّ الفلاسفة وتهافتوا على الجحيم حيث حكموا آراءهم أيضاً ولم يلتفتوا لما بيّنه الشرع الكريم.

[حال أغلب من خالف في هذه المسألة]

وقد جرّبتُ كلَّ من يُحاك هذه المسألة أنه ليس للسنة وقعٌ عظيمٌ في قلبه، أعني ليس له كبيرٌ بحثٍ في علم طُرُق السنة أولاً، وتتبعُ مظانها في العمل بها ثانياً، والتحصُّرُ على ما فاته من العلم بها ثالثاً، والعملُ بها رابعاً، وحملُ الناسِ على علمها والعملُ بها خامساً، وقل من تجده يُحاكك في هذا الباب إلا وهو هكذا، ولا تجدُ شخصاً يُحاكك في هذا إلا وتجد أعماله غير مُعتدّ بها لأنه ليس له سريّانٌ محمديّ في جواهر أحواله حتى تصلح لأن تُدرجَ مدرّجَةُ القبول، وتجد العُسرَ محيطاً به دائماً لعدم تعلُّقه بمولانا رسول الله ﷺ وعلى آله التعلُّقُ الخاص.

إذا التعلُّقُ الخاصُ به ﷺ وعلى آله يتجّ ما لا تنتجُه كثرةُ الأعمال الصالحة مع عدم الانتماء لمركز دائرة الأنوار الانتماء الخاص، إذ ليس في الوجود من له الحلُّ والربطُ والنقضُ والإبرامُ إلا مولانا رسول الله ﷺ^(١).

[التمسكُ برسول الله ﷺ موصلٌ إلى كل خير]

وسدنةُ عتباته منظورون نظراً لإجلالِ والإكبارِ من السماء والأرض، مرموقون من وراء الحجاب بالالطاف، مُكتنفون بالعناياتِ والرعايات، لأن الملوك - ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الباقية: ٣٧] - إذا أقبلوا على فردٍ جعلوا له علامةً يُعرفُ بها رضى المَلِكِ عنه.

(١) أي: بأمر الله تعالى، لأنه قاسمٌ والله يعطي، كما في البخاري، وهذا الباب أغفله أغلب من يقوم بالدعوة إلى الله تعالى هذا الزمان، وعليهم أن يتنبهوا له.

ومولانا جلُّ أمره جعل الانتماء للجلالة المحمدية والاستقلال بظلمها الوريث موجباً للألطف والعنايات والرعايات، فضلاً عن الاستغراق والاستهلاك والتهتك في الذات المحمدية، فإنه عنوان الوصول، وعلامة الظفر بالمأمول، وإعلان بالأمان العام من التليس والاستيلاءات الطبيعية والإلقاءات الرجيمية والاستحوادات الظلمانية، ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ولا شك أنه كلما قويت الرابطة بين المحب والمحبوب إلاً وتصل أشعات وارتباطات وعلاقة بينهما توجب كلية الاشتراك إما في الذات، أو في الصفات، أو في فعل من الأفعال، أو في حال من الأحوال، أو في رتبة فصاعداً.

ومن هاهنا صحت الاجتماعات اليقظية بالذات المحمدية لمن شاء الله سبحانه لهذا العطاء الأخص، والفيض الأقدس، والله واسع / ٦ / عليم.

ومن هنا ندب الناس قديماً وحديثاً لزيارة الأولياء أحياء ومتقلين، لأن الإنسان ضعيف زمن عن الولوج بكوات الملكوت والعتور على فسيح العظمة ما لم ينجذب بروحانية مغناطيسية وقوة قدسية في مظهر من المظاهر، ولذلك أمر سبحانه عباده بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وأمر بالكون مع الصديقين، والسلام.

[ذكرُ أسماء رسول الله ﷺ موجبٌ لانطفاء غضبِ الله تعالى]

وكثيراً ما أشعرُ بانطفاء شيء من الغضب الإلهي في العالم إذا جرى ذكرُ اسمِ موافقٍ لأسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لقبٍ موافقٍ لألقابه صلى الله تعالى عليه، لأن الأشياء كلها تهابه صلى الله تعالى عليه وآله، حتى المعاني والحضرات الكبرى، وإذا ثبت في الحديث: «ما في السماء ملكٌ إلا وهو يُوقرُ عُمر، ولا في الأرض شيطانٌ إلا وهو يَفَرُّ من عُمر»^(١).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦: ٣٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فكيف بمشرّف الجميع، حامل اللواء للوجود كلّ، وزعيم الخلائق أجمعين في النشأة الأولى الروحية، والنشأة الثانية هذه، والنشأة الآخرة، هذا في مُطلق الأسماء والصفات المشاكلة لأسمائه، فكيف بأسمائه المحمدية، أو صفاته المحمدية الساذجة، أو نعوته الأحمدية الصّرفة، فكيف بالإدمان على ذكرها، والتحدّث بها، فهو العرشُ الرحماني الذي تجلّى الله تعالى عليه بمقتضى وسع الرحمانية بوسعيته، ومن ذلك وَسِعَ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْعَالَمُ كُلُّهُ، وسعه رحمةً وأرسل رحمةً للعالمين، وهو أرجى ما يرجاه الخلائق، لا حرّما الله الرحمن سبحانه من الانغماس بتيارها، والسبح أو الإغراق في بحر زخّارها، نحن ووالدينا وإخواننا، وأبناءنا وزوجاتنا وأحبّابنا، وكل تعلقاتنا وسلطاننا، آمين، آمين، آمين.

[مسألة الأخلاق المذكورة في آية: ﴿وَسَارِعُوا﴾]

وأما مسألة الأخلاق المذكورة في آية ﴿وَسَارِعُوا﴾ [آل عمران: ١٣٣] (١)، وهل القول بوجوبها متجه أم لا؟ فينبغي أن يقال:

أولاً: إن الدّين من حيث هو لا يتنظم إلا بالاتحاد الديني ومُجران الآراء، وإلغاء مقتضى الوهم، وتحكيم الشرع في كل موارد الإنس ومصادره ومنشطه ومكرهه، وحتى خواطره وإراداته وهواجسه، ثم نرجع ونقول:

إن هذه الأخلاق الدينية إنما أمر بها الشرع الكريم لتتحد الكلمة الإسلامية الإبراهيمية المحمدية، ويصير الدين كلّ الله، ويحصل الائتلاف الديني، ومعلوم

(١) وهذه الأخلاق هي المذكورة هناك بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنُظُومِ الْفَتَى وَالْمَأُونَةَ مِنَ الْغَائِبِ وَاللَّهُ يُجِيبُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَتُوبْ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْفَعُ الْغُفُورَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُعْرِضُوا عَنْ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَسْمُوكَ ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ مَن تَتُوبُ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَعَلْتَ تَجْمِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَهُمْ أُجْرُ الْمُتَجَلِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٦].

أن القيامَ بالمشروع والتعاونَ العَصْدِي الذي عليه انتظامُ الركنِ الأعظم من الدين والإتيانَ بما أمر به الشرع وحده؛ لا يمكن إلا بالالتحاف بهذه الأخلاق، والعملِ عليها، ولو عملنا على هذه الشريعة وفهمنا سرَّ الأمر بها ما احتجنا لحاكمٍ ولا والٍ قط، إنما نعملُ على مقتضى السياسة الشرعية الأصلية /٧/ المنصوصة في محكم الكتاب المنزَّل، وهي كافيةٌ في الجمعية الدينية وتوفية الحقوق والإتيانِ بها كافية.

ولكن أُلغِيَ ذلك أولاً بإلغاء الوقوف عند مقتضى التأديب القرآني والرسالي، وتوسُّع الناس في التأويلات، وقَدِّموا بعض آرائهم على مَلَا حِظِّ القرآن الكريم، واحتاجوا للاحتجاج عليه ليروِّجوا ما احتجوا، فتُبِعوا على ذلك، فكان عليهم وِزْرُ هذا التسنن ووزر من عمل به إلى يوم القيامة^(١).

[الإتيانُ بالمشروع والتقربُ به إليه تعالى واجبٌ]

فالإتيانُ بالمشروع والتقربُ به إلى الإله جل أمره واجبٌ، إذ هو الدينُ كله، وهل الدينُ إلا الامتثال والاجتناب؟! والإتيانُ بذلك لا بد له من التعاضد والتعاون والتناصر والاعتضاد، وهذه لا تمكن إلا بصيرورة الأخلاق المحمدية مَلَكَةً للإنسان يتصرف بها أنى حلٍّ وظعن.

فصارَ تعلُّمُ الأخلاق والعملُ عليها بل الإدمانُ عليها حتى ترسخَ وثبتَ وتندبغ بها النفسُ الشرودةُ ويتطبعَ بها الطبعُ وتستحيلَ شَكَاسَتُهُ إلى تهذيبٍ وانقيادٍ واستسلام لما جاء به الشرع: واجباً شرعياً وعقلياً وطَبِيعِيّاً.

(١) أخرج الترمذي (٢٦٧٥) وقال: حسن صحيح، عن جرير بن عبد الله البجلي مرفوعاً: «من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره، ومثل أجور من اتبعه، غير منقوص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة شر، فاتبع عليها كان عليه وزره، ومثل أوزار من اتبعه، غير منقوص من أوزارهم شيئاً».

أما الشرع: فقد قررتاه من حيث إن ما لا يُتَوَصَّلُ للواجب إلا به فهو واجب، هذا لمن يُعاني التقرب إلى الله تعالى كما كان عليه السلف الصالح، وأما اليوم فالرجل إذا صلى الصلوات الخمس بدون مواعيتهما، وربما لم يختلف عليه الموطن وهو في الصلاة، فكما كان خارج الصلاة يتقلب في الكون وأربابه ويتفّح في عالم الأكدار وأنحائه، كذلك ينظر حالة المناجاة في الصلاة، وربما تكثر عليه الإلقاءات الشيطانية كما أخبر المعصوم: «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط، حتى إذا تَوَبَّ بالصلاة أقبل، فلا يزال يخطر ببال أحدكم ويقول له: اذكر كذا، اذكر كذا حتى لا يدري كم صلى...»^(١) الحديث أو كما قال.

فنجده في الصلاة أكثر مما كان في المداخلات الخَلِصَة، ومع ذلك يظن أنه لم يَتَّقِ للحق تعالى عليه حق، وتجده يشكك في الولاية ما معناها، وهل هي زائدة على ما قلناه فيفضل في بحار الأهواء، ونسئ في أمواج الغفلات، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. قال سيدنا أنس: «بعد ما أسلمنا ستة عشر عاماً وظَهَرَ فينا شيء من المزح خوطبنا بهذا الخطاب».

وهذا وهم بين ظهрани شمسي النبوة وقمر / ٨ / الرسالة صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ورضي عنهم وعنا وأصحابنا بهم، آمين.

فكيف بنا وقد بَعُدْنَا عن زمن النبوة والقرب منها مكانة؟! فعونك يا حليم، لطفك يا عفو يا عظيم، يُرجى لكل عظيم.

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩) وأحمد (٣١٣: ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[الدليل العقلي على وجوب اكتساب الأخلاق]

وأما العقل - أي من الدلالة الدالة على اكتساب الأخلاق ووجوب ذلك عقلاً - أن العقل يقتضي بطريق الاستمداد من الشرع أن معاملته الناس معاملة واحدة بِطَرِزٍ واحدٍ ليس كما يقتضيه النهي والعقل، فلا بد من اشتات المعاملات حسب المناصب والمنازل والمكانات، وهذا يقتضي صحة روحانية ومَلَكيَّة مُقتبسة من أنفاس الشرع تدل الإنسان على مهايج السعادات ومواردها، والطرق التي تُسلك معها، والطرق التي تنداس وتهجر، ولا يُتلقى من الشرع في هذا الباب إلا قوله: «إن هذا الدين دينٌ استخلصته لنفسِي، ولن يُصْلِحْهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحَسَنُ الْخُلُقِ، فزَيَّنُوهُ بِهِمَا»^(١)، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله جلَّ سلطانه: ﴿وَقُلْ لِمَا بَوَى يَقُولُوا أَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومعاداة الشيطان واجبة بالإجماع، ومناقشة النفس كذلك، كما في «الإحياء» في آخر السُّفَرِ الأخير بعد كتاب المراقبة أو فيه، وليس هو عندي هنا حتى أراجع، و«القشيرية» مملوءة بهذا.

وفي أول الطبقات: «فلان كان يحمل أهل عصره على التوبة على الأنفاس، فأخرجوه من البلدة»^(٢)، وهذا مبسوط غاية البسط في كتاب «الإحياء» في كتاب التوبة فليراجع، وأما اليُوسُيُّ فلم أجد فيه الموضع الآن مع البحث الطويل وشغل البال.

(١) قال الحافظ المراقبي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤٩: ٣): «رواه الدارقطني في كتاب «المستجد»، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»، من حديث أبي سعيد الخدري، بإسناد فيه لين».

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ص ١٣، للإمام الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه، والمقصود بـ: فلان، الإمام سهل بن عبد الله النسري رضي الله عنه.

[دليلُ الطبعِ على وجوب اكتساب الآداب]

وأما الطبع : فإذا كان تحتَ وازع العقل ، والعقلُ تحتَ وازع الشرع ، حُكِمَ الطبعُ على الإنسان ، من حيثُ إنه مدّئس الطبع ، لا يقومُ بأموره بنفسه ، بل لا بد له من خلائفَ يعينونه في مصالحه الدنيوية الضرورية ومعاملتهم له .

أما بعدَ علمهم هذا البابَ فتكون من هذا القبيل : حرصاً على الألفة الدينية وتوصلاً لاتحاد الكلمة الإسلامية ، وإن كانت بدون علمٍ كانت بالفطرة ، والفطرة من حسن المَلَكاتِ أيضاً ، وذلك وسيلةً للألفة ، والطبعُ يقضي أن من تسبَّب في قضاء أوطارك الضرورية أنك تحبه لإبقائه على حفظ حياتك في العالم الشَّهادي .

[خاتمةٌ في سبب الاختلافِ فيما ذُكِرَ من المسائل]

وهذه أدلةٌ ضروريةٌ يُنتَفَعُ بها في الباب ، ومُخْرَاجُ طريق السَّلَفِ وعدمُ / ١٩ / مطالعة كتبهم ، وعدمُ الاعتداد بما كانوا يعتدّون به هو الذي ألجأ للاحتجاج على مثل هذه المسألة ، وإلا فالسلفُ لم يكن معروفاً عندهم غيرُ هذا ، إلى أن تُنَوِّسَتْ تلك الطريقة ومُجِرَتْ ، وحدث أحداثٌ وطرأت تغيراتٌ ما مثَّلَ الطريقَ ووعرَ المسلك ، ومُجِرَتْ كتبُ القوم ، وصار يُلمَزُ أربابها بأنهم صوفية ، ولَعَمْرِي لا يقبلُ الله سبحانه عملاً ليس مؤسساً على نظام التصوف الحقيقي المؤسس على نظير الشرع ، الذي محصوله : علمٌ واسعٌ بالكتاب والسنة ، وعملٌ على وفق الاتساع العلمي ، وإخلاصٌ حقيقيٌّ ومشاهدةٌ حقيقية ، وعبادةُ الله سبحانه كأنك تراه ، الذي هو شطرٌ من أشطار الدين ، والله محيي دينه ومجدِّدُ شرعه .

وأظن أن هذه البقية التي بقيت في الإسلام مفرقةً في الأرض ، ومنها المغربُ والسلطنة العثمانية ، لا يستولي مستولٍ أجنبيٍّ يمحوها ؛ لأنَّ هي بقيةٌ

الإسلام اليوم، ولأن مُجِيتَ لَيْلَزَمَنْ تَخَلَّفَ الحفظ الإلهي في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ
 نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أي بقاء البقايا الدينية في الأرض من
 أهل الإسلام، وعدم استئصالهم بالعدو، وإلا لَزِمَ انقلابُ العلم جهلاً. ومن
 أصدق من الله حكماً لقوم يوقنون. والسلام^(١).



(١) قد ذهبت دولة الخلافة العثمانية ومضى على ذلك ثلاثة أرباع القرن، وتدهورت أحوالُ
 الأمة المحمدية، لكن لا تزال طوائفُ ثابتين على الحق لا يضرُّهم مَنْ خالفهم حتى يأتي
 أمرُ الله، كثَرهم الله، والله يتولى المؤمنين. الناشر.

النفاثس الكتانية

٧

الإجازة الطرقة وشروط وأركان الطريق

تأليف

الإمام أبي الفيز محمد بن عبد الكبر الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

«رَأْسُ الْعَقْلِ مَخَافَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» «مِلَاكُ الدِّينِ الْوَرَعُ»

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الأحمدى الكتاني إلى أخينا في الله تعالى،
ومحبنا من أجله، الساعي في تزكية نفسه بالكون مع الصادقين أهل الله، الذين
مَنْ التَجَأَ إِلَيْهِمْ وَمُنَّعَ بِالْكَوْنِ مَعَهُمْ فُتِحَتْ لَهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الرَّحْمَاتِ، وَزُفَّتْ لَهُ
عَرَائِشُ الْمَعَارِفِ الْإِمْتِنَانِيَّةِ، وَأَذْرَكَ فِي الزَّمَنِ الْيَسِيرِ مَا لَمْ يَشُمَّ لَهُ رَائِحَةُ مَنْ
تَقَاعَسَ عَنِ الْكَوْنِ مَعَهُمْ وَلَوْ بَلَغَ فِي التَّشْمِيرِ، وَلِيَ اللَّهُ تَعَالَى: سيدي العربي ابن
محمد الدُّكَّالِي الحَمَزَاوِي^(١):

سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ

أما بعد: فقد آذَنَّاكَ فِي طَرِيقَتِنَا هَذِهِ الْأَحْمَدِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الصَّدِيقِيَّةِ الْكَتَانِيَّةِ،
الْمُضْمُونِ لِلْمُذْمِنِ عَلَيْهَا أَنَّهُ لَا يَمُوتُ إِلَّا عَلَى أَكْمَلِ الْحَالَاتِ، وَنَاذَنَّاكَ فِي
تَذْكِيرِهَا لِلغَيْرِ مَعَ شُرُوطِهَا.

[شُرُوطُ الطَّرِيقَةِ الْكَتَانِيَّةِ]

لِإِذَا أَنَّ لَهَا شُرُوطاً عَامَةً، وَشُرُوطاً خَاصَّةً:

(١) العربي بن محمد الدُّكَّالِي الحَمَزَاوِي، لَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى تَرْجُمَةٍ.

[الشروط العامة]

أما شروطها العامة: فالطهارة، واستقبال القبلة، وعدم الكلام، والجُني على الرُّكبتين، وخصوصاً عند السلام، والأنموذجية، والقاسم^(١).

فإن مولانا رسول الله ﷺ يحضر بيعة ذلك عندنا في الورد مرتين^(٢)، مرة عند السلام، ومرة عند «الأنموذجية»، و«القاسم» آخرًا، كما هو مشهود لأهل البصائر وأهل الجِدِّ من أصحابنا، وهي من أعظم مفاخر هذه الطائفة الكتانية.

ومن شروطه العامة: نفْيُ الخواطر الظلمانية التي تمنع وصول المدد للذاكر، ومن لم يجد الماء يتيمم عند الشروع في الورد، وعند السلام، وعند «الأنموذجية»، يتيمم ثلاث مرات في المواطن المذكورة إجلالاً لذكر الله سبحانه، وإكراماً لرسوله الأعظم، أضعف الطهارة الترابية.

واعلم أخي أيضاً أنَّ طريقتنا هذه لها أركانٌ ومباني:

(١) المقصود بالسلام قوله في الورد: «السلام عليك يا عين الميون، السلام عليك يا روح الأرواح، السلام عليك بلسانِ ﴿إِنَّ أَلَيْسَ بِبَاطِلٍ إِذَا بَيَّأْتُمْ أَنَّهُ﴾» [الفتح: ١٠]، أما الصلاة الأنموذجية، والقاسم، فهما صلاتان على النبي ﷺ، للمؤلف رضي الله عنه، أما الصلاة الأنموذجية فقد شرحها المؤلف رضي الله عنه شروحاً كثيرة، أعظمها: «غيبته الكون». وشرحها غيره من أئمة أتباعه، ونصها:

«اللهم صلِّ على سيدنا ومولانا أحمد، الذي جعلت اسمه متحداً باسمك ونعتك، وصورة هيكله الجسماني على صورة أنموذج حقيقة «خَلَقَ اللهُ سَيِّدَنَا آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، وَفَجَّرَتْ عَنْصَرُ مَوْضُوعٍ مَحْمُولَةٍ مِنْ أَيْتَةِ «أَنَا اللهُ»، بل حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده، وآله وصحبه وسلَّم».

أما القاسم فنقلنا نصها في تعليقاتنا على «الرسالة إلى أهل سلا».

(٢) انظر كلام المصنف في «سفينة المحبة»، على حديث «أنا جليس من ذكرني»، وغير ذلك من مصنفاته رضي الله عنه، خصوصاً «غيبته الكون».

[أركان الطريقة الكتانية]^(١)

أما أركانها فهي أربعة:

[التوبة]

الركن الأول: التوبة من جميع ما جَنَّتْه يداه من حين التكليف إلى وقتك الذي أنت فيه. والتوبة تجب ما قبلها، وهي: الندم والإقلاع، وفي الحديث الكريم: «ما أصرَّ من استغفر ولو عاد / ١ / في اليوم سبعين مرة»^(٢).

وقد كان سيد أهل الأرض يُذَمِّنُ الاستغفارَ دائماً، ولا يظنُّ ظانًّا أنه صلى الله عليه يستغفرُ من مقامٍ حلَّ فيه نبيُّ مرسل، ولا مَلَكٌ مُقَرَّب، فإن بدايته صلى الله تعالى عليه وسلم لم تشارك شيئاً من نهايات غيره، فيُنظَرُ من أي شيء كان يستغفر؟ مع مراعاة الإجلال والإعظام والإكبار لقدره صلى الله تعالى عليه، وأعمال الأرواح المطهَّرة والقوى النورانية في معنى ذلك.

ولا يقفُ الإنسانُ مع ما يقوله في ذلك مَنْ لم يُرزق تعظيمه صلى الله عليه، فإن طريقتنا مبنيةٌ على الاستغراق فيه صلى الله عليه وسلم، كما يأتي في هذه الإجازة^(٣).

(١) للمؤلف رضي الله عنه رسالةٌ خاصةٌ في هذه الأركان وشرحها، نرجوا الله أن نتوفَّر على خدمتها ونشرها قريباً.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٤)، وأبو داود (١٥١٤) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نُصيرة، وليس إسناده بالقوي».

(٣) الاستغراق فيه صلى الله عليه وآله وسلم، من أعظم خصائص الطريقتين الكتانية والشاذلية، امتازتا بها عن غيرهما، ولذلك كَثُرَ فيهما الحفاظ والمحدثون والأنريون كما لا يخفى.

[تصحيح مقام التقوى]

الركن الثاني: تصحيح مقام التقوى، وهي امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً، وهي مراتب، أدناها: اتقاء الشرك، وأوسطها: حفظ الجوارح ظاهراً وباطناً، وأعلىها: اتقاء خطور غير الحق سبحانه على القلب، وهي الخصيصة التي لا يؤتاها كل أحد، وهؤلاء قال قائلهم:

ولو خَطَرَتْ لي في سِوَاكَ إرادةٌ على خاطري - سهواً - قضيتُ بِرِدَّتِي^(١)

ومن أدمن قَرَعَ الباب على يد الأكابر، أهل الكلمة المسموعة، والشفاعة التي لا تُرَدُّ في حضرة الله، يوشك أن يُفتح له.

[التماسُ المعاذِر لسائر الناس]

الركن الثالث: التماسُ المعاذِر لسائر عبادِ الله على اختلاف مراتبهم، واتساع مجال آرائهم، وتباين مذاهبهم^(٢).

(١) من تائية «نظم السلوك» لسلطان العاشقين الإمام أبي حفص عمر بن الفارض رضي الله عنه.

لطيفة: مما كان يقوله والد المصنف رضي الله عنهما، الإمام جبل السنة والدين أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني الحسني كما في «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية» للحافظ السيد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: «إذا كان ابن الفارض سلطان العاشقين، فإن ابني سيدي محمد سلطان المعشوقين». وفي هذه اللفظة من العمق عند أولي البصائر ما لا يخفى.

(٢) ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه في هذا الزمان من التشتت والتشردم، واتباع الهوى، وغلبة الكفر والضلال على بلادنا ودُورنا إلا بسبب سوء الظن، وعدم التماس المعاذِر لسائر الخلق، من فقهاء ومتكلمين وسالكين وغير ذلك، وكذلك من قَتَحْنَا هذا الباب دون تكبُّس حتى نصل إلى حد الغفلة في ديتنا، ونصديق كل مخرف ودخيل، وما كان سلف =

فمن لم يسلم عليك - مثلاً - أو سلمت عليه فلم يردّ تعتذر أنت عنه بأنه لم يسمعك، أو كان مشغول البال، وقس. واستعن على هذا بدوام استحضار أن الحق تعالى هو الآخذ بالنواصي ولا فاعل سواه، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فتأمل: فإنه إذا كان الحق في نفسه على الصراط المستقيم، وهو مع ذلك آخذ بالنواصي، فما ثم بهذا الاعتبار إلا الصراط المستقيم. ولا تزد على الإنكار على المنحرف بلسان الشرع، ومن كان هكذا أنكر وهو أب شفيق رحيم.

[نظرة التعظيم في سائر الموجودات]

الركن الرابع: نظرة التعظيم في سائر الموجودات، فإن أرباب البصائر يشهدون أن لكل نسمة وجه ونبذة خاصة من الحق، تستحق تلك النسمة أن تُعظم من أجلها. ونفهم سرّ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وهو بساط طويل الذيل، وقد أومات إلى المقصود.

[مباني الطريقة الكتانية]

وأما مبانيها: فأعظمها، بل كلها: الاستهلاك في محبته ﷺ، واستغراق القلب في مودته، ودوام تشخيص صورته الشريفة نُصب العين، ودوام مشاهدته. ولك في ذلك مشاهد:

= الأمة رضي الله عنهم هكذا، وإنما يجب أن يكون المرء مثل الميزان، ولا يقوم هذا إلا بالاستعانة بشيخ التربية المتوفرة فيه شروط المشيخة، والتي خصص لها المؤلف رضي الله عنه رسالة خاصة أشرنا إليها قريباً.

[مشاهد الطريقة في حقه ﷺ]

[(١) مشاهدته برزخاً بين المخلوقات وبين ربها]

المشهد الأول: أن تشاهده ﷺ برزخاً بين المخلوقات وبين ربها، وخاصةً البرزخ: أنه لا ينزل شيء إلا عليه، ولا يصعد شيء إلا إليه، فمعاملة الخلق كلها معه ﷺ في الحقيقة^(١).

وبيان ذلك: أن الحق سبحانه لما كان في عِزَّة القَدَم، وجلال الربوبية، وكبرياء الديمومية، وكان الخلق في نقيض ذلك كله، كانت المناسبة بعيدة جداً، فكان مقتضى هذا أن لا يظهر معه - سبحانه - شيء من المخلوقات البتة.

فمن عظيم فضله، وجليل امتنانه أن أبرزَ / ٢ / من نفسه برزخاً جامعاً، وأفاضَ عليه جميعَ كمالاته، وحلَّه بأسمائه وصفاته، فكان حاجزاً عظيماً بين المخلوقات وبين صَدَمَات الغيرة الإلهية، وأوجال الجلالات الصَّغفانية.

فعند ذلك صَلَّحت الموجودات للوجود، وهو من معاني: «لولا» لم تَخْرُج الدنيا من العَدَم^(٢)، و«لولا الواسطة» لذهبَ الموسوط^(٣).

(١) فصل المصنف في هذه الأمور في كتابه العظيم «خبيئة الكون»، وفي غيره، ولهذه المسألة أدلة كثيرة، بعضها في رسالته في «اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى»، ومنها: «إنما الله معطي وأنا قاسم».

(٢) من «بردة» الإمام البوصيري رضي الله عنه:

وكيف تُدرِك في الدنيا حقيقة مَنْ لولا لم تَخْرُج الدنيا من العَدَم وانتقد عليه بعض الناس هذا البيت، وانتصر له آخرون، ولوالد المصنف رضي الله عنهما، الإمام عبد الكبير الكتاني مصنفٌ خاصٌ عظيمٌ في هذا المعنى، يقع فيه مجلد مخطوط، سلك فيه طريقة المحدثين والمتكلمين والصوفية.

(٣) قطعة من صلاة شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة تاج الدوائر الصوفية الإمام الشريف عبدالسلام ابن مشيش العلمي الإدريسي الحسني، رضي الله عنه، شيخ الإمام العارف أبي الحسن علي الشاذلي الإدريسي الحسني الفماري، رضي الله عنه.

ثم لم يقتصر في التنويه به ﷺ على هذا القدر، بل زيد بأن جعل متجلباً في كل ذرة من ذرات الموجودات، «إني لأرى في كل صورة»^(١)، «أنا من الله، والمؤمنون مني»^(٢).

[نتائج هذا المشهد]

وهذا المشهد يعطي نتائج منها:

- وجوب محبته ﷺ عقلاً، فأحرى شرعاً وطبعاً، ومنها:
- تعظيم الوجود كله لأجله، ومحبته الكون كله، ومنها:
- الاستغراق فيه ﷺ، ودوام الإقبال عليه بالقلب، ودوام مد أكف الفاقة له، إذ لا مفيض سواه، ودوام اللّهُج بِذِكْرِ مُعْجَزَاتِهِ، ومناقبه ومفاخره، وما امتاز به عن كِبَرَاءِ الْخَلْق، وكثرة الصلاة عليه، وخصوصاً بهذه الصلاة الأَنُمُودَجِيَّة التي هي - في جانب الثناء عليه صلى الله عليه - في مقابلة الاسم الأعظم المكنون في جانب الثناء على جلاله الربوبية.

ولو أن العوالم كلها لها أَلْسُنٌ، وتلك الأَلْسُنُ تصلي عليه بغيرها، وواحد يصلي بها: لفاقهم، وهي من موجبات رضوان الله الأكبر الذي هو أعظم من كل شيء»^(٣).

(١) لم أجده.

(٢) رواه الديلمي بلا إسناد بلفظ: «أنا من الله عز وجل والمؤمنون مني»، كذا ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١: ١٨٥).

(٣) قدر الكلام على قدر معناه، فراجع شروح «الأنمودجية» تر العجائب، وقد نص المصنف رضي الله عنه في «خبيثة الكون» وغيرها أن أفضل صلاة على الإطلاق هي الصلاة الإبراهيمية، والصلوات الأخرى التي خرجت من بين شفهي رسول الله - ﷺ وعلى آله - الكريمتين، حال حياته النبوية، وانتقد على الصوفية عدم كتابتهم في فضائلها ومكنوناتها، وقد وضعها في ورده بعد كل صلاة من ثلاث إلى خمس مرات (أي الإبراهيمية).

وكذا «القاسم»، فإن من قرأه خرج منه نورٌ لا يبقَى شيءٌ من الكون إلا وصله، وكل من وصله ذلك النورُ ازدادَ به قُرباً من الحق تعالى. فالمُكثِرُ منه له هَيْمَنَةٌ على مراتب الموجودات، لأنه يُرَبِّيها، ويُزَقِّيها دائماً.

[٢) مشاهدة أن له ﷺ على كل ذرة من ذرات الموجودات

نعمة الاستمداد من الحق]

المشهد الثاني: أن تشهد أن له صلى الله عليه على كل ذرة من ذرات الموجودات نعمة الاستمداد من الحق، فإن له مع كل نَسْمةٍ وَجْهَاتٌ يُمُدُّها بها، وبها قامت، ولولا ذلك ما ثبت شيءٌ من الكون، ولا ضُمَّحِلَتِ الموجودات.

كما أن له وجهةً عظيمةً مع الحق دائمةً المكوفِ بمحرابِ الصفا، لا تشغلها هذه الوجهاتُ الخَلْقِيَّةُ.

وإن شئتَ إيضاح ذلك، فاعلم: أن له أربعين وَجْهَةً من وَجْهَاتِ الإمداد يقابلُ بها الرأس، فيها قِوَامُ: السمع، والبصر، والشم، والذوق، والنطق، والحوافظ، والمُذَرِّكات، وسائر القوى التي تكون في الرأس.

وله ﷺ وجهاتٌ ثمانٍ يقابلُ بها اليدين، فيها تقدر على حمل الأشياء والأخذ والعطاء، وبها قِوَامُ قوة اللمس، وقوة المفاصل، واستقامة حركاتها وغير ذلك.

وله وجهاتٌ أربعون تقابلُ القلبَ الذي به يكون الإنسانُ إنساناً، وبها قِوَامُ العقل وقوة التدبير، ومعالجة أمر الصنائع، وبها قِوَامُ أمرِ الأحشاء ومجاري الطعام، وبها صَلَحَتْ لكونها مُجرئى على الدوام / ٣ / مع ضعفها.

وله وَجْهَاتٌ أربعٌ تقابلُ الرجلين وما والاهما، فيها يقدر الإنسانُ على الجري، يمشي هَوْناً إن شاء، ويعدو إن شاء، وبها قوة الإمساك والدفع بالنسبة للمخرجين، وبها تماسكت قوة الجماع وغيره.

فهذه اثنان وتسعون وجهة، تقابل كل إنسان، وهي عددُ نَقْطِ حُرُوفِ اسمه العظيم «محمد».

هذا بالنسبة لعامة الخلق، [...] إليهم بسمعين^(١) تقابل رؤوسهم وهي عددُ نقطِ ميم.. هكذا.

[٣] أن تشهد عند السلام في الورد

المشهد الثالث: أن تشهد عند السلام^(٢) في الورد الكريم، فتسلم عليه باعتبار ذاته الشريفة مجردة في الخارج.

وتسلم عليه أيضاً في مظهره التي هي العيون، وهو معنى: «السلام عليك يا عينَ العيون». فيرد عليك صلى الله عليه باعتبار ذاته المجردة في الخارج، وباعتبار مظهره، لقوله في الحديث الشريف: «من سلم عليّ ردّ الله عليّ رuchi حتى أردّ عليه»^(٣).

ثم تسلم على روحه العظيمة أيضاً، باعتبار التجرد، وباعتبار مظاهرها التي هي عوالم اللطافة، من أملاك، وأرواح مهتمة، وغيرها. وهو معنى: «السلام عليك يا روح الأرواح».

(١) كذا في الأصل! ويظهر أن في الأصل سقطاً كما أشرنا بالمعقوفتين، فليقدّر.

(٢) أي قوله في الورد الشريف: «السلام عليك يا عين العيون، السلام عليك يا روح الأرواح، السلام عليك بلسان: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الفن: ١٠]»، وهي تقرأ في الورد الشريف عشر مرات.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٥٢: ١٠): «وفيه عبد الله بن يزيد الإسكندراني ولم أعرفه، ومهدي بن جعفر ثقة، وفيه خلاف، وفيه رجاله ثقات».

ثم تسلّم عليه بلسان المعدّلين المقدّسين المرضيين الصحابة الكرام رضوانُ الله تعالى عليهم، تأويلاً كونَ الحق أنزله منزله واستخلفه في المُلْك الأعظم، لا في الأرض فقط كسيدنا آدم وسيدنا داود، وهو معنى: «السلامُ عليك بلسانِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾».

وحاصلُ هذا المشهد: أن تشهدَ ﷺ عينَ الأشياء وروحَ الكائنات.

[(٤) أن تشاهده نوراً صِرْفاً]

المشهد الرابع: أن تشهدَ نوراً صِرْفاً حَقَّانِيّاً لاهوتياً استبدَّ باسم البشرية، وتلثمَ بیراقع العبدية.

[نتائج هذا المشهد]

وهذا المشهد يعطي نتائج منها:

— سجود القلب له صلى الله عليه كما سجدت الملائكة لآدم بالوجه والجسم، ومنها:

— اللجأ إليه في الشدائد، واستمناحه في جميع المطالب والمرائب، وعدم قطع النظر عنه في مشهد من المشاهد وفي طلبية من الطلبات والمرائب، فهو صورة الحضرة العلية تشكّل فيما ترى، فارجع البصر نحو حقائقه الكريمة^(١).

فهذه أخي مشاهدٌ أربعٌ اقتصرنا عليها تبصرةً للطالب، من أدامها انتقل منها إلى أرقى منها، إلى أن يشاهده ﷺ بعينِ رأسه متى شاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) أي: باتباعه، والافتداء به صلى الله عليه وسلم وعلى آله، والتوسل به إلى الله تعالى، والفرع إلى حديثه وهديه في رَؤْم فك الكرب والصبر على البلاء، حتى تشخصه في حياتك وكل أمورك ﷺ وعلى آله.

[الدعوة إلى البحث عن الشبهات التي بين الحلال والحرام]

ثم أدلّك - أخي - على أمرٍ إذا عملتَ به كنتَ سيِّدَ أهلِ زمانك، وكنتَ من الذين إذا رُؤوا ذكّرَ الله، وهو: البحثُ عن الشُّبُهات التي بين الحلال والحرام، التي لا يعلمها كثيرٌ من الناس، بل لا يُلْقُون لها بالاً حتى يعلموها أو لا يعلموها، فاعمل على مقام الورع تكن أعبدَ الناس.

وليس الشأنُ في توقّي الحرام، ولا فعل الواجب، وإنما الشأنُ عندَ أهل الطريق في البحث عن الشبهات، وعدم الإفراط في تعاطي المباحات.

وتذكّر ما في الحديث الشريف: أنه ﷺ وجد ثمرةً فقال /٣/: «لولا أنني أخاف أن تكونَ من الصدقة لأكلتها»^(١)، مع أن العقلَ ربما يقول: إن كانت قرينةٌ تُقَرِّبُ كَوْنَهَا مِنَ الصَّدَقَةِ فهذا مقامُ الورع، وإلا فكذا، ومع ذلك اتقاها أورعُ الخلق وأتقاهم لله سبحانه، فاقتبِ أخِي أثرَ نَبِيِّكَ الْعَظِيمِ.

ودُم على إخراجِ ورَدِنَا الشريف في وقته، وهو في الصباح من الفجر إلى الزوال، وفي العشي من المغرب إلى الثلث الأول، واستعظم شأنه، فإن قارنه المداوم عليه لا يموتُ إلا على أكمل الحالات، ويحضُّرُهُ المصطفى ﷺ عندَ موته فيسقيه كأساً من كؤوس التقريب الخاص، فيلقى الله وقد حصل على المقصود الأهم.

[الشروط الخاصة]

وراع أيضاً شروطَ الطريق الخاصة، زيادةً على العمومية، وقد أُخِرت إلى هنا. وهي مراتب، أدناها: حفظُ الجوارح، وأوسطُها: دوامُ السَّيرِ القَلْبِي، ومعنى ذلك: أن يكون القلبُ دائمَ العُكُوفِ برَصيدِ المُنَاجَاة، مستمِناً روحانيةً

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣١)، ومسلم (١٠٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

شيخه، ونبه، مترقباً ما يردُّ عليه من الأمداد القدسية، مستعداً للعطايا الوهبية، محتنباً ما يكدرُ صفوه من المناهي والغفلات، لا يردُّه رادُّ عن تلك الموارد، ولا يصده صادُّ عن تلك المعاهد.

فإن لم يحترز مما قلنا فقد انقطع سيره القلبي، حتى إن فرضنا أنه كان محتفظاً بالأعمال الظاهرة وقلبه غير مستشرف لتلك الموارد؛ فقد انقطع سيره القلبي وبقي سائراً بجسمه، وسيرُ الجسم بعيدُ المدى، بل ربما لا يُجدي، بخلاف السير القلبي، ذرةً من أعمال القلوب خيرٌ من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

وأعلاها: معاملة الحق سبحانه في المظاهر، وهي هي. ومعنى ذلك بإيماء: أن يُشاهد أنوار الربوبية في كل شيء، فيعامله على حسب ذلك، وغيرُ خفي ما يجبُ لمقام الموجودات كلها عند هذه المشاهدة، وهي كلها من شجرة مباركة يكادُ زيتها يضيء ولو لم تمسه نار.

ولا نعدرك أخي في القيام في الأسفار، وإظهار شعائر الدين، وإعلاء كلمة الله، ونشر أعلام الطريق، والدلالة على الله سبحانه بالقول والفعل والهمة والحال، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

وأكثر من دعوة العلماء وحَمَلَةِ الكتاب العزيز للطريقة، وكُنْ عَوْضاً منا في تلك النواحي، ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [النصر: ٣٥]، ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمٍ وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آدِبًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ونسأل الله الكريم أن يُخَيِّمَ بِكَ القلوبَ الميَّنةَ الْمُظْلِمَةَ، ويُعَامِلَنَا وإياكم بِجَمِيلِ لُطْفِهِ، وأستودعكم الله الذي لا تخبى ودائعه، والسلام.

انتهت الرسالة العجيبة، ذات الأسرار المُفَاضِيَةِ على مُنَشِنِهَا من حضرة النبوة عليها السلام.

النفائس الكتانية

٨

الوصايا الكتانية

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم
 ورحمك الله على سيدنا ومولانا
 ورحمك الله على سيدنا ومولانا
 ورحمك الله على سيدنا ومولانا

رحماني شيخنا البعدي الفيلسوف والشيخ الزاخر الفاضل عليه من نور
البارئيات زده ملك محمد بن ابي عبد الله الكبرياء عبد الملك رغبته

ابا رقیب از مردم محرم بر نشین بخیر از اسیر را عبد الرشید رفته

[illegible]

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا - إِنْ هِيَ إِلَّا عِلْمٌ مِمَّا يُحْكُمُ الْأَمْنَاءُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَارْتِجَافُ

والجبال طربس ان جملتها وانه بين قنطرة ومجملها اربعة ارباع ان تظنوا جملتها

[illegible]

الحاور اعم معه ثم هو عليه السلام فلهذا لم يستعمل لما جعلت الصلوة والارض

والجمال وهو صفة مائة فاعلموا انهم (الرجال) الذين يعرفون ما في كبره

حدرا سلاما له تقدر حرمه الله تعالى على معرفته وما طردوه واداروا حروا الزنك من

المشركين والذين هم من أهل الكتاب يفترون على الله كذباً عظيماً وهو عليم بما كانوا يعملون

و من بعد لا ملأهم من ذلك الا الذين كفروا فاولئك هم المفلحون

[illegible][illegible]

مدر النسيج قشور المدقوق المملوءة الخبز والفاكهة سائر الزهور والنباتات

عنه العوالة (الاستاذ ارضي الله تعالى) من اجل انتم في كل يوم تذكرون انتم في كل يوم تذكرون انتم في كل يوم تذكرون

أفدكم الله سبحانه وتعالى ما لا تعلمون من أسرار ملكوته

السورة (سورة النور) والحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وَيَذَرُكُمْ تَرْجَاةً (الْقُلُوبُ تَرْجُو) كَيْفَ يَكُونُ الظَّلُوعُ عَلَا قِيَمًا

الحقيرة ومنه الخطأ في التزامي والخطأ على أنه لا يتركه من غير

ووصفه ان منظر السوراء حواء رضى عن فائدها اطلقه حواء رضى به على محمد واثبت عمر له

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا ومولانا أحمد، وآله وصحبه

وصايا شيخنا المفرد العلم، والبحر الزاخر القَطْمُظَم مولانا أبي الفيض
الإمام محمد بن الشيخ عبد الكبير الأحمدى الكتاني
رضي الله عنه

أما بعد:

فاعلموا إخواني أن عمرَ الإنسان جوهرَةٌ نفيسةٌ لا ينبغي له ضياعُها في غير
طائل، فإن السلفَ الصالحَ - رضي الله عنهم - كانوا أحرصَ على أوقاتهم من
حرصنا على دراهمنا ودنانيرنا، لِمَا كانوا يعلمونه من أن الإنسانَ حُمْلَ أمانةٍ
عُرِضَتْ على السماوات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملَها، وأشفقنَ منها،
وحملَها الإنسانُ إنه كان ظَلُومًا جهولًا، ظَلُومًا حيثُ وضعَها في غير محلِّها،
جَهُولًا: حيثُ ادعى حملَ ما لا يطيق حملَه.

وفي ضمن الآية أنها عُرِضَتْ أيضاً على الإنسان فادعى القدرةَ على حملها،
بشاهد: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، فذلك نتيجةُ المحاوراتِ معه، ثم كرَّ عليه الحقُّ
بالإبطال، حيثُ لم يتنصَّل كما تنصَّلت السماواتُ والأرضُ والجبال، ووصفه
بأنه ظَلُومٌ جهولٌ.

واعلموا إخواني أن الآداب المُكَلَّفَ بها الإنسان كثيرة جداً، سيما من له نفس حرة، فهَبْ أنه تقربَ بما تقربَ، وجاهدَ وكَدَّ وارتاضَ، وارتكبَ متنَ المشاق، فلا يرى نفسه إلا مقصراً، لأن الجنابَ عظيمَ.

وقد غُفِرَ لمولانا رسولِ الله ﷺ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر^(١)، ومع ذلك قام يصلي حتى تورمت قدماه، فقيل: أتفعلُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً!»^(٢).

فجئوا إخواني في السير، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وما جعلَ عليكم في الدين من حرج، واقتنوا أثرَ جدِّكم ﷺ كي يكثرَ تدفُّقُ الإمداداتِ المحمديةِ عليكم من حضراته، فعلى قدرِ الاتِّباعِ يكثرُ المَدَدُ^(٣).

واعلموا إخواني أنه لما شَطَّتْ بنا الديار، وعاقتنا وعاقتمكم عن الوُضْلةِ الأقدار، وصِرْنَا وصرثم في بلادٍ شاسعة، ومفاوِزَ ومهامٍ قاطعة، وكنا نترقب أقدامكم الشريفةَ لأوطاننا لِمَا وعدُّتمونا به من صلةِ الرحم، ولكن لَمَّا لم تصلوا، ولم ترسلوا أجوبةَ رسائلنا، مع أن جوابَ الكتابِ واجبٌ كَرَدُ السلام^(٤): لم يكن بدُّ من مراسلتكم ثانياً، لتتوبَ رقومُ الأشكالِ عَنَّا في رؤيتكم، وتقبَّلَ الأيدي لأنها تشبه سوادَ العين.

(١) قال تعالى: ﴿لَا تَنْفِرْ فِي السِّبَا مِنْ دُونِكَ وَمَا تَلَاحُظُ﴾ [الفتح: ٢].

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) قس هذا بحال أغلب السالكين هذا الزمان، الذين هجروا الاتِّباع، واتبعوا الدنيا، ثم يدعون وتدعى فيهم المقاماتُ العليا، والأحوال العظيمة، ولا أثر للسنة الشريفة لا في هيأتهم، ولا في أخلاقهم، ولا في عاداتهم، ولا في غيرتهم على المسلمين وبغضهم لأعداء الدين، ولا في أذكارهم - إن ذكروا - ولا في دراستهم لسنة المصطفى ﷺ وعلى آله وسيرته، والفقه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٤) في هذا المحل إشارة لطيفة إلى وجوب الإجابة عن الرسائل ومواصلة الأحباب، لا كما اعتاده كثير من الإخوان هذا الزمان من الاعتذار بكثرة الأشغال، تذريراً لعدم الإجابة عن أسئلة طلبة العلم وغيرهم.

فهي سوادٌ في بياضٍ يذكرُ وصايا نافعة، تَقْلَعُ عن القلبِ الحُجُبَ المانعةَ له من التطلع على هاتيك الحضرات، وعن القالبِ التكاسَلِ والتراخي والتبْطُّ عما ناله السادات. فنقول:

وصية

[في حفظ الجوارح]

احفظوا إخواني جوارحكم، فإن من أطلق جوارحه فيما يحبُّ دامت حسرائه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨-٨٩].

والعاقل إن ادعى محبة نفسه فلا يتسبب لها فيما يُخجلها غداً بين يدي ملك الملوك، ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ وَخُجِّجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وصية

[في الصمت وترك فضول الكلام]

ولما كان المؤمنُ بأصغريه: قلبه ولسانه، كما في الحديث^(١)، لم يكن بدُّ من تنزيههما عما يتسبب لهما في غضب الجبار.

ولا يخفاكم إخواني، أن اللسانَ ما من: موجودٍ ولا معدوم، خالقٍ أو مخلوق، متخيّلٍ أو معدوم، مظنونٍ أو موهوم، إلا واللسانُ يتناولُه، ويتعرض له بإثباتٍ أو نفي، فإنَّ كلَّ ما يتناولُه العلمُ يُعربُ عنه [اللسانُ] إما بحقي أو باطل.

(١) لم أجده.

ولا شك أيضاً إلا والعلم متناول له، وهذه خصيصة لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلا لأحد عشر إدراكاً: النور، والظلمة، واللون والجسم، وسطحه، وشكله، ووضعه، وأبعاده، وحركاته، وسكناته، وأعداده.

والأذن لا تصل إلى غير إدراكين: الصوت الخفيف، والصوت الثقيل.

واليد لا تصل إلا إلى عشرة إدراكات: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، واللين، والخشونة، والصلابة، والرخاوة، والثقل، والخفة.

وكذا سائر الأعضاء، فلكل إدراكات مخصوصة، عدا اللسان، فهو رَحْبُ الميدان لا يردّه رادٌّ، ولا يصدّه صادٌّ، ولا لمجاله منتهى.

فمن أطلق عَذْبَةَ اللسان وأهمله، مُرِخِيَ العنان: سَلَكَ به الشيطانُ في كل ميدان، وساقه إلى شفا جُرْفٍ هارٍ، إلى أن يضطره إلى البوار، «وَهَلْ يُكَبِّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم إِلَّا حَصَانِدَ أَلْسِنَتِهِمْ» كما في حديث سيدنا معاذ رضي الله عنه^(١).

ولا ينجو من شر اللسان إلا من ألجمه بلبجام الشريعة السمحة، فلا يطلقه إلا حيث ينفعه في الدنيا وفي الآخرة، وعلم ما يُحَمَّدُ في إطلاق اللسان أو يُذَمُّ غامضٌ عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه عسير.

وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن غوائله ودواهيهِ، وتعرّف طرق الاحتراز عنها، ولأجل هذا وردت الأحاديث والآثار بالصمت.

وفي الحديث: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»^(٢)، رواه الطبراني، وقال سهل بن سعد بن مالك بن خالد الخزاعي الساعدي: قال - مولانا - رسول الله ﷺ: «مَنْ يَتَكَلَّمْ

(١) رواه البخاري (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) وغيرهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، والدارمي (٢٠٩٢)، والإمام أحمد (٢: ١٧٧)، وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنه، قال الحافظ في «فتح الباري» (١١: ٣٠٩): «رواه ثقات».

لي ما بين لحيه ورجليه أتكفل له بالجنة»، رواه البخاري^(١).

وسئل مولانا رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: «الأجوفان: الفم والفرج» رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث سيدنا أبي هريرة^(٢).

وفي الحديث: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»، رواه الطبراني وابن أبي الدنيا في «الصمت».

وروي أن سيدنا معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - قال: يا رسول الله، أوصني، قال: «اعبد الله كأنك تراه، وعُدْ بنفسك الموتى / ٢ /»، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله»، وأشار بيده الشريفة إلى لسانه الكريم رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» والطبراني في «الكبير»^(٣).

وفي الحديث: «أخزّن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان»، رواه الطبراني في «الصغير»^(٤).

وفي الحديث: «إذا رأيتم المؤمن صموتا فاقربوا منه، فإنه يُلْقِنُ الحكمة»، رواه ابن ماجه من حديث ابن خلاد^(٥).

(١) البخاري (٦٤٧٤) بلفظ «من يضمن...» وأما رواية «من يتكفل...» فقد رواها الترمذي (٢٤٠٨).

(٢) الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٣) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٢) باختلاف يسير، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٣٧٤: ٢٠) وقال المنذري في «الترغيب» (٤: ٢٤٣): «رواه الطبراني بإسناد جيد، إلا أن فيه انقطاعاً بين أبي سلمة ومعاذ»، وهو بلفظ: «واهدد نفسك في الموتى».

(٤) رواه الطبراني في «الصغير»، (٩٤٦) وأحمد (٨٢: ٣)، وأبو يعلى (١٠٠٠) في «مسنديهما»، وقال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وقد وثق هو وبقية رجاله».

(٥) أخرجه ابن ماجه في «السنن» بلفظ: «إذا رأيتم الرجل أعطي زهداً في الدنيا، وفلة منطق، فاقربوا منه، فإنه يُلْقِي الحكمة» (٤١٠١).

وقال سيدنا عيسى عليه - وعلى نبينا وسائر الأنبياء - أزكى التحيات والتسليمات: «العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار من الناس». رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، من طريق وهيب بن الورد^(١).

وفي الحديث: «عليكم بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما»، رواه أبو يعلى من حديث سيدنا أنس^(٢).

ومن حديثه أيضاً: «الصمت سيد الأخلاق، ومن مزح استخف به». رواه الديلمي في «مسند الفردوس»^(٣).

ومن حديث سيدنا أبي هريرة: «الصمت أرفع العبادة»^(٤).

وكان سيدنا أبو بكر الصديق يضع حصة في فيه يمنع بها نفسه من الكلام.

وقال ابن طاووس: لسانى سبع، إن أطلقته أكلني^(٥).

وقال وهب بن منبه: «في حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، وحافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»^(٦).

(١) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٣)، والذي في المطبوعة بلفظ: «والعاشرة عزله الناس»، ورواه أيضاً أبو نعيم في «الحلية» (٨: ١٤٢).

(٢) رواه أبو يعلى (٣٢٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (٧٢٤٥)، والبخاري (٣٥٧٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٢٢): «رجال أبي يعلى ثقات».

(٣) رواه الديلمي في «الفردوس» (٣٦٦٦) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) رواه الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في «طبقات الأصفيانيين» (٢: ٣٤).

(٥) انظر كتاب «الصمت» لابن أبي الدنيا (٦٣)، و«الإحياء» (٣: ١١).

(٦) لم أجده في «الصمت»، وقد رواه الحافظ الأزدي في كتابه «الجامع» (١١: ٢٢) الملحق بالمصنف لابن أبي شيبة.

وقال أبو عمرو الأوزاعيُّ الفقيه رحمه الله: «كُتِبَ إلينا عمرُ بن عبد العزيز: أما بعدُ، فإن مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الموتِ رَضِيَ من الدنيا باليسير، ومن عَدَّ كلامَه من عمله قُلْ كلامه إلا فيما يعنيه». أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»^(١).
وقد اجتمع أربعة ملوك، رموا رميةً واحدةً بكلمةٍ واحدة: ملكُ الهند، وملكُ الصين، وكسرى، وقنصر.

فقال أحدهم: إنما أندمُ على ما قلتُ، ولم أندم على ما لم أقل.
وقال آخر: إذا تكلمتُ بكلمةٍ ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني.
وقال الثالث: عجبتُ للمتكلِّم إن رجعتُ عليه الكلمةُ ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه.

وقال الرابع: أنا على ردِّ ما لم أقل، أقدرُ مني على ردِّ ما قلت. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»^(٢).

فالزموا إخواني الصمتَ كي تسلموا من آفات اللسان، وتغنموا من حيثُ جمعُ الهمم من التشيت والتفكر، والفراغُ للذكر، والسلامةُ من تبعات القول في الدنيا، ومن حسابه في الآخرة، ودوامُ الوقار والهبة بين الناس، وأيضاً هو سترٌ للجاهل ووقارٌ للعالم.

* تحصيل:

ولنختم هذه الوصية بتحصيل:

فلتعلموا إخواني، أن الكلامَ أقسامٌ أربعة:

(١) ذكره الحافظ ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦١)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (٢٩٦).

(٢) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٧١).

(١) ضررٌ محض، فلا بد من السكوتِ عنه، كالغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، والكلام الفُحش، والغِلظة، والفظاظة، والكلام المُوَحِّش، والكذب، والبهتان، والتكلم بما لا يعني.

(٢) وقسمٌ هو نفعٌ محضٌ.

(٣) وقسمٌ فيه ضررٌ ومنفعةٌ.

(٤) وقسمٌ ليس ضرراً ولا منفعةً.

فأما الذي فيه ضررٌ ونفعٌ: فلا بد من السكوتِ عنه، لأن منفعتَه لا تفي بالضرر. وأما ما لا منفعةً فيه ولا ضرراً فهو فضولٌ، والاشتغالُ به تضييعٌ للوقت في غير طائل، وهو عينُ الخسران.

فما بقيَ إلا القسم الرابع، وهو الذي فيه نفعٌ محضٌ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام، وبقي ربعٌ، وهذا الربعُ فيه خطرٌ، إذ يمتزجُ به ما هو إثمٌ من دقائق الرياء، والتصنع، والغيبة، وتزكية النفس، وفضولِ الكلام امتزاجاً لطيفاً يخفى دُرُكُه، فيكون الإنسان مخاطراً.

ومن علم دقائق آفاتِ اللسانِ وغوائله ودواهيهِ شَمَّ بعضَ رائحةِ قوله ﷺ كما صدرنا به: «من صمت نجا»^(١)، والله المستعان.

فواظِبُوا إخواني على أوردكم - معاشرَ الطائفةِ الكتانية - بالشرائط التي شرطناها عليكم عندَ التلقين، ودونكم والمواظبةَ على «الصلاة الأنموذجية» سائرَ نهاركم بحسبِ المستطاع، وليلكم بحسبِ المستطاع، فإن الفقيرَ ابنُ وقته.

وقد كان جدُّكم سيدنا عليٌّ يقول لمولاتنا فاطمة: «إِنْ صَنَعْتَ طَعَاماً فَاجْعَلِيهِ مَائِماً كِي لَا أَحْتَاجَ إِلَى الْمَضْغِ فَتُوتَنِي سَبْعُونَ تَسْبِيحَةً»، فتأشُّوا به رضيَ الله عنه و﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقُونَ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فما مضى من عمركم لا عِوَضُ لكم منه، وما بقيَ ربما لا تدركونه، فما بيدكم إلا الوقتُ الذي أنتم فيه، فاملؤوا رحابَه بالذكر حتى تتجوهرَ ذاتُكم، وتصيرَ كشافُكم لطائفَ، وعلومُكم معارفَ، وهواجسُكم عوارفَ، وتصيروا مع الله ظاهراً وباطناً والناس يظنون أنكم معهم: «اعبد الله كأنك تراه»^(١)، ومحالٌ أن تراه وتشهدَ معه سواء.

فاعملوا على صقل مرآة قلوبكم، حتى تتزهوا عن المخالفة والأوهام والأغيار، وهناك تمدكم الملائكةُ الحَفَظَةُ بما معها من آدابها مع ربها، فتصيروا من الحفظ بالمكانة الزلفى والمحل الأرفع.

وصية

[في صلة الرحم]

وعليكم إخواني بصلة الرحم، فإنها تزيدُ في العمر، ويُسَطُّ بها الرزق.

وكان ﷺ يقول: «مكتوبٌ في التوراة: من أحب أن يُزَادَ له في عمره ورزقه فليصل رحمه»^(٢)، وفي الحديث: «إن الله ليعمرُ بالقومِ الديارَ، ويشمر لهم الأشجارَ والأموالَ، وما نظر إليهم منذُ خلقهم إلا بالرحمة»، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: «بصلتهم أرحامهم، وإحسانهم إلى جيرانهم»^(٣).

وفي الحديث: «ليس الواصلُ بالمكافئ»، ولكن الواصل إذا قطعتهُ رحمه وصلَّها»^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٦: ٤) وصححه.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٥٥٦)، والحاكم في «المستدرک» (١٦١: ٤)، بلفظ قريب، قال الهيثمي في «المجمع» (٢٧٨: ٨): «إسناده حسن».

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩١)، وأبو داود (١٦٩٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فامثلوا إخواني أمرَ نبيكم، ففصلوا رَحِمَكُم، وإن قطعكم وأدبرَ عنكم،
ففصلوا من قطعكم، واعفوا عن ظلمكم، وأعطوا من حرمكم.

وصية

[في ستر عورات المسلمين]

وعليكم إخواني بستر عورات المسلمين الحسنة والمعنوية، كي يعاملكم
مولانا بذلك أيضاً، وفي الحديث: «من نفس عن مسلم كربةً من كُرْبِ الدنيا
نفسَ الله عنه كربةً من كُرْبِ يوم القيامة، ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا
والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»^(١)، وفي الحديث:
«من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا مؤودة في قبرها»^(٢).

وسببُ هذا: أن رجلاً جاء إلى عُقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، فقال:
لنا جيران يشربون الخمر، وأنا داع الشرط، - أي أصحاب المخزن - لياخذوهم.
فقال / ٤ / عقبة: لا تفعل، وعِظْهُمْ وهدِّمْهم. قال: إني نهيتهم فلم يتهوا، وإني
داع الشرط لياخذوهم. فقال عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعتُ - مولانا -
رسولَ الله ﷺ يقول: «من سترَ عورةً فكأنما استحيا مؤودة في قبرها».

وفي الحديث: «البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق، فلو أنَّ رجلاً عيَّر رجلاً برضاع كلبة
لرضعها»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢: ٢)، ومسلم (٧١: ٨)، والترمذي (١٤٢٥)، وأبو داود (١٤٥٥)،

وابن ماجه (٢٢٥) وغيرهم، وأورده المصنف - رضي الله عنه - بشيء من الاختصار.

(٢) ورد بالفاظ عدة، رواه الإمام أحمد (١٥٣: ٤)، والبيهقي (٣٣١: ٨)، وابن حبان (١٤٩٣)،
وأورده المنذري في «الترغيب» (٢٣٨: ٣).

(٣) أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٨٣: ٣)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٩٦: ٢)،
والفتني في «تذكرة الموضوعات» (١٧٠)، والحافظ السيوطي في «الدرر المنتشرة في الأحاديث
المشتهرة» (٥٨)، وغيرهم، وله شواهد غير أنها ضعيفة. وانتصر لمعناه الحافظ ابن القيم - رحمه
الله تعالى - في كتابه «تحفة المودود في أحكام المولود»، ونقل لمعناه أدلة كثيرة، فلتراجع.

فاقتدوا إخواني بأخلاق جدكم ﷺ، واكتموا عيوبَ الناس، وعاملوهم بما تحبون أن يعاملوكم به، «وليحَبُّ لأخيه ما يحِبُّ لنفسه»^(١)، ولا بد.

ومن رأيتموه ينشُرُ مساوِةَ المسلمين فاستكتموه برفق، ثم بعنف، ثم قوموا من المجلس أو اقطعوا المجلس بالذكر، فما اجتمع قومٌ في مجلسٍ لم يذكروا الله فيه إلا تفرقوا عن أن تن من جيفةٍ حمار^(٢).

وصية

[في حفظِ حقوق الجيران]

عليكم إخواني بحفظ حقوق الجيران وإن كانوا مسيئين، وإلا فنفسُكم تحبهم بالطبع إن كانوا ذوي أخلاقٍ حسنة، وكان ﷺ يقول كثيراً: «والله لا يؤمن بالله من لم يأمن جاره بوائقه»، قالوا: يا رسول الله وما بوائقه؟ قال: «شرُّه»^(٣).

وجاء رجلٌ إلى مولانا رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متى أكون محسناً، ومتى أكون مسيئاً؟ فقال ﷺ: «إذا قال جيرانك إنك محسنٌ فأنت محسن، وإذا قال جيرانك إنك مسيءٌ فأنت مسيء»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلمٌ في كتاب الإيمان (٤٥)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.
 (٢) كما ورد ذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد (٩٠٥٢)، وأبو داود (٤٨٥٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠٨)، وابن حبان (٥٩٠)، والحاكم (١: ٤٩١-٤٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
 (٣) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلمٌ في كتاب الإيمان (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٢٢) بلفظ «أحسن، وأسأت»، بدل «محسن، ومسيء»، والبيهقي في «السنن الكبير» (١٢٥/١٠)، من حديث كلثوم الخزاعي، وهو مرسل، لأن كلثوماً لا تصحُّ له صحبة.

وجاء رجل آخر إلى مولانا رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني نزلت محلة بني فلان، وإن أشدّهم لي أذى أقربهم إليّ جواراً. فَبَعَثَ رسول الله أبا بكر وعمرَ وعلياً يأتون المسجدَ فيقومون على بابهِ فيصيحون: «ألا إن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه»^(١).

فاحفظوا إخواني وصية جدّكم الكريم صلى الله عليه وأحسنوا إلى جيرانكم ما لم يكونوا شرفاء من آل بيت النبوة، ولا تأكدت ميرثتهم ومودّتهم، وما لم يكونوا متقين عاملين بعلمهم، أصحاب خشية، وسخاء، ووقار، وصبر، وعلم وتوكل، وزهد، ويقين، ومحبة، ورضى، وخوف، ورجاء، وغير هذا من مقامات الكمال، فتأكد محبتهم بحسب كلّ صفة من هذه الصفات.

لأن الذوات ما أُحِبَّت من حيث هي، فإنها ترابّ وماء وهواء، وإنما أُحِبَّت بالنسبة لما جمعت من الكمالات والفضائل والأخلاق، بدليل أن الذات تنقل وتصيرُ تراباً ولا تزال محبةً صاحبها في القلبِ مفروسةً في صميم الفؤاد ولا تنزل. والله المعين.

وصية

[في زيارة الإخوان والأحباء]

عليكم إخواني بزيارة الإخوان والأحباء، فإنها يزداد صاحبها علماً وأدباً ووقاراً وعقلاً من المزور، لأن الناس متفاوتون في الفضل والذكاء والنباهة والأخلاق والشيم.

وفي الحديث: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في قرية ناداه مناد أن طيب وطاب ممشاك، وطابت لك الجنة، وإلا قال الله في ملكوت عرشه: «عبدني زار»

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٩: ٧٣)، وقال الهيثمي في «المجمع»: «وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك».

فِي، وَعَلَيَّ قِرَاءُهُ، فَلَمْ يَرُضْ لَهُ بِثَوَابٍ دُونَ الْجَنَّةِ^(١).

وفي الحديث الشريف: «مَنْ زَارَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ شِيعَةً سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ / ٥ / يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ كَمَا وَصَلَهُ فَيْكَ فَصِلْهُ»^(٢).

ولا شك - إخواني - أن دعاء الملائكة مستجاب، فاغتنموا هذه الفرصة، وصلوا إخوانكم، وتفقدوا مَنْ غاب عن جمعكم السعيد الشريف في وقت تلاوة الورد الشريف الذي قاربه المداوم عليه لا يموت إلا على أكمل الحالات.

ومن وجدتموه مهموماً بغم الرزق فعظّموا يقينه في مولاه، والحق لم يكلفنا بصلاة غد، فلا نكلفه برزق غد، على أنه تعالى تكفل به قبل خلق الخلق: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا﴾ [مرد: ٦]، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢].

أو متشاجراً مع فقير فالصلح خير، والشحناء ليست من وصف المسلمين، وانصحوه برفق ولين وحنانة وعطف، لما في الحديث: «مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ فَلْيَأْمُرْ بِمَعْرُوفٍ»^(٣)، ﴿وَلَوْ كُنْتَ - يَا مُحَمَّد - قَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعَفَّ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان مولانا رسول الله كثيراً ما يزور رجلاً مكفوف البصر بالمدينة ويجلس عنده^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤٢:٣)، والبزار (٢٠٠:٤)، وأبو يعلى (٤١٢٦)، وانظر المنذري في «الترغيب» (٣٦٤:٣)، وقال: «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد»، وكان المصنف جمع هنا بين حديثين.

(٢) روى نحوه الحافظ ابن عدي في «الكامل» (٢٩٥:٢) عن علي عليه السلام.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٠:٣)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٤٢)، وهو ضعيف.

(٤) رواه البزار (١٩٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١٥٣٣) عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١٩:٨): «ورجال البزار رجال الصحيح غير إبراهيم بن المستر المروقي، وهو ثقة».

ولا بدّ - إخواني - فإنّ من لا أخ له كاليد الجذماء، وكالطير المقصوص الجناح، وربّ أخ لم تلده لك أمك، والله المستعان.

وكان مولانا رسول الله يتفقّد أصحابه، ويقول: «لعلكم إخواني وجدتم مني أو من أصحابي شيئاً»، والله المعين.

وصية

[في إفشاء السلام]

وعليكم - إخواني - بإفشاء السلام على من عرفتم وعلى من لم تعرفوا، وردّ الجواب، وطلاقة الوجه، وطيب الكلام، والمصافحة.

وفي الحديث الشريف: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(١).

وفي الحديث: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: وما هن يا رسول الله؟! قال: «إذا لقيته سلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»^(٢).

وكانت الصحابة - رضي الله عنهم - إذا طلع الرجل عليهم من بعيد، يبادرونه بالسلام قبل أن يسلم عليهم، يبتغون بذلك الفضل.

فتأثوا - إخواني - بجذكم عليه السلام وخُلافه، تحوزوا الشرف الدنيوي والأخروي، فإننا طلبنا العزّ في غير طاعة الله فلم نجده، وطلبنا الذلّ في غير

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦٤: ٨): «وفيه عطاء بن مسلم، وهو ثقة، وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٨٨٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٢٥)، ومسلم (٢١٦٢)، وأبو يعلى (٦٥٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معصية الله فلم نجده، فليس لأحد عزٌ إلا من اقتفى الأثار المحمدية، والسنن السنية، من التواضع والانخفاض، وغلبة العنصر التراي على العنصر الهواني أو الناري.

والأشياء كامنة في أضدادها، فمن تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ فَغَايَةُ الْأَرْضِ لِلَّهِ يُدْرِكُنَ الْأَرْضَ يَوْمَ تَكُونُ الْأَرْضُ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ﴾ [القمر: ٨٣].

وكان ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يبغض المُعْبَسَ في وجوه إخوانه»^(١).
فانشرحوا صدراً مع إخوانكم، ولا تلقوهم إلا ببشاشة، ولا تقولوا إلا حقاً، فكان جدكم يباسط أصحابه ولا يقول إلا حقاً.

وصية

[في المُصَافحة]

وفي الحديث: «إذا التقى المسلمان وتصافحا، وحَمِدَا الله، واستغفراه، وضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه، لا يفعلان ذلك إلا لله: لم يفترا حتى يُغْفَرَ لهما»^(٢).

وقال سيدنا أبو هريرة: لقي - مولانا - رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان فأراد أن يصافحه، فتنحى / ٦ / حذيفة، فقال: إني جُنُبٌ، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا صَافَحَ أَخَاهُ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرَةِ»^(٣)، فإذا تساءلا

(١) رواه الديلمي في «الفردوس» (٥٥٨) عن علي عليه السلام.

(٢) رواه أبو داود (٥١٦٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٩٩: ٧) بدون زيادة الضحك.

(٣) رواه البزار (٢٠٠٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٦: ٨): «وفيه مصعب بن ثابت، وثقة ابن حبان وضعفه الجمهور».

أنزل الله بينهما مائة رحمة، تسعة وتسعين لأبشِرهما وأطلقهما وأبرهما وأحسِنهما مسألة باقية^(١).

وفي الحديث: «تصافحوا يذهب الغِلُّ، وتهادؤا تحابوا وتذهب الشحناء»^(٢).

فَعُوا - إخواني - هذه الخصيصة العظمى، التي ذكرها مولانا رسول الله للمصافحة، وهي: أنها تُذهبُ الغِلُّ من القلب، فأعظم بها من مزية ومنقبة.

وهذا ترياقُ جرَبناه لذهاب الغِلُّ والشحناء فيمن كانت بينهما مشاحنة ومشاجرة، فوجدناه نافعا، جزى الله عنا سيدنا محمداً ﷺ وعلى آله ما هو أهله.

وقد دار الشارع مع كل أحد بحسب ما تعطيه قابليته، فقال: «تَبَسُّمُ أحدكم في وجه أخيه صدقة»^(٣)، وكثيراً ما كان يقول: «اتقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرَةٍ، فمن لم يجد، فبكلمة طيبة»^(٤).

وصية

[في ترك الجلوس في الطُّرُقَات]

إياكم إخواني وكثرة الجلوس في الطرقات، إلا لضرورات شرعية، وفي أثناء تلك الضرورة أعطوا الطريق حقها.

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٦٧٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٧٦: ٨): «وفيه الحسن ابن كثير بن عدي، ولم أعرفه، وبقي رجاله رجال الصحيح».

(٢) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١٧٥٠).

(٣) بلفظ «تَبَسُّمُك في وجه أخيك صدقة»، رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٩١)، والترمذي (١٩٥٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٦٣) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

ففي الحديث: «إياكم والجلوس في الطرقات» فقالوا: يا رسول الله؛ ما لنا من مجالسنا بُدًّا، نتحدّث فيها. فقال: «إن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال:

- غَضُّ البصر،

- وكفُّ الأذى،

- وردُّ السلام،

- والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر،

- وإرشادُ الضالة عن الطريق،

- وإغاثة الملهوف،

- وحسنُ الكلام»^(١).

فهذه شروطٌ ثمانية لمن أراد الجلوس في الطريق.

فحافظوا - إخواني - عليها كما أمركم نبيكم، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ٧].

وفي الحديث: «مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم، مثلُ الجسد، إن اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى»^(٢).

وفي الحديث: «رأسُ العقل بعدَ الإيمان بالله: التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كلِّ برٍّ وفاجر»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٩) باختلاف يسير ليس فيه «..» والنهي عن المنكر، ومسلم (٢١٢١).

(٢) رواه البخاري (١١: ٨)، ومسلم (٢٠: ٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٠٧٠)، والبزار (١٩٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فليعامل العاقل عِيْدَ الله بما يحبُّ أن يعاملوه به، لا غير، ولذلك كان من شعب الإيمان: «أن تحبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك»^(١)، وفي ضمنه أن من شعب الكفر: أن تحبَّ لأخيك ما لا تحبُّ لنفسك.

* لطيفة :

وأما لو أحببتَ لنفسك ما لا تحبُّ لأخيك من حيث تحمُّلُ الأذى عنه، علماً منك أنه لا يقدر على تحمُّل ذلك، فهو من الأخلاق الشريفة التي لا يقدر عليها إلا أربابُ الصِّفا.

كانَ علمتَ زوجةَ سيئةِ الأخلاقِ شريرةً، وعلمتَ أن أخاً يخطبُها، فخطبتها أنت على خطبته تحقّقاً منك بنفسك أنك تقدرُ على تحمُّل أذاها، وكفَّ أذاك عنها، والأخ لا يقدر على حمل أذاها، ولا يكفُّ عنها أذاها، فيمكثا في وادي التشاجر، فأحبَّ لنفسه ما لا يُحبُّ لغيره.

وكذلك لو عَلِمَ دابةً صعبةً، أو رِقاً لا يأتي بخير، فاشتراه لتتناصَّ به نفسه من حيث ذُلُّها وذوقانها النكباتِ والقبايحَ، فترتاضَ للحلم، والصفح، وكظم الغيظ، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة، ولكن بالعفو، وبإلخصلة التي هي أحسن.

ولكل مقام رجالٌ، فأياك والاعتراضَ / ٧ / على من سمعته يقول: «أحبُّ لنفسي ما لا أحبه لغيري»، فربما يكون قصده ما طرق سمعك، ويفوتك هذا العلمُ لو أنكرتَ عليه بمجرد سماعك منه، بخلاف ما لو استفسرتَ قصده، فاعلم هذا.

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٧١) بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

ويُتصور هذا الخُلُق أيضاً فيمن علمَ من نفسه النصيحةَ، ونُصُوغَ الرحمة للمسلمين، وخلصَ السياسةَ لهم فيما يقطع سيرَهم عن الله، ولا يكتُم عنهم شيئاً من أمور تسليكهم، ومع هذا رأى من لم يظفر بهذه الرتبة يدعو الناسَ لنفسه ويدعي المشيخةَ وليس من أهلها: فيجبُ على الأول أن يزرجه عن خلطته والذهابِ إليه، بل ربما لم تكن في الذهابِ إليه أخلاقٌ سيئة، وتثورُ عليه وتسري إليه من مخالطته ومشاهدته سيرته في المأكل والمشرب، والملبس والحركات والسكنات، وكيفية الكلام، وكيفية المشي، وما يرجعُ لأمر الرياسة، والنخوة الصُورية، ورائحة الدعوى، وتنقيص الغير، وعدم نُصُوغ النصيحة بأن لا يدلّهم على رأس المهالك فيقطعوا شجرتَها، ويانقطاعها تنقطعُ غصونها من الصغائر والخَطَرَاتِ والأعمالِ المشوبة بما يخطئها عن درجة الاعتبار.

فهذا ذأبُ الناصحين - رضيَ الله عنهم - العارفين بغوائل الطريق ومفاوزها، ومهالكها وفسائسها القاطعة لأصحابها عن نيل المراتب السنية.

والغيرُ النُصّاح يُعيبون الناس، فيدلّونهم على قلع كل غصنٍ على حدّته، فتطول عليهم المسافات، وربما لا يفي عمرُهم بقطع أغصان، فكيف بشجرة من جثتها؟! فكيف بشجرات؟!!

والعارفون الوَرثةُ يدلّون أصحابهم على أصل القواطع الذي بانقطاعه تنقطع شُعْبُ الشجرة من أصلها، ثم شجرةً أخرى، وهلمَّ جرأ إلى أن تنقطع الأمهات، فتسهل عليهم الطريق.

وهذا الغالب لا يليق ولا يقدر عليه إلا أهلُ الاجتباء، وأما أربابُ الإنابة فلا يقدرُون على شيءٍ من هذا، ولا يدلّون عليه لأنهم إنما يدلّون الناسَ على ما دلّوا عليه، ويَرْحِمُ الله العارفَ حيثُ قال: «من دلّك على العمل فقد أتعبك»، والسلام.

وصية

[في ترك الجدال]

وياكم - إخواني - والجدال والمخاصمة في الحق، فأحرى في الباطل، لما يؤدي للفشل في الجمع وذهاب ريحه، ويؤدي لامتلاء القلب بالغل والحقد والحد، والتقاطع والتدابير، وكل هذه من أعظم القواطع عن الله، فما أدى إلى المحذور محذور، فأحرى إلى محذورات.

وعن محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي قال: قال - مولانا - رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَذَا الْبَابِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فدخل عبدُ الله بن سلام، فقام إليه ناسٌ من أصحاب رسول الله فأخبروه بذلك. وقالوا: أخبرنا عن أوثق عملٍ في نفسك ترجو به، فقال: «إني ضعيفٌ، وإنَّ أوثقَ ما أرجو به: سلامةُ الصدر، وتركُ ما لا يعني». رواه ابنُ أبي الدنيا هكذا مرسلًا^(١).

فافهموا - إخواني - أن ليس المرادُ / ٨ / كثرةُ العبادة والمجاهدة مع خُبث الطوية والسريرة، لا، لا، فلا يُعتدُّ بعملٍ شابتةُ كثرةُ الدناس وخالطته، وقليلُ العمل مع طهارة القلب وصفاء السرائر يُجدي ما لا يجديه كثرةُ العمل وتدنيسُ الباطن، كما في هذا الحديث، ففيه بشارتان عظيمتان:

الأولى: ما أومأنا إليه، و[هو] أن قليلَ العمل يكفي مع صفاء القلب والعقل والنفس والروح والمعاهد والمراغب، وكم من صحابي كان كثيرَ المجاهدة وربما في تلك اللحظة لم يعثر على هذه الرتبة، ففاقهم سيدنا عبدُ الله بن سلام بهذين النعتين الخفيفين، الثقيلين عند الله، وهما: تركُ ما لا يعني، وهذا يرجع للسان، وسلامةُ الصدر، وهذا يرجع للقلب. وهو معنى ما قدمناه: «المؤمن بأصغريه: قلبه ولسانه»^(٢).

(١) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١١).

(٢) لم أجده فيما مضى.

الثانية: زيادة شفقتة ﷺ إلى أن تَلَطَّفَ حتى أخبرَ بهذا المعنى في صورة تهيج قلوبهم لانتهاز هذه الفرصة، وهو أبلغُ في الحضُر على الفعل كما لا يخفى على الماهرين في علم السياسة.

وفي الحديث: «من تركَ المِرَاءَ - أي الجدال - وهو مُحِقُّ بُني له بيتٌ في أعلى الجنة، ومن تركَ المِرَاءَ وهو مبطلٌ بني له بيتٌ في رِثْصِ الجنة». أخرجه ابنُ أبي الدنيا عن هارون بن معروف^(١).

وفي الحديث: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدىٍ إلا أوتوا الجدال»، رواه الترمذي من حديث أبي أمامة^(٢).

ففيه إخباران:

الأول: من رأيناه كثيرَ الجدال، ولا يثبتُ على نحوٍ واحد، بل على أنحاء، ويكثرُ من ملاحاة الناس، فنعلمُ أن الإمداداتِ الإلهيةَ كانت متدفقةً عليه، ثم لما لم يَقمُ بواجباتِ حقوقِها سُلِبَتْ عنه، وأثرُ السلبِ من حاله النوراني هو الذي ظهرَ في حواشيه حتى أظهرَ ما أنبأ بأن باطنه خرابٌ من المعرفة الإلهية، والآن لا قَلٌّ من الجدال بسبب كثرةِ وجوه علمه التي تكسوها المساوىء فتصير محاسن.

ولما لم يظهر هذا الوُسع^(٣) إلا لمن علمنا أنه رُدُّ أسفل سافلين، فلم يَتَّقَ في أحسن تقويم، ويا ما أعرفه ﷺ بطرق الرقائق والحقائق والمراكز والمعارف

(١) أخرجه بالفاظ متعددة: الطيالسي (٢٢٩٢)، والحميدي (٥٨١)، والإمام أحمد (١٦٢: ٢)، (٢٠٣)، والدارمي (٢٤٥)، والبخاري (٣٦: ١) و(١٢٣: ٩)، ومسلم (٦٠: ٨)، والترمذي (٢٦٥٢)، وابن حبان (٤٥٧١).

(٢) الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٢٥٢: ٥، ٢٥٦)، وقال الحاكم (٤٤٧: ٢): «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي. قلت: ولفظه: «بعد هدى كانوا عليه».

(٣) لعلها تصحفت عن: الوصف.

صلى الله عليه! ولا تكون منا غيبة، لأنه أخبر بها من لا ينطق عن الهوى، وأنها فيه، فيوصفُ بها تصديقاً لمن أخبر بها.

الثاني: نبهنا المصطفى صلى الله عليه على قانونٍ كبيرٍ يُحتاج إليه كثيراً، ولا يُعذر على الإباحة به خوفاً من الغيبة والكذب، ولما أخبرنا به ﷺ صرنا نستدلُّ بالقرائن على أحوال الإنسان، كمن رأيناه يذكرُ الله حتى كأنه مجنون، وأنكرَ منكرٌ عليه، فنقول لذلك المنكر إنه منافق، بشهادة الصادق المصدوق بقوله: «اذكروا الله حتى يقول المنافقون إنكم مجانين»^(١)، فأخبر عن المنكر عليهم أنه منافق، فكفانا مؤنته، فلا يهمننا قوله.

وكما أخبر عن يشهدُ المساجدَ ٩/ بأنه مؤمنٌ بقوله: «إذا رأيتم الرجلَ يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان»^(٢)، فربما يكون إخبارنا عن شيءٍ محمودٍ أو مذمومٍ غيبةً أو كذباً، فنبهنا الطيبُ الأكبرُ على الاستدلال بقرائن الأحوال على ما أكرن في صدور الرجال، ولأجل هذا وردَ الالتقاء من فراسة المؤمن، «فإنه ينظر بنور الله»^(٣)، ففيه حظٌ لمن يفعل الفِعَلاتِ الحسية والمعنوية أن يتقي اطلاعَ المؤمن على قلبه لئلا يُفتَضَحَ بينهم.

فما أعرَفهُ صلى الله عليه بالله! حيث مهَّد الطريقين لكلٍ من المطلِّع والمطلَّع عليه، فاعلمَ هذا فإنه دقيقٌ.

(١) رواه الإمام أحمد (٦٩:٣، ٧١)، وأبو يعلى (١٣٧٦)، وابن حبان (٨١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٨٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٦٧٦١): «رفعه دراج، وقد ضمه جماعة، ووثقه غير واحد، وبقية رجال أحد إسنادي أحمد ثقات».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦٨:٣، ٧٦)، وعبد بن حميد (٩٢٣)، والدارمي (١٢٢٦)، والترمذي (٢٦١٧) و(٣٠٩٣)، وابن ماجه (٨٠٢).

(٣) «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، رواه الطبراني في «الكبير» (٧٤٩٧)، وأورده القضاة في «مسند الشهاب» (٦٦٣)، وقال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٧٣:١٠): «وإسناده حسن».

وفي الحديث: «سِتٌّ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَلَغَ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ: الصَّيَامُ فِي الصَّيْفِ، وَضَرْبُ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِالسَّيْفِ، وَالتَّعَجُّيلُ فِي الصَّلَاةِ يَوْمَ الدَّجَنِ - أَيِ: الْغَيْمِ وَالْمَطَرِ الْكَثِيرِ - وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَصِيبَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَتَرْكُ الْمَرَاءِ وَهُوَ صَادِقٌ». رواه الديلمي^(١).

ففي هذا الحديث أنَّ مَنْ تَرَكَ الْجِدَالَ وَهُوَ فِيهِ صَادِقٌ مُحِقٌّ غَيْرُ مَبْطُلٍ فَقَدْ أَقَامَ رَكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ ﷺ جَعَلَهَا هَا هُنَا مَبْنِيَّةً عَلَى سِتِّ خِصَالٍ، فَمَنْ اسْتَكْمَلَ هَذِهِ السِّتَّ خِصَالٍ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ.

ومفهومه: أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَرَكَ الْجِدَالَ وَهُوَ صَادِقٌ فِيهِ لَوْ جَادَلَ، فَقَدْ خَرِمَ دَعِيمَةً مِنْ دَعَائِمِ الْإِيمَانِ، وَأَحْرَى لَوْ لَمْ يَتَرَكَ الْجِدَالَ فِي الْبَاطِلِ.

فأقيموا إخواني دعائمَ إيمانكم بترك الجدال وما معه، خصوصاً: الصبر عند الصدمة الأولى، وإسباغ الوضوء وحسنه في أيام الشتاء، أو الوضوء بالماء البارد وعدم تسخينه، فهو من إقامة دعيمة أخرى.

وقال بلال بن سعد بن تميم الأشعري: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ لَجُوجًا مُمَارِيًا مَعْجَبًا بِرَأْيِهِ فَقَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُهُ» أخرجه أبو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ»^(٢).

وقال سفيان الثوري: «لَوْ خَالَفْتُ أَخِي فِي رُمَانَةٍ فَقَالَ: هِيَ حَلَوَةٌ، وَقُلْتُ: حَامِضَةٌ، لَسَمِعْتُ يَمِي إِلَى السُّلْطَانِ»^(٣). اهـ. وتباً لهذه الأخوة وَمَنْ يَرْضَى بِهَا، وَتَسْمِيَّتُهَا بِالْأَخُوَّةِ كَذِبٌ، بَلْ تَسْمِيَّتُهَا بِالْمُعَاشَرَةِ أَيْضاً كَذَلِكَ.

(١) أوردته الديلمي في «فردوس الأخبار» (٣٣٠٣) بلفظ: «سِتُّ خِصَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُؤْمِنًا: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ، وَمِبَادَرَةُ الصَّلَاةِ فِي يَوْمِ دَجْنٍ، وَكَثْرَةُ الصَّوْمِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَقَتْلُ الْأَعْدَاءِ بِالسَّيْفِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَصِيبَةِ، وَتَرْكُ الْمَرَاءِ وَإِنْ كُنْتَ مُحَقًّا».

(٢) «الْحَلِيَّةُ» لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْفَهَانِيِّ (٥: ٢٦٠).

(٣) أخرجه أبو نُعَيْمٍ أَيْضاً فِي «الْحَلِيَّةِ» (٧: ٨)، وَلَكِنْ: «لَخَشِيتُ أَنْ يَشِيطَ بَدْمِي».

* سانحة :

والأخ هو أنتَ إلا أنه غيرُكَ بالشخص، وإذا كنتم بهذه المثابة فمن أين يطرأ عليكم التعاقمُ والتشاجرُ والمشاحنة؟!، فيكونُ رأيُكَ رأيَه، ورأيُه رأيُكَ، ومرادُكَ مرادَه، ومرادُه مرادُكَ، فلا تنازعَ أصلاً.

ومن ادعى وصولَ هذه الرتبةِ فله علاماتٌ:

اعظمُها: أن أخاه مهما احتاجه إلا ويجده متمثلاً بين يديه قبل أن يناديه، ومهما أرادَ أن يباديه بأمرٍ إلا ويجدُ الآخرَ مُصغياً له يترقبُ ما يسمع منه كأنه عَلِمَه لتواطؤِ قلوبهما، فكيف لو أمرتهُ مراراً بشيءٍ لخالفَكَ مراراً بقدر ما أكثرت عليه من المأمورات؟! فهذا تلاعبٌ ليس عليه أثارَةٌ من أثارَاتِ الأخوةِ في الله التي كان عليها ساداتُ الناسِ الصحابة الكرام، رضيَ الله عنهم وعنا بهم.

ومنها: اكتفاءُ أحدهما بالآخر.

ومنها: أن لا يرى أحدهما جفاءً / ١٠ / من الآخر، وإن كان ولا بد فيقابلُ بالعفو والصفح.

ومنها: أن يقعَ الإيثارُ بينهما في المأكل والمشرب والملبس، والغطاء والوطاء، والكلام والتصدّر في المجالس السنية، ونسبة الفضائل منهما لأحدهما.

ومنها: أن ينسى أحدهما بأحدهما ضغطة الشدائد، وآلم النوائب، وطَفَحَاتِ الدهر، بحيثُ جميعُ المِحنِ يشاهدُها من المِنن، والأتراحُ يراها أفراحاً بسبب قُربِ أحدهما من الآخر.

هذا إذا كانا معدّيين، وأما إذا كانا منعمين، أو كان أحدهما يسعى في صلاح الآخر ومرادَه، والآخرُ منه منقبضُ الأعطاف، ضَيِّقُ الأكناف، كأنه بين فكَّي أسدٍ يُمَضِّغ، فالفرقةُ أولى من صحبةٍ دائٍ وناءٍ، ومقيلٍ ومدبرٍ، وواصلٍ ومنفصلٍ.

ولو كان للإنسانُ مُسكةٌ من العقل لعلمَ أن الكريمَ ربما أغضا وبين يديه نار الغضا، ولعلم أن احتمالَ الكُلفِ يُنيلُ الرُلف، ولعلم أن التغطيةَ بظل

جناح الأصدقاء والأصفياء - ولو مع البؤس - أعلى من الجلوس على الأسيرة لا معهم.

وَلَعَلِمَ مَا قِيلَ: لَأَنْ يَطْرَحَكَ أَهْلُ الْخَيْرِ فِي الْمَآخِرِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَصْدُرَكَ أَهْلُ الْمَوَاخِرِ، جَمْعُ مَاخُورٍ: أَي: أَهْلُ الرُّيَّةِ.

وَلَعَلِمَ أَنَّ الطَّرْحَ عَلَى الْأَعْتَابِ، وَمَمَرُّ الْإِنْعَالِ، هُوَ زُبْدَةُ الْفَهْمِ لِمَا فِيهِ مِنْ لِقَائِهِ الْأَصْدِقَاءِ.

وَأَوْ، آوٍ، آه... قد ارتفعت الأمانة اليوم من الناس، فكدت أن لا تجد مَنْ لا يرى جفوتك، ولا من يَسُدُّ خَلَّتَكَ، ولا من يوارِي عورتك، ولا يُغْضِي عَنْ زَلَّتِكَ، ولا مَنْ يَسْتَرُ مَا أودعته، ولا من تَبِعُهُ ولا يَبِيعُكَ، وتغضي عنه ولا يغضي عنك، وتَنَائِي مِنْهُ وَيَدْنُو مِنْكَ، اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مَصِيبَتِي، وَاعْقُبْنِي خَيْرًا مِنْهَا.

فَتَجِدُ الْيَوْمَ: تَأْكُلُ مَعَ الْخَلْقِ إِرْدَبَاتٍ مِنَ الطَّعَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَبِيعُكَ بِأَدْنَى ثَمَنِ بَخْسٍ وَيَزْهَدُ فِيكَ، وَلَيْسَ هَذَا بِغَرِيبٍ، وَلَكِنْهُمْ فِي الْأَدَبِ غُرَبَاءُ، لَا يَذُوقُونَ لَهُ ذَوَاقًا، فَاهْلُ الدَّنَاءَةِ هُمْ أَهْلُ الشَّنَاءَةِ.

وَلَا تَجِدُ إِلَّا مَنْ يَتَّبِعُ لَكَ مِنْهُ أُمُورٌ لَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعُهَا، وَتَبْدِي لَكَ حَرْبُهُ نَاجِدِيهَا، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى هَذَا الْوَقْتِ وَأَهْلُهُ.

وَقَالَ سَفِيَانُ: «صَافٍ مِنْ شَتَّى ثُمَّ أَغْضَبَهُ بِالْمِرَاءِ، فَلَيَزِمِيَّتُكَ بِدَاهِيَةٍ تَمْنَعُكَ الْعَيْشِ». أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ»، وَصَدَقَ وَاللَّهُ.

* تنبيه:

واعلم - أخي - أنك ربما تتحدث نفسك: حَدُّ الْمِرَاءِ مَا هُوَ؟

فَنَقُولُ: كُلُّ اعْتِرَاضٍ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ بِإِظْهَارِ قَالٍ فِيهِ وَرِكَازَةٍ وَنَقْصٍ، إِمَّا فِي اللَّفْظِ الْمَسْئُوقِ، وَإِمَّا فِي الْمَعْنَى الْمَفْهُومِ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ، وَإِمَّا فِي قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ فَيَقُولُ: اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى صَحِيحَانِ، وَلَكِنْ قَصْدُكَ غَيْرُ صَحِيحٍ.

وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصديق به، وإن كان باطلاً وكذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فأمسك لسانك عنه، ولا تحض فيه.

والطعن في كلام الغير: تارة يكون في لفظه، بإظهار خلل فيه، من جهة النحو: بأن يكون التركيب مخالفاً لأقوال الفصحاء، أو من جهة اللغة: بأن يكون / ١١ / اللفظ المسوق غير مستعمل عند أهلها لا من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير، وذلك تارة يكون من قصور المعرفة، وتارة يكون بطغيان اللسان، وتارة بطغيان القلم، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله.

وأما في المعنى: فبأن يقول: ليس كما تقول، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

وأما في قصده، فمثل أن يقول: هذا الكلام حق ولكن ليس في قصدك منه الحق، إنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه مع المتناظرين. وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية، ربما خص باسم الجدل، وهو أيضاً مذموم، بل الواجب السكوت، أو السؤال في معرض الاستفادة لا على صفة العناد والنعارة، أو التلطف في التعريض لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة: فعبارة عن قصد إفحام الغير، وإسكاته، وتعجيزه، وتنقيصه، بقدر في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه.

وآية ذلك أن يكون تنبيهه من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل، بحيث يكون هو المظهر له خطاه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يائمه به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا: فهو الترفع بإظهار العلم والفضل لنفسه، والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها.

وصية

[في ترك الخصومة]

ومن هذا المعنى أيضاً: الخصومة، وهي مذمومة، وهو لجأج في الكلام يُستوجب به مالٌ أو حقٌ مقصود، وذلك يكون تارةً ابتداءً، وتارةً يكون اعتراضاً.

والبراء لا يكون إلا باعتراضٍ على كلام سبق، وقد قالت مولاتنا عائشة رضي الله عنها: قال: - مولانا - رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله: الألد الخصم». رواه البخاري ومسلم^(١).

وقال سيدنا أبو هريرة: قال - مولانا - رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومة من غير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع». رواه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب»^(٢).

وفي قوله: «من جادل في خصومة من غير علم» إشارة إلى من كان له حقٌ على آخرٍ ولا بدُّ له من الخصومة في طلبه منه أو في حفظه عنده مهما ظلمه ظالمٌ، فكيف يكون حكمه ففعله ليس بحرام شرعاً.

فالمظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير ترددٍ ولا إسرافٍ وغلوٍ وزيادةٍ لجأج على قدر الحاجة، ومن غير قصدٍ عنادٍ وإيذاءٍ ونكايةٍ لأخيه المسلم: ففعله ليس بمحظور، ولكن الأولى والأليق تركه ما وجد إليه سبيلاً.

فإن ضبط اللسان في الخصومة من غير تفريطٍ ولا إفراطٍ متعذرٌ، والخصومة تُؤغِرُ الصدر، وتُهيجُ الغضب، وإذا هاج الغضب غطى على عقله،

(١) البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) وكذلك أخرجه أبو داود (٢٥٩٧)، والحاكم (٢٧: ٢)، والبيهقي في «السنن الكبير» (٨٢: ٦).

وُنسي المتنازَعُ فيه، ويبقى الحقُّ بين المتخاصمين حتى يفرح كلُّ واحدٍ بمَسَاءةِ صاحبه، ويحزنُ بمسرتِه، ويطلقُ اللسانَ في عرضه.

فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات /١٢/، وأقلُّ ما فيه: تشويشُ خاطره، حتى إنه في صلاته يشتغل بمُحاجة خصمه، فلا يبقى الأمرُ على حدِّ الواجب.

فالخصومةُ مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يُفتح بابُه إلا لداعية، وعندها ينبغي أن يحفظَ اللسانَ والقلبَ عن مذمات الخصومة، وذلك متعذُّرٌ جداً، فمن اقتصر على الواجب في خصومة، فسَلِمَ من الإثم ولا يدمُنُ خصومته، إلا أنه لما كان مستغنياً عنها صار تاركاً للأولى، ولا يكون آثماً لاقتصاره على الواجب.

نعم: أقلُّ ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال: طيبُ الكلام وليّنه، وما وردَ فيه.

وصية

[في قَرَك الغيبة]

واعلموا - إخواني - أن الإنسانَ مركَّبٌ من جوهرين: لطيفٍ وكثيف.

أما اللطيفُ: فهو الجوهر الروحاني المتدفقُ من عالم الأمر.

وأما الكثيفُ: فهو الجوهر الجسداني المتكون من العناصر الأربع: الماء والنار، والهواء، والتراب.

ثم إن كل عنصرٍ يميل لوطنه الأصلي:

أما الروحُ فلا تميل إلا لمقتضياتِ عالمِها من النورانيات، من الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقات، والذكر والتفكير، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي ﷺ.

وأما الجسد: فلا يميل إلا لمقتضيات عالمه من الظلمات من الشبث عن الله بالتكاسل عن أداء المأمورات من عدم الصلاة وعدم الصدقة، وعدم الأخلاق الحسنة، وعدم الوفاء بالعهد، وعدم الحياء، وعدم الشحناء، وغير هذا.

فلما تستولي الروحانية على السجية لا يفعل الإنسان إلا مقتضى القربات التي تقربه من مولاه، وإذا استولت السجية على الروحانية انخرط الإنسان في سلك الغير الهادين، فظهرت منه المخالفات.

واعلموا - إخواني - أن كل من له همة عالية فلا يرضى بأن يكون من المُبْعَدِينَ، وإنما يرضى أن يكون من المقرَّبين، وإن أردتم ذلك فاسمعوا لما يُلَىٰ عليكم:

احفظوا - إخواني - جوارحكم من كف لسان عن الغيبة والنميمة وشهادة الزور، والبهتان والكذب وقول الفحش، والغِلظة والفُظَاظة، و[احفظوا على] أضدادها من الغضب عن مساوىء الناس، والإصلاح بينهم، وشهادة الحق، وعدم البهتان، والصدق، والأخلاق الحسنة من حيث عدم الانتصار للنفس، وعدم الذب عنها، وكثرة الذكر وتلاوة القرآن، والثناء على الله، والصلاة على نبيه ﷺ.

وكف السمع عن سماع ما لا يَجِلُّ له، كسماع المغنَّيات، وسماع صوت /١٣/ النساء غير المتجالات^(١)، وسماع الخوض في الباطل، وسماع شتم أهل الله، وإذابتهم، والإقرار على ذلك، مما هو آيل لكل شر ديني ودنيوي، في النفس والأهل والأموال، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ مَا بُدِّئَتْ بِهِ كُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنْهَا فَلَا تَتَّبِعُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِذَا يُنَادِيكُمُ﴾ [النساء: ١٤٠].

(١) تجال: تعظم. «قاموس». فلعله عنى: النساء غير الكبيرات، أي: الشابات.

فانظروا - إخواني - كيف تشركَ المستمعُ إن رضيَ بذلك مع القائل لذلك الكلام، وفي الحديث: «المستمعُ أحدُ المفتابين»، أي المستمع والمفتاب شريكان في الإثم، رواه الطبراني من حديث سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر^(١).

وقد رُوِيَ عن سيدنا أبي بكرٍ وسيدنا عمرَ رضيَ الله تعالى عنهما أن أحدهما قال لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم - أي كثيرُ النوم - ثم طلبا أدماً من مولانا رسول الله ﷺ ليأكلاه مع الخبز، فقال ﷺ: «قد ائتممتما»، فقالا: ما نعلمه! فقال: «بلى: ما أكلتما من لحم صاحبكما». رواه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»، وأبو العباس الدُّغولي في «الأدب» من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلًا.

فانظروا إخواني كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعٌ.

وفي رواية: «أوليس قد ظللتُم من اللحم شباعاً؟»، قالوا: من أين؟ فوالله ما لنا باللحم عهدٌ منذ أيام، فقال: «من لحم صاحبكم الذي ذكرتم»، قالوا: يا نبيَّ الله إنما قلنا: والله إنه لضعيفٌ ما يعيتنا على شيء. قال: «ذلك فلا تقولوا»، فرجع إليهم الرجلُ فأخبرهم بالذي قال، قال: فجاء سيدنا أبو بكرٍ فقال: يا نبيَّ الله طأ على صماخي واستغفر لي، ففعل، وجاء سيدنا عمر فقال: يا نبيَّ الله طأ على صماخي واستغفر لي الله^(٢).

وهذا السياق دلٌّ على أنهما - رضيَ الله عنهما - كانا مستمعين، وأن المتكلمَ بالكلام المذكور الذي أوجب هذا الزجرَ غيرُهما، بدليل قولهما: طأ على صماخي، فأشار به إلى أنه كان مستمعاً.

(١) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١٤٣:٣): «أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: نهى رسول الله عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة، وهو ضعيف».

(٢) رواه الإمام أبو بكر الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٨٢) - وعزاه العراقي في «تخريج الإحياء» (١٤٣:٣) لأبي العباس الدُّغولي في كتاب «الأدب»، وله شاهدٌ مرسلٌ من مراسيل السعدي، أخرجه أبو الشيخ في «التوبيخ» (٢٤٨).

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والبخاري في «الأدب المفرد»، وأبو يعلى، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب» بسند صحيح، ولفظهم: أَنَّ مَاعِزاً لَمَّا رَجِمَهُ [النبي ﷺ] عِنْدَ الرَّابِعَةِ مَرَّةً بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: إِنَّ هَذَا الْخَائِنَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ مَرَاراً كُلَّ ذَلِكَ يَرِدُهُ، ثُمَّ قُتِلَ كَمَا يَقْتُلُ الْكَلْبُ، فَسَكَتَ عَنْهُمْ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى مَرَّ^(١) بِجِيْفَةِ حِمَارٍ، فَقَالَ: «أَيْنَ فُلَانُ وَفُلَانُ، فَكُلَا مِنْ جِيْفَةِ هَذَا الْحِمَارِ» فَقَالَا: وَهَلْ يُؤْكَلُ هَذَا؟ قَالَ: «فَاكُلْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا آتِفًا أَشَدَّ أَكْلًا مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيهَا»^(٢).

فانظروا إخواني أيضاً كيف جمع مولانا رسول الله ﷺ بينهما، مع أن القاتل واحد.

وروى ابن أبي الدنيا عن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان أنه قال لمولى له: «نَزَّةٌ سَمَعَكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَاءِ، كَمَا تَنْزَهُ لِسَانُكَ / ١٤ / عَنْ الْقَوْلِ بِهِ، فَإِنْ الْمُسْتَمَعُّ شَرِيكَ الْقَاتِلِ»^(٣)، فَالْمُسْتَمَعُّ لَا يَخْرُجُ مِنْ إِثْمِ الْغِيْبَةِ إِلَّا بِأَنْ يَنْكَرَ عَلَى الْمَغْتَابِ بِلِسَانِهِ إِنْ قَدَرَ، أَوْ بِأَنْ تَجْلِيَ عَلَيْهِ فَيَصْمِتَ قَهْرًا عَلَيْهِ، كَمَا هُوَ عَادَةٌ أَهْلِ اللَّهِ.

فإن خاف الضرر على نفسه فبقليه، وإن قدر على القيام من ذلك المجلس أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل له لزمه الإثم، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو مُشْتَبِهٌ لذلك بقلبه؛ فذلك نفاقٌ لمخالفة قلبه لسانه، ولا يُخرجه عن الإثم ما لم يكرهه بقلبه مصمماً عليه.

(١) أضفت هذه الفقرة من «الأدب المفرد» ص ١٤٨، محلٌ بتر في المخطوطة.

(٢) رواه أبو داود (٤٤٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص ١٤٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (٤٤٠: ٢)، والبخاري (١٩٠٢)، وابن حبان (٥٧٦٤)، والحاكم (١٦٦: ٤).

[حقيقة الغيبة وتعريفها]

واعلموا - إخواني - أن النفس ربما تشتاق لحقيقة الغيبة ما هي؟ فنقول:

هي ذكرُ العيب بظهر الغيب، سواءً ذكرتَ مما يكرهه نقصاً في بدنه، كالعمش، والحول، والقرع، والقصر، والطول، والسواد، والصفرة، وغيرها، أو نسيه، أو في خلقه: ككونه سيء الخلق، [كقوله:] بخيل، متكبر، مرأى، شديد الغضب، جبان، عاجز، ضعيف القلب، متهور.

أو في فعله: من حيث المدمن كقولنا: هو سارق أو كذاب، أو شارب خمر، أو خائن، أو ظالم، أو متهاونٌ بالصلاة أو الزكاة، أو لا يُحسن الركوع أو السجود، أو ليس باراً بوالديه، أو لا يضع الزكاة موضعها، أو لا يُحسن قسمتها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس.

أو قوله المتعلّق بالدنيا، كقولنا: إنه قليل الأدب، متهاونٌ بالناس، أو لا يرى لأحدٍ على نفسه حقاً، أو يرى لنفسه الحقّ على الناس، أو أنه كثير الكلام، كثير الأكل، نؤوم، ويتأّم في غير وقته، ويجلس في غير موضعه.

أو ثوبه: ككونه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وقال قومٌ: لا غيبة في الدين، ولو كان المغتاب يكره ذلك، لأنه ذم ما ذمه الله، فذكره بالمعاصي وذمه بما يجوز زجر له، بدليل ما روي أنه ذكر لمولانا رسول الله ﷺ امرأة وكثرة صومها وصلاتها، لكنها تؤذي جيرانها، فقال: «هي في النار»^(١). رواه ابن حبان والحاكم. وذكر له امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال: «ما خيرها إذا؟»^(٢). رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق»^(٣).

(١) رواه الإمام أحمد (٤٤٠: ٢)، والبخاري (١٩٠٢)، وابن حبان (٥٧٦٤)، والحاكم (١٦٦: ٤).

(٢) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص ٥٩.

وما ذكروه فاسدٌ؛ لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعريف الأحكام الشرعية بالسؤال والبحث، ولم يكن غرضهم التنقُّص ولا الهضم للجانب، بدليل أنه: لا يحتاج إليه في غير مجلس مولانا رسول الله ﷺ.

قلت: ولعل ما ذكره هؤلاء القوم في المستفتي من غير تعيين، إنما هو سائل عن دينه ليعرف حكم الله في النوازل في نفسه، أو عَلِمَ من جليسه أنه ذو شوكة لا يقدر على مكافحته بالخطاب، وأراد نصيحته فاستفتى بعض من مكن في الأرض بأمر المنكر، فيتذاكر في حكم من قامت به تلك الأوصاف ليجنبها المرتكبُ / ١٥ / لها، وهي سياسة عظيمة يرتكبها الناصحون فيؤهمون غيرهم أنهم لا يعرفون ذلك الحكم، ومرادهم تعريف غيرهم بذلك.

وقد ارتاضت نفوسهم حتى صارت تأمر بالجهل، مع أن الجليس ربما يفهم أن السائل قصده، بل يكرهه، لكنها ليست بغيبة من حيث إنها ذم ما ذمه الله.

وأما في غير هذا: فالإجماع من الأمة على أن من ذكر غيره من ورائه بما يكرهه فهو مغتاب، لأنه داخل فيما حدَّه النبي ﷺ في الغيبة من قوله: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره»^(١)، فكلُّ ذلك - وإن كنت صادقاً فيه - فانت به مغتاب عاصي لربك، آكلٌ للحرم غيرك.

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سُئِلَت عن الغيبة، فأخبرت أنها أصبحت يوم الجمعة وغدا رسولُ الله إلى الصلاة، وأنتها جارتان لها من نساء، فاغتابتا وضحكتا برجالٍ ونساء، فلم تبرحا على حديثهما من الغيبة حتى أقبل النبي صلى الله عليه من الصلاة، فلما سمعتا صوته سكتتا، فلما قام بباب البيت ألقى طرف رداءه على أنفه ثم قال: «أخرجنا فاستقينا ثم تطهرا بالماء»،

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، و الترمذي (١٩٣٤)، والدارقطني (٢٩٩: ٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فخرجت أم سلمة، فقأت^(١) لحماً كثيراً قواصِلَ^(٢)، فلما رأت كثرة اللحم تذكرت أحدث لحم أكلته فوجدته في أولي جمعتين متناً، فسألتهما: «مما قأت؟»، فأخبرته، فقال: «ذاك لحمه طلبت تأكليته، فلا تعودني أنت ولا صاحبك فيما تكلمتما فيه من الغيبة»، وأخبرتها صاحبتهما أنها قأت مثل الذي قأت من اللحم.

وأخرج ابن جرير من حديث سيدنا معاذ بلفظ: كنا مع - مولانا - رسول الله ﷺ فذكر القوم رجلاً فقالوا: ما يأكل إلا ما يُطعم، ولا يرحل إلا ما رُجل، وما أضعفه. فقال مولانا رسول الله: «اغتبتم أخاكم»، قالوا: يا رسول الله، وغيبة مما يحدث فيه؟! فقال: «بحسبكم أن تحدثوا عن أخيك بما فيه»^(٣).

وقال سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه: خطبنا - مولانا - رسول الله ﷺ حتى أسمع العوايق في بيوتها، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته». رواه ابن أبي الدنيا^(٤).

ففي الحديث الأول مصيبتان عظيمتان:

الأولى: الغيبة، وقد سمعتم وعيدها، ويمكن التنزه عنها بالانكفاف عنها.
الثانية: ما ينشأ عن الغيبة، وهو ما يتولد في القلب من أكل اللحم الخبيث المتن، وهذا كان يمكن التنهل منه في زمنه ﷺ، فلم يكن يبقى في قلبهم حتى

(١) لعلها: فقأت، وبه يستقيم المعنى. الناشر.

(٢) فصل الشيء بقضله: قطعه، فقواصل: قطعاً. اهـ من «القاموس».

(٣) أورده الطبراني في «الكبير» عن معاذ (٢٠: ٣٩)، ولكن بلفظ: «إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه».

(٤) أخرجه أبو يعلى (١٦٧٥)، والبيهقي (٢٥٦: ٦)، وأبو نعيم (٣٥٦)، كلاهما في «دلائل النبوة»، قال الهيثمي في «المجمع» (٨: ٥٣): «رجاله ثقات»، والمنذري في «الترغيب»: «إسناده حسن».

يتراكم على آخر، وأما نحن فيتزايد هذا على هذا، حتى تمتلئ حواشينا من حيث هي بالروائح المنتنة، والملائكة لا تقدر على شم الروائح الخبيثة؛ فتباعد، وإذا بعدت بقيت الأعادي؛ وهم الشياطين. والأخبار - وهم الملائكة - لا شغل لهم إلا الذب عن شجرة الإيمان فيسقطوا عليها فيوضات الأمداد المحمدية إلى أن تسكن وتثبت، ولما يتباعدون /١٦/ تبقى الشياطين - وأهم شيء عندهم الإيمان - فيصيروا يُرحزُونها من محلها.

فاعملوا إخواني على صقل مرآة قلوبكم حتى تعلموا الوقت الذي تهرب منكم الملائكة، فتعقلوا إذ ذاك واعلموا أنكم أسارى في يد العدو.

وفيه إخبار آخر، و[هو] أن المعاصي لها روائح كريهة منتنة يدركها العارفون بالله، غير أنها تقل وتقوى بحسب المرتكب، فتدور مع الحرام والكراهة والإباحة، لأن العارف أعماله كلها دائرة بين الواجب والمندوب لا غير.

وهذا أخذ لطيف من الحديث، فأنقروا^(١) أنفسكم منه بالتنزه عن المعاصي والمخالفات حتى لا يقرب منكم.

وأما باللسان: فنلته في الظاهر ونواله في الباطن؟! هذا من أمارات النفاق، فكونوا من قوم يلعنون الشيطان ظاهراً وباطناً بمجانبته، أو بعدم لعنه ظاهراً، ولعنه باطناً بمخالفة ما به أمر، وامثال ما عنه نهى.

وفي الحديث الثاني خطران عظيمان:

الأول: أنه ﷺ نفى عنهم دخول الإيمان لقلوبهم، ولو دخل الإيمان لانبسطت مقتضياته من الأمان، فتنبجس فيمن قام به إلى أن لا يصير يصدر منه شيء يؤذي المسلمين، فيؤمنوه على أنفسهم وأموالهم.

(١) أي: كفوا. كما في «القاموس».

ومن نفى عنه سيدنا ﷺ الإيمان أفلا تنفيه عنه نحن أيضاً لما نراه يفتاب المسلمين ويتبع عوراتهم؟!

ولا يُروغك مني هذا، فمذهبُ السلف العلماء رضي الله عنهم أن أحاديثَ الزجر والإقماع تبقى على بكارتها من سورة التهديد، فلا تؤؤل، لتكون أدخلَ في بساط الانزجار والانكفاف، ويكون الانكفاف عن الرتوع في بساط المناهي أقرب للحصول، بخلاف إذا أولت، فتتفي سورة التهديد الهائلة .

ومنه أحاديث: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا.. إلخ»^(١)، وحديث: «ليس منا من لم يتعاطم بالعلم»، وغيرها، ونعم المذهب، فهو أقرب للسياسات الإلهية، ومن كانت له ممارسة بأحوال السلف أيقن هذا، وأنهم يتحلون البسط القريبة من المشي على المنهج الإلهي، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الثاني: أن عاقبة أمر من يفتاب المسلمين: أن يفضحه الله في جوف بيته .

فاحفظوا - إخواني - ألسنتكم فيما لا يعني، حتى لا تتعرضوا لهذا الخطر العظيم، اللهم احفظ، اللهم احفظ، اللهم احفظ .

ومثله ﷺ كلها مقصودة، فقد رأينا من يتبع هورات الناس فضحه الله في رحله، نسأل الله السلامة والعافية ببركته ﷺ .

وقال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه كما في «مسند الإمام أحمد»: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه، فقال: «إِنَّ الدرهم يصبیه الرجلُ من الربا، أعظمُ عند الله في الخطيئة من ستِّ وثلاثين زنيةً يزنيها الرجل، وأربا الربا: عِرضُ الرجل المسلم»^(٢) أي الاستطالة فيه بأن يتناول منه أكثر مما يستحقه .

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٨١٢) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٤)، وابن عدي في «الكامل» (٤: ١٥٤٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢: ٢٤٥) .

فصارت الغيبة أعظم وأفظع من ست وثلاثين زنية، التي هي أيضاً أعظم من درهم من الربا، والغيبة أعظم من الكل.

وقال سيدنا أنس / ١٧ / : أمر - مولانا - رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم، وقال: «لا يفطرون أحد حتى آذن له»، فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل والرجل، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، فتأتان من أهيك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فأذن لهما فلتفطرا، فأعرض عنه، وعاوده، فقال: «إنهما لم يصوما، وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم الناس؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقينا». فرجع إليهما فأخبرهما فاستقأتا، فقادت كل واحدة منهما علقاً من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «والذي نفس محمد بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار». أخرجه ابن أبي الدنيا عن علي بن الجعد^(١).

وأوحى الله إلى سيدنا موسى عليه السلام: «يا موسى، من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرّاً عليها فهو أول من يدخل النار».

وقال سيدنا أنس: قال - مولانا - رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون - أي: يقطعون - وجوههم بأظافرهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم. أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت»، ورواه أبو داود مسنداً أو مرسلًا، والمسند أصح^(٢).

(١) أخرجه الطبراني (٢١٠٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢١)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤: ١٩٠): «إسناده ضعيف، ومتن غريب»، وساق له شواهد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣: ٢٢٤) وأبو داود (٤٨٧٨)، وكذا ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٩).

وقال قتادة: ذُكر لنا أن عذابَ القبر ثلاثة أثلاث: ثلثٌ من الغيبة، وثلثٌ من البول، وثلثٌ من النسيمة^(١).

وروى ابن أبي الدنيا عن عيسى بن عبد الله التميمي قال: بلغني عن عتاب ابن بشير، عن خُصاف وخُصيف وعبد الكريم بن مالك، قالوا: أدركنا السلفَ وهم لا يَرَوْنَ العِبادةَ، في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس^(٢).

وقال سيدنا ابنُ عباس: «إذا أردتَ أن تذكرَ عيوبَ صاحبك فاذكر عيوبك»^(٣).

وقال سيدنا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: «يبصر أحدكم القذئ في عين أخيه ولا يبصر الجذعَ في عينه»^(٤).

وكان الحسن البصري يقول: «ابن آدم، إنك لن تصيبَ حقيقةَ الإيمان حتى لا تعيبَ الناسَ بعيبٍ هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلتَ ذلك كان شغلُك في خاصة نفسك، وأحبُّ العبادِ إلى الله من كان هكذا». رواه ابن أبي الدنيا عن نصر بن طرخان: حدثنا عمران بن خالد الخزاعي^(٥).

وقال سيدنا عمرُ رضي الله عنه: «عليكم بذكر الله، فإنه شفاءٌ، وإياكم وذكرَ الناس، فإنه داء»^(٦).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٨٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٧٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٢) وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٠)، بلفظ: «وينسى الجذلَ في عينه»، وغيرهم بسند صحيح.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٢٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٣).

وعن مولاتنا عائشة وسيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قالا: «الْحَدَّثَ حَدَّثَانِ: حَدَّثَ مِنْ فَيْك، وَحَدَّثَ مِنْ نَوْمِكَ، وَحَدَّثَ الْفَمِ أَشَدَّ: الْكَذِبُ وَالْغِيْبَةُ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلين صليا صلاة الظهر والمصر، وكانا صائمين، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قال: «أَعِيدُوا وَضُوءَكُمْ وَصَلَاتَكُمْ، وَامْضُوا فِي صَوْمِكُمْ وَأَقْضُوا يَوْمَ آخِرِ مَكَانِهِ»، قالا: لم يا رسول الله؟! قال: قد اغتبتما فلاناً. أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»^(١).

ففي هذا الحديث الكريم أَنَّ الْغِيْبَةَ تُبْطِلُ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ، وَقَدْ أَمَرَهُمَا بِقَضَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وقال عبيدة / ١٨ / السلماني: «اتَّقُوا الْمَقْطُورِينَ: الْغِيْبَةَ وَالنَّمِيْمَةَ وَالْكَذِبَ». رواه ابن أبي الدنيا^(٢).

وعن عكرمة رفعه: أنه ﷺ لحق قوماً فقال لهم: «تَخَلَّلُوا»، فقال القوم: يا نبي الله، والله ما طعمنا اليوم طعاماً، فقال: «والله إني لأرى لحمَ فلانٍ بين ثناياكم»، وكانوا قد اغتابوه. رواه عبد بن حميد.

وعن سيدنا جابر قال: كنا مع - مولانا - رسول الله ﷺ فارتفعت لنا ريحٌ متنة، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَخْتَابُونَ النَّاسَ». أخرجه الإمام أحمد، وابن أبي الدنيا في «الصمت»^(٣).

(١) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٩٠) بلفظ: «أَعِيدُوا وَضُوءَكُمْ» أو قال: «صَلَاتَكُمْ».

(٢) ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٥) بلفظ: «اتَّقُوا الْمَقْطُورِينَ: الْغِيْبَةَ وَالنَّمِيْمَةَ» كما في النسخة المطبوعة.

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٥١:٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٢)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٣٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩١:٨): «رواه ثقات».

ففي هذا النص تصريحٌ بأن المعاصي لها روائحٌ منتنة، ولا يدركها إلا أهلُ الله رضيَ الله عنهم، أرياب البصائر المنورة، وأما أرياب الحُجب الظلمانية فهم بمنزلة عن هذا المنحى، والله المستعان.

والشيءُ بالشيء يُذكر، وكما يُطَيَّب بالمسك يُطَيَّب بالعنبر: كذلك استعمالُ القربات من نوافل الخيرات، يَكسِبُ صاحبَه لواجبِ المسك الأذفر، فتظهرُ عليه ويشمُّها الكُمَّل أيضاً، ويُرشَّحُ هذا قوله في الحديث: «إذا زار الرجلُ أخاه في طرف القرية ناداه منادٍ من السماء أن: طُيَّبَ وطاب ممشاك، وتبَوَّأت من الجنة منزلاً»^(١).

فقف على قوله: «وطاب ممشاك»، فإن المفتوحَ عليه يُدركُ الفرقَ بين طيب زيارة الإخوان، وطيب المفروضات، وطيب السنن، وطيب المندوبات، والطيب المستعمل، ويُدرك طيب زيارة الإخوان بأثر المسير، فيجدُ وطأةَ قدميه لها روائحٌ سماويةٌ يعلم أنها من ذلك العمل الخاص، وإذا أدرك طيبَ هذا المستحب مثلاً فهو ذريعةٌ لإدراك مراتب بقية الأحكام.

وصاحبُ هذا المقام يخبر بأن هذا الطريق مرٌّ عليها زائرُ الإخوان بما أدرك من أثر وطأته.

وهذا يدركه أهلُ الكشف، فلا يُدافع بقول جدلي: ليس معنى الحديث ذاك، لانا نقول له: مَنْ رام حصرَ معاني كلامه ﷺ فقد كدَّ في غير طائل، ودونك ما أقمتَ فيه، والسلام.

وعن عمرو بن العاص رضيَ الله عنه أنه مر على بغلي ميتٍ وهو في نفر من أصحابه، فقال: «والله لأنْ يأكَلَ أحدُكم من هذا حتى يملأ بطنه خيراً له من

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨)، وابن ماجه (١٤٤٣)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «من عاد...».

ان يَأْكُلَ لَحْمَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وابن أبي شيبة^(١).

وعن سيدنا أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الربا سبعون حُوباً، أيسرها كُنْكَاحُ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وأرى الربا عرضُ الرجل المسلم». رواه ابن ماجه^(٢).

وعن وَهْب بن منبه أن ذا القرنين قال لبعض الأمم: «ما بالُ كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة؟!»، قالوا: «إننا لا نتخادع ولا يَغْتَابُ بعضنا بعضاً». رواه ابن أبي الدنيا^(٣).

وعن شَفِي بن مانع الأصبحي أن النبي ﷺ قال: «أربعة يؤذون أهل النار - على ما بهم من الأذى - يَسْعَوْنَ بين الحميم والجحيم، يدعون بالويل والثبور، يقول بعض أهل النار لبعض: ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى؟ قال: فرجلٌ معلقٌ عليه تابوتٌ من جمر، ورجلٌ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ، ورجلٌ يسيلُ فُؤُهُ قَيْحاً ودماً، ورجلٌ يأكل لحمه / ١٩ /، فيقال للذي يأكل لحمه: ما بالُ الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقال: إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة، ويمشي بالنميمة». رواه ابن أبي الدنيا^(٤).

وقال بكر بن عبد الله المزني: «إذا رأيتم الرجلَ مُوَكَّلًا بعيوب الناس، ناسٍ لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكْرَبَ به». رواه ابن أبي الدنيا^(٥).

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٧٧)، وأورد الخرائطي في «مساوى الأخلاق» (٨٣) مرفوعاً بمعناه.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٧٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٣).

(٣) في كتاب «الصمت» (١٢٧).

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد - زوائد نعيم» (٣٢٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٢٢٦: ٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥: ١٦٧)، وغيرهم.

(٥) في كتاب «الصمت» (١٣٢).

اللهم يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ يا أرحمَ الراحمين، يا أرحمَ الراحمين، يا أرحمَ الراحمين.

[الأخذ على يد المغتاب]

فتزهاوا إخواني عن هذه الرذيلة، وأبغضوا كلَّ مَنْ هذا وصفه، فإن من شَغِبَ الإيمان: الحبُّ في الله والبغضُ في الله من الإيمان، وكل مَنْ رأيتموه مُوكَّلاً بعيوب الناس، فاعلموا أنه ممقوتٌ مبعَّدٌ عن حضرة الله وحضرة رسوله، فازجروه على كل ذلك باللسان، واغضبوا الله، لا لحظ نفس، ولا تكفي الإشارة باليد، أي: اسكت، أو يشير بحاجبيه أو جبينه، أو طرف عينه، فإن ذلك استحقاقٌ للمذكور بالغيبة، بل ينبغي أن يعظَّمه فيذب عنه صريحاً.

قال مولانا رسول الله ﷺ: «من أذلَّ عنده مؤمنٌ وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره أذلَّ الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق». رواه الإمام أحمد والطبراني^(١).

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي خَيْثمة: حدثنا جرير: عن ليث: عن شهر بن حَوْشَب: عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «من ردَّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله عز وجل أن يرُدَّ عن عرضه يوم القيامة»^(٢)، وفي لفظ للترمذي والطبراني: «كان له حجاباً من النار»^(٣)، وفي لفظ لعبد بن حميد وابن زنجويه والرؤياني وابن السني في «عمل اليوم والليلة» أيضاً.

(١) رواه الإمام أحمد (٤٨٧: ٣)، و الطبراني في «الكبير» (٥٥٥٤)، قال الهيثمي في «المجمع» (٥٢٦: ٧): «وفيه ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وفيه ضعف، وفيه رجال ثقات».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٤٩: ٦)، والترمذي (١٩٣١) وحسنه، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤٧) بلفظ: «كان حقاً على الله أن يعثقه من النار».

(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبير» (١٦٤٤٦).

وروى الطبراني والخرائطي: «كان حقاً على الله أن يردّ عنه نارَ جهنم يوم القيامة»^(١).

وفي حديث سيدنا أنس: «من حمى عرضَ أخيه في الدنيا بعث الله إليه ملكاً يوم القيامة يحميه من النار»^(٢).

وفي حديث سيدنا جابر، وأبي طلحة: «ما من امرئٍ يخذل امرءاً مسلماً في موطنٍ تُنتهك فيه حرمةٌ ويُتَقَصَّرُ فيه من عرضه إلا خذله الله في موطنٍ تجب فيه نصرته، وما من امرئٍ ينصر امرءاً مسلماً في موطنٍ يُتَقَصَّرُ فيه من عرضه وتُنتهك فيه حرمة إلا نصره الله في موطنٍ تجب فيه نصرته»^(٣).

وفي حديث سيدنا أنس: «إذا وقع في رجلٍ وأنت في ملاٍ فكن للرجل ناصراً، وللقوم زاجراً، أو قم عنهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَيُّبُ أَحْذَكُمُ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ﴾ [الحجرات: ١٢]».

وفي حديث سيدنا أنس أيضاً: «من اغتیبَ عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره أدركه الله في الدنيا والآخرة»^(٤).

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: «ما يمنعكم إذا رأيتم السفية يخرق أعراضَ الناس لا تُغيروا عليه»^(٥)، قالوا: نخافُ لسانه، قال: «ذلك أدنى أن لا تكونوا شهداء»^(٥)، أي على ما قال من السوء.

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣١١)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٣: ٢٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٧٩: ٨) عن إسناد الإمام أحمد: «حسن».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٣)، والإمام أحمد (٤٤١: ٣)، وغيرهما.

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٠: ٤)، وأبو داود (٤٨٨٤)، والبيهقي (١٦٧: ٨)، قال الهيثمي في «المجمع»: «وإسناده حسن».

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٨: ١١)، وذكره المنذري في «الترغيب» (٣٠٣: ٣).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٠: ٥).

وإذا كان هذا في انتهاك حُرمة المسلمين، فكيف بانتهاك حُرمة الله وشعائره، والتخلُّق بأخلاق الجاهلية والعوام باتخاذكم التُّزْمة، وجَلِّيَّكم فيها بِجَلِيَّةِ أَهْلِ الجَهْلِ الذين لم يراقبوا اللهَ ولا يخافوه، حتَّى / ٢٠ / أوقعتم الناسَ في المحظوراتِ من تطرق ألسنتهم فيكم، وفي الحقيقة أوقعتموهم فينا.

فما هذا الهذيان، وما هذا الاتباعُ للهوى، وما هذا الانهماكُ في شهواتِ النفس، وتتبع حظوظها، وما هذا النقصُ الذي وقع منكم لعهدنا حتَّى فعلتم هذا الأمرَ البشيع، ولم ينهكم المقدّمون؟!

وفي القرآن في ذكر أوصافِ عُدْبَ بها بنو إسرائيل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] ﴿لُبَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨] إلخ. وقال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْسَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦-١٧].

ومثل هذه الأمور ما ثَمَّ مَنْ يستحي منها أو يخافُ عقابها أو يزجره زاجرٌ عنها، عدا النسبةَ الطاهرةَ وما فيها من السنن المحمدية والآثار النبوية، فإنها محلُّ الإنكار، ومن أنكرَ عليه يَضَعُفُ ويتأخر عن محبته.

وكان مقتضى القاعدةِ العكسُ، إذا أنكر عليه أحدٌ في طريقته يقول: هذا اختبارٌ اختبرني ربي لأنني ادعيت محبته هل أثبت أم لا.

وأما في السنة المحمدية: فإذا لم ينكر عليك منكراً في فعل البدع، وأنكرَ عليك في فعل السنن المحمدية فاتركه واعلم أنه صاحبُ رُغُونَاتٍ نفسية، وشهواتٍ طبعية، وإذا كان مراده اللهَ فهلا أنكرَ عليك في فعل ما لا ينبغي وأعانك في فعل السنن المحمدية التي فعلها مَنْ هو خيرٌ من كل أحدٍ ﷺ وعلى آله تصديقاً لقول رب الأرباب: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]؟!

ولكن أوحى الله إلى سيدنا داود عليه السلام: «يا داود، اتخذ لنفسك إخواناً، وكل أخ لا يوافقك على طاعتي فاتركه، فهو لك عدو، وكل من يمنعك من فعل السنن ويقرُّك على الكبائر فاعلم أنه ليس بناصح»، وإذا لم يَسعَ في صلاح نفسه بأن يمشي بها على النهج القويم؛ فغيره أولى وأولى وأولى، لأن الإنسان لا أعزُّ عليه من نفسه، ومع ذلك يتركها توصله لبساط التهلكة، أفلا يُوصِلُ غيره لتلك الرتبة التي هو فيها من السوء؟ بلَى، وإنا لله على سوء الأدب، المؤدي إلى موارد العطب.

وفي الحديث الشريف: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ فَيَكْتَبُ اللَّهُ سَخَطَهُ عَلَيْهِ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». رواه ابن ماجه والترمذي^(١).

وفي الحديث الشريف: «أَكْثَرُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِي الْبَاطِلِ». رواه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً^(٢). وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا غَوْضُ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [المذثر: ٤٥].

وقال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَمُرُ بِمَجْلِسٍ لَهُمْ فَيَقُولُ: تَوْضُّؤُوا فَإِنَّ بَعْضَ مَا تَقُولُونَ شَرٌّ مِنَ الْحَدِّثِ»، أخرجه ابن أبي الدنيا عن الحسن بن الصباح^(٣). سيما إن كان ذلك محض الكذب، وهو من قباح الذنوب، وفواحش العيوب.

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٥/٩٨٥/٢) وأحمد في «المسند» (٤٦٩:٣)، وفي «الزهد» (١٥)، والترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩) والحميدي (٩١١) والبخاري في «التاريخ الصغير» (٩٤:١) وغيرهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٦٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٥٤٧:٩)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٨٠)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١١٢:٣): «سند صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٩١).

وفي الحديث: «إن الكذب بابٌ من أبواب النفاق»، رواه ابن عدي في «الكامل»^(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «كان يُقال: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية، واختلاف القول والعمل، واختلاف المدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بُني عليه النفاق: الكذب»^(٢).

وروى أبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين» من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه: «الكذب ينقص الرزق»^(٣).

فانظروا عِظَمَ هذه المصيبة كيف تسبب لنا في نقص رزقنا، إما حساً أو معنى، حساً بأن لا يأتي، فيتعب عليه صاحبه ولا يصله، ومعنى: بأن تُدفع البركة منه فيذهب كأنه لم يكن وإن كثر.

وفي الحديث: «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المَنان بَعِطِيَّة، والمنفق سلعة بالخلف الفاجر، والمسبيل إزاره»^(٤)، رواه أحمد وأبو داود.

وفي الحديث: «ما حَلَفَ حالفٌ بالله فأدخل فيها مثلَ جناح بعوضةٍ إلا كانت نكتةً في قلبه إلى يوم القيامة»، رواه الترمذي والحاكم من حديث سيدنا عبد الله بن أنيس^(٥).

(١) رواه الخرائطي في «مساوى الأخلاق» (٥٨، ٥٦) عن أبي أمانة مرفوعاً، وعزاه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١٣٠: ٣) لابن عدي في «الكامل».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» (٢٤٠).

(٣) عزاه العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣١: ٣) لأبي الشيخ في «طبقات الأصبهانيين»، وقال: إسناده ضعيف. قلت: ورواه الخرائطي في «مساوى الأخلاق» (٥٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٤٨: ٥)، والدارمي (٢٦٠: ٨)، ومسلم (١٠٦)، والترمذي (١٢١١)، وأبو داود (٤٠٨٧)، والنسائي (٨١: ٥) وابن ماجه (٢٢٠٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٤٩٥: ٣)، والترمذي (٣٢٠٩)، والحاكم (٢٩٦: ٤)، وابن حبان (٥٥٣٧)، والخرائطى في «مساوى الأعمال» ص ٦٠.

وقال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: «ثلاثة يحبهم الله: رجل كان في فتنه فنصب نحره - أي رقبته - للعدو حتى يقتل أو يفتح الله عليه أو على صاحبه، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت لأحدهما أو ظن أن أي رحلة -، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فاطالوا الشرى حتى أعجبهم أن يمشوا الأرض - أي من غلبة النوم - فترلوا فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل، وثلاثة من الناس يشنؤهم الله - أي يبغضهم - التاجر - أو البياع - الحلاف، والفقير المختال - أي المتكبر - والبخيل المنان»، رواه أحمد واللفظ له^(١).

وروى البخاري من حديث سكرة بن جندب في حديث طويل عن المصطفى صلى الله عليه أنه قال: «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي: قم، فقمْتُ معه وإذا أنا برجلين أحدهما قائمٌ، والآخر جالسٌ، بيد القائم كُلوْبٌ من حديد يُلْقِمُه في شِدْقِ الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله رأس الكتف، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني، ما هذا؟ قال: هذا رجلٌ كذابٌ يعدُّب في قبره إلى يوم القيامة»^(٢).

وفي الحديث عن ابن عمر: «إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نَتْنٍ ما جاء به». رواه الترمذي^(٣).

وفيه تصريح أيضاً بأن للمعاصي روائح، ولما أخبر به المترجم عن الله فلا يسعنا إلا الإيمان، سيما من زاد الإيقان على الإيمان بأن شمه وأدركه، فلا تبقى عنده مريّة في ذلك.

(١) رواه الإمام أحمد (٥: ١٥١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥: ٨-٩)، والبخاري (١٣٨٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٠٧٦)، والترمذي (١٩٧٢)، والطبراني في «الصغير» (٢: ٣٠). قال الترمذي: «حديث حسن جيد غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، تفرد به عبد الرحيم بن هارون».

ويا عجباً للإنسان لا يُدرك المراتب السَّنيَّة، ولا يسلَّم لأهلها، فيجمع على نفسه نقيضتين.

وإنما لم يدركها كل أحدٍ لاعتيادهم ذلك حتى دُبِغ أديمتهم بها، فلم تنق أنفسهم تشمئز منها، كالجعل؛ فإنه يحیی برائحة روث الدواب، وفي تلك الحياة الموت لو درى.

وكما أخبر المبيِّن عن الله أن الموت يأتي في صورة كبشٍ أقرن فيذبح.. إلخ^(١)، مع أن الموت معنى من المعاني، فربما تكون المعاني تتجسَّد كما ظهر العلم في صورة اللب، والإيمان في صورة قميص^(٢)، وغير هذا كما في الأحاديث، ومعلوم في القرآن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين فافهم / ٢٢ / .

فتنزَّهوا إخواني عن مثل هذه الأمور، وتفقدوها في أنفسكم وأهليكم وأقاربكم، ومن تلزمكم نفقتهم، وكل من لا يوافقك على هذا فاتركه فهو لك عدو.



(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) فصل المؤلف - رضي الله عنه - في هذا المبحث، وهو أن المعاني تتجسَّد في كتابه العظيم «ختم البخاري»، الذي ضمنه بضعاً وعشرين علماً مستنبطة من اسم رسول الله ﷺ (محمد)، باعتبار رباعيته، وقد طبع بالحجر في فاس عام ١٣٢١.

[الخاتمة، في أمور جامعة]

وكذا تحفظوا من يديكم ورجليكم، أما يديكم: فلبس ما لا يحل لكم من النساء الأجنبية أو الأحداث، وأما رجلكم، فبالسعي إلى ما لا يحل، كمحل لا يذكر فيه الله، وتذكر فيه عورات المسلمين أو حديث الدنيا أو مجلس الضحك.

وقد قال الفضيل: «رحمة الله مصروفة عن ثلاث مجالس: مجلس ذكر الدنيا، ومجلس الضحك، ومجلس الغيبة».

فانظروا - إخواني - لأنفسكم إذا ذهبت الرحمة ما يتوق إلا العذاب، ونحن ضِعَافٌ لا نقدر على شيء من ذلك، وأيضاً هذا إذا كان واحدٌ من هذه الأمور، فإذا اجتمعت فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإليه راجعون.

وكذا صونوا قلوبكم من الغِلِّ والحقد والحسد والبغضاء والشحناء، فإن القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

وكذا صونوا فرجكم عن الزنى، فإنها من الطامات، ويطنكم من أكل الحرام. واعلموا - إخواني - أن ما في الدنيا شيء ينسينا عن حضرة القدس، كائناً من كان، لأن الملهذوات الدنيوية سبعة: المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، والملبوسات، والمشمومات، والمسموعات، والمبصرات.

فأما المأكولات: فأفضلها العسل، وهو ضعة ذباب. وأما المشروبات: فأفضلها الماء، وهو مباح، أهونُ موجود، وأعزُّ مفقود. وأما المنكوحات: فمبالٌ في مبال، وحسبك أن المرأة تزين أحسن شيء فيها ويراد أقبح شيء فيها.

وأما الملبوسات: فأفضلها الديباج، وهو نسج دودة، ويؤول لتلاشي.

وأما المشمومات: فأفضلها المسك، وهو دم فأرة.

وأما المسموعات: فريخُ هابئة في الهواء.

وأما المبصرات: فخيالاتٌ سائرة إلى الفناء.

والعاقلُ لا يترك ما يقى، ويتشبت بما هو أوهى من بيت العنكبوت، وحلاله حساب، وحرامه عقاب، وقد تتعب وتجمع المالَ ولستَ بأكله، ويأكله غيرٌ من جمعه.

فبقدر حزنكم - إخواني - على ما فاتكم من التقرب إلى الله بأنواع الطاعات: على قدر زهدكم فيما أبعدكم عن ذلك المشتبه، وعلى قدر توغلِكُم في حُطَم الدنيا وجمعها والكذب عليها، مع أن الحقَّ تكفل بها: على قدر تراخيكم عن الآخرة، لأن الدنيا والآخرة ضربتان كما قال سيدنا علي - بقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى.

وقد قال الفضيل: لو أن الدنيا هُرُضت عليّ حلالاً لا أحاسبُ بها في الآخرة لكنت أتلذذها كما يتلذذ أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه^(١).

وإن كان - إخواني - ولا بُد فخذوا من الدنيا لأبدانكم لتقوى بذلك على طاعة الله، سيما إن أكلتم بهذه النية، فيكون الأكل واجباً في حقكم.

فاجتهدوا في أن تكونَ عاداتكم عباداتٍ ولا بد، فمهما أردتم فعلَ عادةٍ من العادات فجددوا لها النيةَ / ٢٣ / تصيرُ عندكم عبادةً وعندَ غيركم عادةً، ولا تكون هي المقصدُ الأسنى عندكم فتضيع أعماركم.

ولياكم ومفارقةَ زواويكم، فدونكم وعمارتها في الأوقات التي تعاهدنا عليها، وإن لم تنقضوا ما أمركم به مولانا محمد ﷺ فلا يقعُ لكم ضييمٌ ولا خَرَج، وكل من تعدى عليكم يُخذَل ويُمَكَّرُ به، وتكونُ عاقبةُ أمره خُسرًا.

انتهى

* فائدة (١):

ينبغي للإنسان عند امتثاله الأوامر واجتنابه النواهي أن ينوي أنه يمثل أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وكذلك جميع الصحابة وجميع العلماء الذين قالوا بذلك الحكم. وكذلك تصديق روحانية الإمام الذي قلده، وله في ذلك أجور كثيرة لا يحاط بها، وأسرار تعود عليه، وإمدادات ربانية تسوقه إلى حضرة الله تعالى، فيستمد من جميع ذلك.

وكذلك ينوي بذلك تصديق سيدنا جبريل وسيدنا إسرافيل وسيدنا ميكائيل [١]، واللوح والقلم الأعلى، والكرسي والعرش، لأن الحكم ينزل من الحضرة الإلهية إلى العرش بلا تفصيل، ثم منه إلى الكرسي وفيه يظهر تفصيله من أي حكم من الأحكام الخمسة.

وكذلك إذا سمع أمراً إلهياً ينوي أنه يسمعه من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، فحيث يكون في مشاهدة له دائماً.

ولا يبعد أن يحمل على هذا قول أبي العباس المرسى وشيخه الشاذلي: «لو احتجب عنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما عددنا أنفسنا من المسلمين»، لأن المشاهدة الحقيقية لا تُطابق على الإطلاق دائماً، والعارفون رضي الله عنهم في طاعة دائماً حتى في الأنفاس، والحضرات، فيستحضرون أن ذلك كله طاعة، وأنه مأمور به من قبل الشارع، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر بذلك الفعل أمر إيجاب أو ندب، فيفعله، أو ينهى عنه نهى تحريم أو كراهة، فيتركه، فيكون في طاعة دائماً مع المشاهدة.

ولا يبعد أن يحمل على هذا قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فإذا دخل الإنسان للصلاة فكل فعل منها أو ذكر يقصد به امتثال أمر الله وأمر رسوله صلى

(١) هذه الفائدة زيادة من أمالي المؤلف رضي الله عنه في دروسه كما وجدته بخط العمراني عنه.

صلّى الله تعالى عليه وسلم، فيكون مقتدياً به في الصلاة كلّها، فيحصل له من الخشوع والحضور فيها ما لا يُكَيِّف، ويرتقى بذلك مراتب عليّة، ومقامات مصطفوية، ويحصل له انجذاب باطني للحضرة النبوية.

وإذا تأمل واستحضر ما يهديه الله تعالى له ويمنّحه إياه عند تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة والسورة، أو الفاتحة فقط، من الأنوار والفتوحات والفيوضات والأسرار، واستحضر عظمة الله، وعبوديته له، وأن جميع الأفعال كلّها بيده، وأنه الفاعل على حقيقة، وأنه إنما هو آلة تتحرك بتحريك الله إياه، رفع يده عند إرادة الركوع إشارة إلى انسلاخه عن جميع ذلك، وأنه ركع لله صِفَر الكَفَيْن خاشعاً متذللاً خاضعاً. فإذا ركع وحصل له من التجليات والأسرار والأنوار في ذلك الركوع ورفع منه: رفع يديه أيضاً إشارة إلى وقوفه منسليخاً عن جميع الأعمال / ٢ / التي تقدمت قبل الصلاة، وعن تلك الترقيات والأحوال التي حصلت له في ذلك الركوع.

فإذا سجد لله تعالى سجدة عبداً حقيقياً لا شائبة حرية فيه، فكان سجوده في ظاهره كسجوده في باطنه، فيحصل على مقام المناجاة.

فقد بان لك سرُّ رفع اليدين في الركوع والرفع منه، وهو من الحُورِ المقصُورات في الخيام، وسرُّ الرفع عند تكبير الإحرام انسلاخاً من جميع الأعمال التي تقدمت قبل الصلاة.

ولما نظرَ الإمامُ الأعظمُ أبو حنيفة - رضي الله عنه - إلى هذا السر العجيب، والمرتع الغريب، وأنه أمرٌ خاصٌّ بالعارفين رضي الله تعالى عنهم، وأما مَنْ فعل ذلك كان متشبهاً بالمُرَائِي: أنكرَ الرفعَ من حيث هو إلّا لِمَنْ قام به سببه أو تحقيقه من نفسه، فإنه منسوخٌ عنده معنى لا اصطلاحاً وإن كان ثابتاً عند البخاري. ويسوغُ لمن لم يدرك ذلك المقامَ أن يفعله متشبهاً بالسادة الكرام.



النفاثس الكتانية

٩

سُفْنُ النجاة وكهوف العباد

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

[illegible]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم صل وسلم وبارك على المادة الأصلية التي تفرّعت عنها سائر المواد، وعلى آله وصحبه.

من محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني إلى كافة إخواننا في الله تعالى، وأحبائنا من أجله، وأودائنا في سبيل مرضاته، [من هم] الأخيار الأبرار، والباذلون نفوسهم في ذات الله، والمعرضون عن الخلق في جنب ما ذاقوه من حلاوة الإقبال على الله، الصادقون الأسخياء، الأشيخاء بمحبّتهم أن لا يذلّوها إلا لمن يستحقها.

ساداتنا أهل مراكش كلّ واحد باسمه، واسم عشائره، سلام الله تعالى البر الرحيم على أخوتكم ورحمة الله وبركاته ما ثبت سائر لقرع الباب يؤشك أن يفتح له، وما غاب مقبل على الله تعالى عن حظوظه ورياسته وأخبار نفسه وشهواتها الخسيسة التي لا طائل تحتها إلا مخو اسم صاحبها من ديوان أهل الصدق مع الله تعالى وأهله.

أما بعد: فإننا نعهد لكم عهداً من حافظ عليها فله ما لنا وعليه ما علينا.

العهد الأول

حفظ الرابطة الإخائية والمودة الإيمانية مع بعضكم بعضاً، بحيث تجعلون جميعكم نفساً واحدة قائمة بذات واحدة. ولينظر كل واحد منكم هذا النظر ربما

نحصل منه نتائج؛ الإخلال بها هو الذي أوصل المَعَالِمَ الإسلامية لهذا الحد في جميع معمر الأرض.

فكيف وتجد الجمع مجتمعا وهو يصدق عليه قول العالم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

وما شرع - جل ثناؤه - الجماعة والجمعة والأعياد وصلاة الكسوف والاستسقاء، والموسم الأكبر بعرفة إلا للألفة والاتلاف وحسن التأخي، ولطف تحكيم الروابط الدينية، حتى تأتلف القلوب على محبة الدين وخدمته، والتشريف بالنلبس بشعائره والقيام بوظائفه، وقد يسري الأمان منا لبعضنا بعضاً، فلا يشتم البعض منا البعض، ولا يتم عليه ولا يغشه، ونغض الجفون عن مساوي بعضنا بعضاً، فلا نطمع إلا لمحاسن بعضنا بعضاً، وذكرها ونشرها.

وبذلك يتنظم شغل الأخوة الإسلامية، ويدوم التعااضد والترقي في المعارج التي تنتج رضوان الله الأكبر، وتنتج رضي الخلق أيضاً.

فإنما شرع سبحانه الشرائع ليسترق قبائحننا ومساوئنا لو علمنا سِرَّ مشروعاتها، لأننا إذا امتثلناها قامت بنا المحامد واجتنبنا المذام، وبذلك يحصل قصد الشارع.

على نفسه فليترك مَنْ ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم^(١)

العهد الثاني

عدم إيقاع الصلاة إلا بزاويتكم، فإن أغلب الأئمة لا يحسنون قراءة الفاتحة، ويجعلونها ثلاث آيات مع أنها سبعة، ﴿وَلَقَدْ مَاءَنَّاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَاقِبِ﴾ [الحجر: ٨٧].

(١) من شعر سلطان العاشقين الإمام عمر بن الفارض رضي الله عنه.

وقليلٌ من يَشُدُّ الياء من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقليلٌ من يُظهرُ السين والتاء من ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهل بلاجِنِ مطلقاً أو في الفاتحةِ بغيرِ مميّزٍ بين ضادٍ وظاءٍ. خلاف.

وأبطلَ الشافعيةُ صلاةً من يخفف الياءَ في «التحيات لله» في التشهد، /١/ /
والحالُ أنها ليست بقرآن.

ومخارجُ الحروف قلَّتْ مراعاتها، لعدم إتقان علم القراءاتِ والأداء.

وأيضاً قوادحُ الشهادة والإمامة كثرت في الناس، ولتراجع القوادحُ في «المختصر» وشروح «التحفة» و«التبصرة» لابن فرحون^(١)، ولتنظروا الخطاب^(٢) عند قوله: «أو فاسقاً بجارحة» عطفاً على المبطلات: تعلموا وجوبَ التحري في الإمامة ووجوب التوقي فيمن يُصلِّي خلفه.

وبه يُعلم ما ذكره الأجاهرة^(٣) في الاستفسار الذي ذكروه، وأن هذا تُبَغ فيه ابنُ بزيمة^(٤)، وهو غيرُ مشهور. ولا بدَّ أحضروا الخطابَ واسردوه في هذا الموضوع.

(١) «المختصر»: هو مختصر سيدي خليل، و«التحفة» هي «تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» أرجوزة في القضاء لأبي بكر ابن عاصم المالكي، و«التبصرة»: هي «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» للبرهان بن فرحون، وكلها مطبوعة. الناشر.

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد الخطاب المالكي (٩٥٤-٩٠٢هـ)، والمقصود شرحه على «متن خليل» المسمى: «مواهب الجليل»، ونظر كلامه فيه حول هذه المسألة (٤١٢: ٢، ٤٢٢).

(٣) الأجاهرة: هم تلامذة الإمام علي بن عبد الرحمن الأجهوري (١٠٦٦هـ) من فقهاء المالكية في مصر ومنهم: الخرشي والزرقاني، وانفرادهم بالقول غير معتمد في المذهب، كما حرره العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي في شرحه لمقدمة «مختصر» خليل، وهو مطبوع.

(٤) وهو الإمام العلامة أبو محمد عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد القرشي التونسي المعروف بابن بزيمة (ت ٦٧٣هـ)، ترجمته في «نيل الابتهاج» للتبكتي ص ١٧٨، و«معجم المؤلفين» لكحالة (٢: ١٥٥)، ص .

وأيضاً كثيراً من الناس يستعمل القَبْرَةَ المسماة بـ: التَّنْفِحة^(١)، وهي مبطلَةٌ للوضوء والصلاة والصيام، وكل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ^(٢)، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار^(٣)، والعوائد وأهلها في النار.

العهد الثالث

الصلاة تكون سُنَّةً كما رأيتُمونا نصلي في الزاوية الكبرى^(٤) وعندكم، فلا بد من عشر تسيّحات في الركوع والسجود، فإنه أعلى ما يكفي، وفي الحديث فيمن قال ثلاث تسيّحات: «فقد تم ركوعه»^(٥)، وذلك أدناه، أي أدنى الواجب، فإن نقصَ على ثلاث تسيّحات فلا صلاة، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً، والهدي النبوي فيه عشرُ تسيّحات في الركوع والسجود كما في سنن أبي داود^(٦):

(١) التَّنْفِحة: هي خبرة مثل الضمّاط أو قريب منه تثبت داخل الأنف، وقد تحتوي على التبغ وغيره.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه النسائي (١٨٨:٣) برقم (١٥٧٦) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) الزاوية الكبرى هي الزاوية الكتانية الأم في فلس، أم الزوايا، التي بناها وأسسها جد المؤلف رضي الله عنه، الإمام أبو المفاخر محمد بن عبد الواحد المدعو بالكبير، الكتاني الإدريسي المتوفي عام (١٢٨٩هـ)، وهي الواقعة بحي «القطّانين»، من حُدُود القرويين قرب جامع القرويين الأعظم. وقد أرخ لها شقيق المؤلف، الإمام الحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني في كتابه: «المظاهر السامية في النسبة والطريقة الكتانية»، في مجلدين حققهما مولانا الوالد العلامة الدكتور علي بن المنتصر الكتاني، لم يطبع بعد، وقد تخرج منها أئمةٌ ودعاةٌ وقادةٌ جهاد لا يحصّون كثرةً.

(٥) رواه الترمذي (٢٦١)، وابن ماجه (٨٩٠)، وأبو داود (٨٨٦)، من حديث سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) برقم (٨٨٨) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، ولفظه: «ما صليتُ وراءَ أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى - يعني عمر بن عبد العزيز - قال: في ركوعه عشر تسيّحات وفي سجوده عشر تسيّحات».

وَعَنْ لِي بِأَسْمٍ مِنْ أَحَبِّ وَدَعْ كُلُّ مَنْ فِي الْوُجُودِ يَرْمِي بِسَهْمِهِ
 لَا أَبَالِي وَإِنْ أَصَابَ فُؤَادِي إِنَّهُ لَا يَضُرُّ شَيْءٌ مَعَ أَسْمِهِ
 وَفِي الْقُرْآنِ فِي جَنْبِ نَبِيِّ اللَّهِ [يُونُسَ] عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
 الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٠١﴾ لَآلَتْ فِي بَطْنِهِ إِنْ يَوْمَهُ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

وَمَنْ تَكُنْ هُمُ تَسْمُوا بِهِ الْهِمُّ
 وَنَظِيرٌ فِي سَوَى مَعْنَاكَ حُقُّ لَهُ يَنْقُصُ مِنْ جَفْنِهِ وَفَوْدَمُ
 وَالسَّمْعُ إِنْ جَالَ فِيهِ مَنْ يُحَدِّثُهُ سَوَى حَدِيثِكَ أَمْسَى وَفَرُّهُ الصَّمَمُ

العهد الرابع

أَنْ لَا يَقُومُوا مُسْرِعِينَ إِذَا فَرَّغُوا مِنَ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ أَجْمَعَ أَهْلُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ
 عَلَى أَنْ مِنْ عِلَامَةِ عَدَمِ قَبُولِ صَلَاةِ الْمُصَلِّي قِيَامُهُ مُسْرِعاً إِذَا فَرَّغَ مِنَ الصَّلَاةِ، مَعَ
 تَقْوِيَتِهِ نَفْسُهُ صَلَاةَ الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَيْهِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «إِنْ
 الْمَلَائِكَةُ لَتَصَلِّيَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ
 ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ»^(١) وَلَوْ بِالْكَلامِ فِي الدُّنْيَا، وَدَعَاءُ الْمَلَائِكَةِ مُسْتَجَابٌ.

كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]،
 حَتَّى بِمَحَبَّةِ الدُّنْيَا، وَحُبِّ الْمُحَمَّدَةِ وَالْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ. وَكُلُّ مَا يُخِلُّ بِكَمَالِ
 الْحَضُورِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ سُكْرٌ يَمْنَعُ دُخُولَ حَضْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْخَاصَّةِ.

العهد الخامس

عَدَمُ إِهْمَالِ أَوْرَادِ الصَّلَاةِ كُلِّهَا كُلَّ وَقْتٍ وَقَتٍ، فَإِنَّهَا أَوْرَادٌ نَبَوِيَّةٌ فِيهَا فَضْلٌ
 عَظِيمٌ، لَا تُتْرَكُ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْمَسَاجِدِ مِنْ «صَحِيحِهِ» (٢٧٣)، وَالنَّسَائِيُّ (٥٥: ٢)، وَالْإِمَامُ
 أَحْمَدُ فِي «الزَّهْدِ» (٢١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يَعْلَمُ أدويةَ الأمراض التي في الذات إلا من خَلَقَ فيها الأمراض،
والذي أنزل الداءَ هو الذي أنزل الدواءَ سبحانه، فإذا أهمل تَرْتُبُ من ترتبات
الشرائع تكاففت الأمراض، وعز الدواء.

سيما إن طلبنا الأدوية من يطار، أو / ٢ / صَيَّرَفي، أو حداد، أو حائك،
والحال أنها أنزلها الوحي ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

العهد السادس

عدم ترك المذاكرة صباحاً بعد قراءة حزين من القرآن الشريف، تقع
المذاكرة في «المهود»^(١)، أو في كتبنا، ولو ثلث ساعة، وكذا قبيل الغروب،
فإن محلاً يحضره الروح الأعظم جدير أن يُعَمَّرَ دائماً ويُستَعْبَدَ في أرجائه.

ومن لي بأن ترضى... إلخ.

وأما بين العشائين فلا يُتْرَكُ التدريسُ لرسالة ابن أبي زيد^(٢)، فإنها تُورِثُ
الغنا، و

يا ضيعةَ الأعمارِ تمشي سَبَهَلاً !

العهد السابع

اتركوا الأوهامَ وسوءَ الظنونِ بالله تعالى ورسوله الكريم وأوليائه، فإن كان
الإنسانُ يعتقد أنه على الحق، فليترك البحرَ رَهْواً^(٣)، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِ رِزْقٌ غَيْرٌ مَكْنُونٌ ﴾

(١) أي: «المهود المحمدية» للإمام الشعراوي رضي الله عنه.

(٢) هي رسالة ابن أبي زيد القيرواني - رحمه الله تعالى - في الفقه المالكي.

(٣) أي: ساكناً، والمعنى: وليكع الشأن على أصله دون تمكير.

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَأَقْنِصُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ
الْمُحِيزُ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَأَقْنِصُوا بِاللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿لَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والدنيا بقوادها، وعُمَالها، وقضاتها، وأماناتها، فعليكم بالله وحده، ﴿قُلْ
اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكذا يوم الجمعة، فعهدُ الله بيننا لا تركوا المذاكرة، وقد قال الصحابي:
«والله لو أوصلونا إلى بحرٍ لعللنا أننا على الحق وهم على الباطل».

تَبَالَه قَوْمِي إِذْ رَأَوْنِي مَتِيماً وقالوا: بِمَنْ هَذَا الْفَتَى مَسَّهُ الْخَبَلُ
وماذا عَسَى عَنِّي يُقَالُ سَوَى: غدا بُنِعْمَ لَهُ شُغْلٌ، نَعَمْ لِي بِهَا شُغْلُ
إِذَا أَنْعَمْتُ نَعْمٌ عَلَيَّ بِنَظَرَةٍ فَلَا أَسْعَدْتُ سَعْدِي وَلَا أَجْمَلْتُ جُمْلِي^(١)

العهد الثامن

لا تغفلوا عن أوراد الليل والنهار، فإن فيها السعادة الدينية والدنيوية،
فهي «عمل مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ»، «ها دنيا اخدمني مَنْ خدمني وأنعمي مَنْ
خدمك».

وَيَا لَيْتَ الْإِنْسَانَ إِذَا أُقْبِلَ عَلَى الشَّوْقِ لِلدُّنْيَا هَذِهِ الْمَدَّةَ وَلَمْ تَحْصُلْ مِنْهَا
عَطْفَةٌ أَنْ يَتَشَوَّقَ لِرَبِّهِ وَلِرَسُولِهِ وَيَنْظُرَ هَلْ تَحْصُلُ عَطْفَةٌ أَمْ لَا؟

(١) الآيات من لامية ابن الفارض رحمه الله، التي مطلعها:

هو الحبُّ فأسلمَ بالحشَا ما الهوى سَهْلُ

فما اختارة مُضْنَى بِوَ وَلَهُ عَقْلُ

وهي في «ديوانه» ص: المطبوع.

العهد التاسع

كُلُّ مَنْ عُيِّنَ لَهُ خُطَّةٌ^(١) أَوْ عُيِّنَ لَهُ شُغْلٌ فَلْيَلْزِمْنَهُ، وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَمْ تَنْتَظِمْ الزَّوَايِدُ الرِّبَاطِيَّةُ إِلَّا بِهَذَا الْعَمَلِ، فَاسْتَقَامَتْ لَهُمُ الْأَحْوَالُ.

و«الْبُرْدَةُ»^(٢) اجْتَهِدُوا أَنْ لَا تُتْرَكَ، فَإِنْ ذَكَرَ الْكَمَالَاتِ الْمَحْمُودِيَّةِ يَطْفِئُ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ لُطْفُهُ.

واعتجبا! النفسُ الأَمَّارَةُ تنفر على صاحبها إلى أن يصيرَ الرئیسُ مرؤوساً، والمتبوعُ تصيرُهُ تابعاً، وأی شيء هي الدنيا بحذافيرها حتى يقعَ تكذُّرُ الأخوةِ الدينية من أجلها! فكيف بما لا یسمن ولا یغني من جوع!؟

وكيف يُعَاب على الولاية عدمُ تنظيمهم لأحوال الرعية على اتساعها في الجملة، ولا تلومون أنفسكم على عدم قدرتكم على تنظيم زوايتكم، وهو أذرع، أو شؤون داركم، وهي كذلك.

فالمراقبةُ رأسُ الأعمال، وحسنُ الأعمال، وروحُ الأعمال، وزینُ / ٣ / الأعمال، ومادةُ الأعمال، والعونُ على الأعمال، وعُنْوَانُ قبول الأعمال، وهي أقوى عُرَى الدين؛ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

العهد العاشر

أَنْ لَا تَتْرَكُوا أَوْرَاداً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:
إِذَا الْأَحْبَابُ فَاتَهُمُ التَّلَاقِي فَمَا صَلَّاةٌ بِأَعْظَمَ مِنْ كِتَابِ

(١) خُطَّةٌ: أي وظيفة.

(٢) «البردة» للإمام شرف الدين البوصيري الصنهاجي رضي الله عنه، في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وللمؤلف رحمه الله تعليق عليها.

(٣) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد قال جلالُ النبوة لأبي المواهب: اشتغلتَ عنا بورئداتك. والقرآنُ مرتعُ الأولين والآخرين، وفيه عجائبُ مَنْ قبلنا، وخبرنا وما بعدنا، فكيف نشتغل بغيره؟ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمِكْنَ بِيْنَهُمْ إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [المنكوت: ٥١]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

العهد الحادي عشر

مكارمُ الأخلاق النبوية التي لا تنصلح الأمورُ إلا بها، وهي أن تصلوا مَنْ قطعكم، وتعفوا عمن ظلمكم، وتعطوا مَنْ حرَمكم.

وتأملوا وصفَ عبادِ الرحمنِ إلى آخر الآيات [الفرقان: ٦٣-٧٧]، ووصفَ المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون... [المؤمنون: ١-١١] إلى آخرها، ووصفَ سورة التوبة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ إلى آخره [التوبة: ١١٢]، فتفهموا معانيها، وتدبروا أسرارها، واطلبوا [منه] - جلَّ اسمه - أن يعينكم على العمل بما فيها ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُفَرِّقْ بَيْنَ رَبِّهِ لَمَّا﴾ [الكهف: ١١٠].

واستودعكم الله



النفايس الكتانية

١٠

الأمالي في علم الأمهات

تأليف

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

الاتفاق لجمع علم الاماكن

للسيد الكبير والعارف والاشم ختم المعارف والافعال
وميد العزيم البصر مولانا محمد بن ابي الكيم لعارف الشيم
ابن الكارم والشيخ مرانا عبد الكيم الكلي المحتسب اذ ربي
نبتنا الله بهما وانا غاد علينا من ترك اتقنا ايمى

١٠ في الجوارح انهم انشغلوا علينا في غريبنا مكرانا ما فتنوا غزرا
 والختم الرسالة بربها، فلما كان رسول الله يفر من مجلس اؤد غاب
 بن غلبه اللبس انهم لنا من خشيتنا ما نعرفون، وبيننا وبينهم
 كما عظم ما نعرفنا به جنتنا، ومن لا يفهم ما تورب علينا مطايا التريسة
 وصنعنا بالسمعنا وانظرنا وفرتنا ما اغيبتنا واجعلنا الوارثا ما واجعل
 ثارنا على من كلفنا وانظرنا على غافانا وما جعل مصيبتنا يدينا ولا نجعل
 التريسة التي هنا ولا مبلغ علينا وان تسلك علينا بزمنا من كرمنا والالتزم
 وقال خير شمس غروب وبر غمر، نبرتنا غمر الله من زنا ولا تصفنا
 في التريسة من تسنا واعكنا ولا تفرنا، اثرتنا وما تورب علينا ولا تفرنا
 رزاه احمد والتمس في

لا فباينك من كرمي وفسر في ورش عفت، اياتك من زمان لا
 والسلم عليكم ورحمت الله وبركاته في مرحة كالتة المرفع رضى الله تعالى

عنده وخطابه امين
 الحوشية في الاماني والفضلاء والسلم على خير البشر في قلب الله وهما به جمع
 اقايد ما حاذوا الكتاب الشريف لما كعب قل ما ذا انشكرا لغيره وهو غيبة التحية ونف
 مناجاة على ربه المرفع ثم تنفيم ثم بقول الله في كتابه المرفع والتمس في المرفع انجيل
 ملزمة اولي

صواب	خطا	سج	وجه
ومن	وانا	21	70
ابايم وعشائرهم الزعيم القيامه	ابايم وانما	00	80
لا امة لا اشياء ولا معة ما لم	لا ايشيه ومفاج	12	00
لا ايشيه معة او مفاج	بالكل	17	00
بلطيل			2 ملزمة ثانية
مع حاة	مع حاة	02	30
المفقات لمر	المفقات لمر	05	00
ومفتحة	ومفتحة	02	00
ومن	ومن	07	40
انساب	الساب	08	00
يفاييس	يفاييس	10	60
ممروركم	ممروركم	08	70

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأمالي في علم الأممات

لمحمد بن عبد الكبير الأحمدى الصديقي الكتاني
جواباً عن مسألة

الحمد لله الذي لا ينبغي الحمد إلا له، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبوة والرسالة، المبلغ لنا عن الله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرِيْدَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وعلى آله وصحابه الحكماء الرحماء النجباء العلماء النقباء، الناقلين لنا عنه: «مَثَلُ أَمْنِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ»^(١)، فلو كنتموا شيئاً من الوحي لكنتموا هذا، لما فيه من شِيمَةِ الإنصاف وإعطاء المراتب حقها، مع علمهم أنهم بمرأى ومسمع ممن جُمع فيه كمال جميع الدوائر الإلهية والأسمائية والصفاتية، ولم يُقْتَبَسْ كمال من الكمالات

(١) أخرجه أحمد (٣١٩: ٤)، والبخاري (٢٨٤٣)، وابن حبان (٧٢٢٦)، والطبراني (٦٤٧)، وله شواهد عدة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٦٨): «ورجال البزار رجال الصحيح غير الحسن بن قزعة، وعبيد بن سلمان الأعز، وهما ثقتان، وفي عبيد خلاف لا يضر». قلت - الناشر -: قد ضغفه النووي في «فتاويه» ص ٢٨٢، لكن تعقبه الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ٣٧٥، ونقل تحسينه عن ابن عبد البر. اهـ.

الغيبية أو الكونية إلا وليست مقتبسة إلا من مشكاة باطنية سر سيدنا محمد، سواء الأوائل والأواخر، وشرفوا بمكافحتها بدون حُجْزَةٍ ولا حجابٍ إلا ما كان من لطيفة السيف في غمده: العلم الأوسي^(١).

فارض اللهم عنهم، وزدْهم من رضى نبيك عنهم، وعلينا وأحبابنا معهم يا ربَّ الأرباب.

هذا وقد ورد علينا سؤال من عند أخينا الولي الحميم، الصفي الكريم أبي العباس سيدي أحمد بن محمد بن الطيب الفلالي^(٢)، غفر الله لنا وله، في الجواب عن: اصطكاك وجوه تابشير تَبْلِيلُ بِهَا أَذْوَاقُ أَهْلِ الْكَمَالِ مِنْ كَوْنِ كُلِّ مِنْهُمْ يُعْتَوُّ أَنْ لَا رَتَبَةَ إِلَّا رُتَبَتُهُ، وَلَا مَشْرَبَ فَوْقَ مَشْرَبِهِ، وَلَا حُلَّ تَفَرُّغٍ عَلَى أَحَدٍ أَشْرَفَ مِمَّا كَسَبَهَا هُوَ، وَلَا مَعَارِجَ تُنْصَبُ لِلرُّقْيِ فِي مَدَارِكِ الْمَعَارِفِ وَالْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَةِ إِلَّا مَا نُصِبَ لَهُ، ثُمَّ يَأْتِي آخِرُ فَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ أَعْظَمَ.

فكيف يفهم مغزى هذا المنحى، وكيف يكشفُ النقابُ عن هذا المرمى؟!

فنقول مستمداً من حضرة البسمله، وقد سميت الرسالة:

(١) أي: العلم المأخوذ من باطنه صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) هو العلامة العارف المشارك الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن الطيب الفلالي الجاوزي الإدريسي الحسني، أحد أساتذة جامعة القرويين المشرقة، ومن أخص تلامذة وأصحاب المصنف رضي الله عنه، أخذ عن كبار علماء فاس خاصة شيخ الجماعة أبا عبد الله محمد بن المدني گنون، وشيخ الجماعة أبا المواهب جعفر بن إدريس الكتاني الحسني، وبشره المصنف رضي الله عنه بمقامات عالية في التصوف، كان عابداً زاهداً قواماً صواماً، إماماً من أئمة العلم، ترك عدة مصنفات منها كُنَاشَةُ حَافِلَةِ غَزِيرَةِ بِالْعُلُومِ مَلَاهَا بِسْمَاعَاتُ مِنَ الْفَقِيهِ گنون، والإمام أبي الفيض - رضي الله عنه - وغيرهما من مشيخة فاس، وهي بين يدينا، وله منظومة في ألف بيت في ترجمة شيخه الإمام أبي الفيض - رضي الله عنه - رائعة في بابها، طبعت بالمطبعة الحجرية بفاس. واسمها: «الْقُنْيَةُ الْفَرِيدَةُ»، وله غير ذلك، وقد توفي رحمه الله ورضي عنه بتاريخ ٨ ذو الحجة ١٣٢٤هـ.

الإمالي في علم الأصهار

وقد اشتملت الرسالة من العلوم على اثنين وتسعين علماً بحمد الله، لا بحمد أحد، والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

[المقدمات]

ولكن لا بد من تقديم مقدمات /١/ غامضة، منها وعنها وبها يتشبه العلم بالمواطن حتى تُنزل الأشياء منزلتها، ولا نُخسر في الميزان كما لا نُهمله أولاً، كما لا نطنئ فيه.

فاعلم: أن الكلمات الهائلة لا تخلو إما أن تصدّر عن عالم عارف بأفانين العلوم وأساليب الكلام ومن أين انتشأت العلوم من الدوائر الغيبية، وما وجه المناسبة الكونية التي تطلبها، وما الحقيقة التي اقتضتها، وما الدوائر الأسماوية المنفعلة عنها. ووجه ملاحظتها ومشاراتها من جنس ما انتشأت منه وعنه، لا من جنس النظر والفكر، فذلك لا يسلم من الخطأ عند أهل الكشف، لِمَا أن كل شيء لم يُتلقَ عن أصله فالغالب شوبه بالشوائب.

ويكونُ أعرف أهل وقته بالسنة ومواطنها وما تقتضيه رتبته، وأعرف الناس بأسرار الحضرة الأحمدية^(١) الغيبة المطلّسة عن أهل التقليد في علم الأسرار،

(١) الأحمدية: هي مقام يستقي فيه السالك من مشكاة باطنه ﷺ، وهي أخضر وأعمق من الأمداد المحمدية، حتى أنكر بعض كبار العارفين إمكانية استمداد أحد من الخلق منها، وكان المصنف ممن جاهر بالاستمداد منها - رضي الله عنه - والخوض في لججها، والذب عن ذلك في كثير من مصنفاته. وانظر الاختلاف في ذلك في كتاب: «جلاء الأصداء من القلوب الغيبية»، في بيان إحاطته عليه الصلاة والسلام بجميع العلوم الكونية المجلد الثاني، (تحت الطباعة)، وهو في ثلاثة مجلدات كبار، تأليف ابن خال المصنف، شيخ الإسلام محمد بن جعفر الكتاني الحسني رضي الله عنه. ومن تكلم عن الختمية الأحمدية بالخصوص والختمية في العموم نجل المصنف، الإمام محمد الباقر رحمه الله تعالى في كتابه «الروضة الندية في إثبات السقي من الحقيقة الأحمدية»، بما لا يوجد في غيره، وهو مخطوط.

الناس بحقائق النفوس وبحقائق الأرواح، وحقائق أرواح الموجودات على اختلاف مراتبها في العلم والطبيعة، وما يقتضيه منها العالم وما يطلبه منها الفاعل، لأن الحضرات الأسمائية من باب النسب التي لا تُعقل إلا بين اثنين، فقار لمن؟ ورحيم وتواب على من؟ وشكور لفعل من؟ وعليم بمن؟ ومهيمن على من؟ فلا بد من الفاعل والمنفعل عنه، وهذا علم طام واسع الذيل.

وأعرف الناس بحقائق الأشياء على اختلاف مراتبها، فإن كان هكذا، والآخر كذلك؛ فيحتاج للجواب دفعا للتعارض الواقع بين كلاميهما، لأنه بان أن لا يُهمل واحد منهما لما اشتمل عليه مقامه من جمعية المراتب والكمالات، فما مثل واحد منهما أن يُهمل.

وأما إن لم يكونا على هذا النسق؛ فلم يَدْخُلَا حتى يُحتاج لإخراجهما، وإن لم يتكافأ بأن كان فيهما الفاضل والمفضول، فالتعادل والتراجع معلوم.

ولا مفاضلة عند العقلاء إلا بالعلم أو الشرف الطيني والديني، والمراد بالعلم ما قدمناه آنفاً بشريطته.

وإن تكافأ فمن لا وسع عنده في العلم أو رب التحامل ربما يَغْمِصُ حق واحد منهما.

والقول الفصل ما يتلى عليك في صورة وصول:

وَضِلُّ

[الموجودات من حيث هي مرتبطة بحضرات الأسماء والصفات]

اعلم أخي أولاً أن الموجودات من حيث هي مرتبطة بحضرات الأسماء والصفات ارتباط السبب والمسبب، وارتباط الفاعل والمنفعل عنه.

وصل

[مقتضيات الأسماء والصفات في نفسها ليست متحدة]

ولتعلم ثانياً: أن مقتضيات الأسماء والصفات في نفسها ليست متحدة، بل مقتضياتها بحسب ما تُعطيه رتبة الاسم، وبحسب / ٢ / ما يُطلب، وما يُطلب منه، وأعرف فيمن وجه مقتضاه: هو مقتضاه، ومن وجه مقتضاه بحسب من يُطلب من يفعل له نظير ما قيل: لَوْنُ الماء لون إنائه.

وَمَنْ فَهَمَ هَذَا الْعِلْمَ أَيْقِنِ الْمَعْنَى الْمُرَادَ مِنْ آيَةٍ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [النار: ٥٦]، وآية: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلَئِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فإن بين الأيتين تشكيكاً طالما سألنا عنه الفقهاء، وَنَمَكْتُ فِي تَبْيَانِهِ أَوْقَاتاً وَلَا يَفْهَمُونَ مَغْزَانَا.. تأمل.

وصل

[مقتضيات الأسماء والصفات متحدة في مدلولها]

واعلم ثالثاً: أن الأسماء والصفات وإن كانت مقتضياتها من وجه متباينة، فهي متحدة في المدلول من وجه آخر.

فمن قال: إن الاسم عين المسمى، فلا يبعد أن يبنى على هذا النسق، ويتجه أيضاً على هذا أن لا يُخصَّص اسمُ الجلالة بالجمعية، فيقال: إنه اسم جامع، بل جميعُ الأسماء جوامعُ باعتبار اتحاد مدلولها كلية لا كلاً.

ومن هاهنا يتجه قول من قال: لا يصح التخلُّق بأخلاق الله، من المتكلمين، فهذا ملحظه.

وهذا علم كالقانون يُنتج لك علوماً، منها:

- علمٌ مَنْ قال: «كُلُّ مجتهدٍ مصيبٌ» وما ملَّحظه،
- وعلمٌ مَنْ قال: «المصيبُ واحدٌ»، وما مثارُهُ،
- وعلمٌ الأصوبِ مِنَ القولَيْنِ، أو هل المصيبُ مخطئٌ من وجهٍ أو المخطئُ مصيبٌ من وجهٍ،
- وعلمٌ الحضرة التي تعطيك هذا الوُسْعَ،
- وعلمٌ افتقارِ الممكنِ للمؤثِّرِ، وسرُّ افتقاره للواجبِ عندَ المتكلمين.
- وعلمٌ ذلك عند أهل الحقائق، والفرقِ بين افتقارِ الممكنِ مِنْ حيثُ هو، وافتقارِ العَرَضِ لِمَنْ يقوم به، وهل افتقارُ العَرَضِ كافتقارِ الجَوْهَرِ،
- وعلمٌ افتقارِ الجوهرِ مِنْ حيثُ هو جوهرٌ، وافتقارِ العَرَضِ مِنْ حيثُ هو عَرَضٌ، وافتقارِ عالمِ الإمكانِ مِنْ حيثُ هو إلى الواجبِ الوجود: هل هو متفاوتٌ فيكون من قبيل المشكك، أو: الجوهرُ لَمَّا أُقيِمَ في مظهرية الافتقار إليه هل يشرُّ عليه ذلك سيادةً في نفسه لأنه لما احتيجَ له صارَ كأنه مدبِّرٌ؟ فتَنقَضُ عبوديته في نفسه مِنْ حيثُ ما شغلَهُ من التعاظمِ؟!،
- وعلمٌ أن كَوْنَ العَرَضِ أيضاً لَمَّا كان من الأشياءِ فإنه يسبِّحُ بحمده، فهل تسبيحُه يقاومُ الجوهرَ بمالهُ مِنَ العِزَّةِ أم لا؟،
- وعلمٌ ما يترتب على هذا،
- وعلمٌ أن كَوْنَ جميعٍ من يُطلق عليه الشيءُ فهو حيٌّ حياةً حقيقيةً مقاليةً لا حاليةً، ومنه ما في الحديث: «لا يسمع مدئُ صوتِ المؤذِّنِ شجرٌ ولا حَجَرٌ إلا شَهِدَ له بذلك يومَ القيامة»^(١)، ولا يشهد بالتوحيد من ليس بحيٍّ دَرَاكِ مُحِسٍّ عالمٍ، فما أَخَجَبَنَا عن الله وما أَجْهَلْنَا بالله! وفي الحديث: «يقول الثوبُ الوسخ

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١٨٣)، والإمام أحمد (٦: ٣، ٣٥، ٤٣)، والبخاري (٦٩)، (٣٢٩٦)، (٧٥٤٨) بمعناه. والنسائي (١٢: ٢) في «الكبرى» (١٥٢٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لصاحبه / ٣ / : إن كنت مؤمناً فاغسلني^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِيُجْلُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، فانظر قوله: ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ومنه قوله: ﴿قَالَتْ تَمَلَّ بِتَأْيُهَا الْكَمَلُ أَدْخُلُوا مَنْكِحَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ وَهُزْ لَا يَشْرُونَ ۝﴾ [النمل: ١٨]، ومنه قول الهدهد حكايةً عن حال بلقيس: ﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]، فانظر كيف عَلِمَ الهدهد حقيقة التوحيد وأنه ينافي الإثنينية، فلا يعبد غير الله لمن ادعى الإيمان به.

ومنه قوله - أي موسى عليه السلام -: «ثوبي حجر، ثوبي حجر»^(٢)، أي: يا حجر، والحجر فارٌّ بثوبه، فالأمر مُعْجِزٌ في حالة اقتضائه، وإلا فالحجر حيٌّ قبل تلك الواقعة، لكن لعدم المقتضي لم يفعل ذلك، والبساط طویل فدونك القرآن فإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغديق.

- وعلم سرُّ حجاب هذا العلم عن الأذان والأبصار مع أنه معينٌ على أداء حمل التكليف على وجهها لو كوشفوا به، كما تنزجر الناس إذا كلمتهم الدابة آخرًا، قال تعالى: ﴿وَلِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [النمل: ٨٢]، فلا ينفعهم تأويل القرآن إذ ذاك ويقولون: إن التسييح بلسان الحال، فقد أيقنهم الحق آخرًا وإن أبطن حقيقة الأمر عنهم أولاً، وما أيقنوا به آخرًا أيقننا به أولاً.

فكم شاهدنا من هذا في بداية دخولنا للطريق وما لا نحصره، حتى عَلَّمَتْنِي الجماداتُ عندَ الناس علمَ المراقبة مع الله، وعلمَ المراقبة مع الخواطر المُخْتَلِجَةِ

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه أحمد (٣١٥: ٢)، والبخاري (٢٧٨)، (٢٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فينا، فلا تدخلُ إلا وأنا على حالةٍ حسنة، بمجرد ما تداخلني الخواطرُ تنكّيفُ بالحالة التي وجدتُ عليها قلبي، فلا تخرجُ إلا وهي على صُورِ حسنةٍ يتهج بها كل رائيها إلى أن تُزفَعَ مع العمل الصالح الذي يرفعه الله، وبهذا كان صالحاً لا بغير هذا العلم، وعلمُ المراقبة مع علمِ التكليف جملةً، لانا حملناها أولاً جراً على الله، لأنها ما أمَرنا بها تحتيماً وإنما عُرِضَتْ علينا، فأما الإنسانُ فادعَى أنه يقدر على حملها فوَكِّلَ إليها، لِمَا في الحديث: «من طلبَ الإمارةَ وُكِّلَ إليها، ومن لم يطلبها أُعِينَ عليها»^(١).

فعلمتني الجماداتُ لَمَّا شاهدتُ حياتها الأدبَ مع التكليف من حيث هي، ولأجل هذا سَمَّانا الحق: ظلوماً جهولاً، فافهم.

— وعلمُ التكليف، وقد أوضحتُ هذا في: «البحر الخضم»^(٢) بما لم أَرَهُ لغيري من العارفين.

— وعلمُ أَنْ تسيحَها: هل هو واحدٌ أو كل نباتٍ بل كل موجودٍ له تسيحٌ خاص، وهذا العلمُ أقمْتُ فيه مدةً وأنا / ٤ / بمراكش، وكم اقتحمتُ عليه من أخطار.

— وعلمُ أَنَّ المرؤوسَ قد يستخدم الرئيس، وذلك شرفٌ للرئيس ولُبٌّ من المرؤوس لا نقصَ فيهما،

— وعلمُ ارتباطِ العالمِ العلويِّ بالعالمِ السفلي،

— وعلمُ ارتباطِ العالمِ العلويِّ بالعلوي،

— وعلمُ ارتباطِ العالمِ السفليِّ بالسفلي،

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢) وغيرهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) هو كتاب «البحر الخضم في شروط الاجتماع بالنبي الأعظم ﷺ» للمصنف رضي الله عنه.

- وعلمُ ارتباط العالم الشريف المتكثّر بعُنصرٍ واحد، وقد لا يكون شريفاً،
- وعلمُ الارتباط الروحاني مِن حيثُ العِشق،
- وعلمُ ما الذي يقتضي وجودَ التأخي في العالم،
- وعلمُ ما الذي ينكره ولا يطلبه مع أنه الواقع، ومع أنه من السُّفاسف في النواميس الحُكُمِيّة، فأحرى في الشرائع الوضعيّة.
- وعلمُ الأصل في العالم هل هو الائتلاف أو الاختلاف،
- وعلمُ الأصل في التكوين: التلوين أو التمكين،
- وعلم أن التأويلَ مقصورٌ على الراسخين في العلم بخلافِ التفسير فليس من السهل الممتنع،
- وعلمُ التشاجرِ الواقع في الكون ما سببه،
- وعلمُ أن العلمَ بحضراتِ الأسماء والصفات لا يقتضي التقييدَ في الكون، وإنما يقتضي الإطلاقَ والوُسع، ومن هاهنا قيل: إن لله طرائقَ على عدد أنفاس الخلائق.
- فيا لِلْعَجَبِ مِمَّن لا يَذَرِي، ولا يدري أنه لا يدري، فهذا يُجْتَنَّبُ ولا يُخَالَطُ، لأن النظرَ إلى الغافل سُمُّ قاتل.
- ويكفي هذه العلوم، فإن تفصيلَ ما تقتضيه تلك الأُم لا يفي به الوقت.

وصلُّ

[لكل اسم من الأسماء الإلهية مقتضى]

فلتعلم رابعاً: أن الأسماء الإلهية لما كان كل اسم يطلبُ إظهارَ مقتضاه، بل كل اسم له مقتضياتٌ لِمَا أن كلَّ اسم - وإن كانت ملاحظَةُ فيه الاسمِيَّةُ الأسمائية - فقد تُلاحظُ فيه الوصفيةُ كما تُلاحظُ فيه العلميةُ الذاتية.

ومن المعنى الثاني يُعَلِّمُ أَنَّ مَنْ قَالَ إِنَّ الْأَسْمَاءَ: «الله» عِلْمٌ عَلَى الذَّاتِ فَقَطْ: غَفَلَةٌ عَنْ هَذَا الْمَلْحَظِ، وَإِلَّا فَالْوَصْفِيَّةُ مِلْحَظَةٌ فِيهِ، لِأَنَّهُ عِلْمٌ عَلَى ذَاتٍ مُتَصِفَةٍ بِصِفَتِهِ، وَهِيَ الْأَلَوِيَّةُ، كَالْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ الْآخَرِ فَكُلُّهَا مُلْحَظَةٌ فِيهَا الْعِلْمِيَّةُ عَلَى الذَّاتِ مَعَ مِلْحَظَةِ الصِّفَةِ.

فَمَا تَمَّ اسْمُ إِلَهِيٍّ يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ مُجَرَّدَةً عَنِ الصِّفَةِ، لَا، لَا مَا رَأَيْنَاهُ وَمَا عَلِمْنَاهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَأَثَّرِ بِهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ.

وَمِنْ هَاهُنَا فَاتٌ مَنْ لَمْ يَلِحِظْ هَذَا الْمَلْحَظَ عِلْمٌ:

— عِلْمٌ بِأَنْ لَيْسَ تَمَّ اسْمٌ يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ فَقَطْ بَدُونِ مِلْحَظَةِ الصِّفَاتِ أَصْلًا.
— وَعِلْمٌ أَنَّ الْوَصْفِيَّةَ مِلْحَظَةً فِي الْأَسْمَاءِ الْجَلَالِيِّ زِيَادَةً عَلَى مَا قَالُوا فِيهِ، لَيْسَ بِاسْمِ ذَاتِي بَحْتٍ.

— وَعِلْمٌ أَنَّهُ كَالْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ / ٥ / فِي الْجَمْعِيَّةِ بَيْنَ مِلْحَظَةِ الْوَصْفِيَّةِ مَعَ الْعِلْمِيَّةِ الْوَضْعِيَّةِ.

— وَعِلْمٌ أَنَّ التَّعْظِيمَ فِي هَذَا أَتَيْنُ لِمَا أَنَّ حَضْرَةَ الْأَسْمَاءِ بِهَذِهِ الْمِلْحَظَةِ تَصِيرُ أَوْسَعَ مِنْهُ - قَبْلُ - وَأَفْسَحَ أَثَرًا، لِأَنَّ الذَّاتَ حَضْرَةً بَهْتٍ وَخَرَسٍ، لَا يَصْغُ التَّلْقِي عَنْهَا مُبَاشَرَةً إِلَّا بِالْبَرَازِخِ، فَلَمَّا لَوَحِظَتِ الصِّفَاتُ صَارَتْ حَضْرَتُهُ أَوْسَعَ مِنْهَا - قَبْلُ - بِالنِّسْبَةِ لِلْآثَارِ الْكُونِيَّةِ.

وَهَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ يَنْسَبُ قَوْلَ الْأَشَاعِرَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الذَّاتَ تَفْعُلُ بِالصِّفَاتِ، لَا كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزَلَةُ مِنْ أَنَّهُ يَقْدَرُ بِالذَّاتِ وَيَعْلَمُ بِالذَّاتِ وَيُرِيدُ بِالذَّاتِ وَيَسْمَعُ بِالذَّاتِ، فَفِيهِ إِثْبَاتُ صِفَاتِ الْمَعْنَى^(١).

ثُمَّ إِنَّا لَمَّا قُلْنَا: إِنَّ كُلَّ اسْمٍ لَهُ مَقْتَضَى مِنَ الْمَقْتَضِيَّاتِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ أَسْمَاءَ الْحَقِّ كَثِيرَةٌ لَيْسَتْ مُحْصَوْرَةً فِي التَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ كَمَا يَدُلُّكَ عَلَيْهِ حَدِيثُ: «اللَّهُمَّ

(١) صِفَاتُ الْمَعْنَى عِنْدَ الْأَشَاعِرَةِ هِيَ الْمَجْمُوعَةُ فِي قَوْلِ الْإِمَامِ ابْنِ عَاشِرٍ الْفَاسِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

وَقُدْرَةُ إِرَادَةٍ عِلْمٌ حَيَاةٌ سَمْعٌ كَلَامٌ بَصَرٌ، ذِي وَاجِبَاتٍ

إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك..»^(١)، خرج لك من هاهنا نتيجتان:

الأولى: علم أن الآثار الكونية شؤونها هي مقتضيات الصفات، وعليه فلا تثبت على نحو واحد، لِمَا أن مقتضيات الصفات ليست متحدة في نفسها.
الثانية: أن الكون لا يشبه بعضه بعضاً.

وإذ وصلنا إلى هاهنا:

وصل

[التجليات الإلهية دائمة التدفق على الدوائر الكونية]

فاعلم أن التجليات الإلهية دائماً تتدفق على الدوائر الكونية، ولا تخلو لحظة من اللحظات إلا والحق خلقاً فينا على الدوام، شعرَ بذلك من شعر، وذهلَ عنه من لم يُرزقَ علمَ المراقبة.

ومن هاهنا صبحٌ لأبي حامدٍ أن يقول: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»^(٢)، لأن ما نعمة أشرف من الأسماء الإلهية المشرفة بالدلالة على مدلولها، ولا سرٌّ أفضل ولا أشرف ولا أمجد من الحضرة الإلهية.

(١) أخرجه جماعة منهم: أحمد (٣٧١٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، والبخاري (٣١٢٢) في «الزوائد»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠: ١٩٦): «ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجُهني، وقد وثقه ابن حبان». وهو جزء من حديث.

(٢) هذه المقولة وقوله لحجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه قام على معناها خلاف كبير بين العلماء، وصُنفت فيها رسائل، للمصنف رضي الله عنه، مصنف في توجيه معناها والانتصار لها، سماه: «عنوان البيان والعيان، الشاهد لليس في الإمكان أبدع مما كان»، وضمت في «خينة الكون».

فما في الإمكان أبدعُ من العالم، وليس فيه أنها تقدر على وجودٍ أبدع منه أو لا تقدر، لأننا قلنا آنفاً: «وإن الحقَّ خَلَقَ فينا على الدوام»، بل هو قال: «أبدع مما كان»، أي: سبق به علمُ أم الكتاب، ولا مريّةً أنها لا تقبل التبديل بخلاف ألواح المحو والإثبات، فافهم فإنه نفيسٌ.

وصلُّ

[التجليات لا تتشابه في نفسها أصلاً]

واعلم أن التجليات لا تتشابه في نفسها أصلاً، وإن كانت يتجلّى بها متشابهة كنعيم الجنة، فيظن الرائي والمتجلّى عليه أنها كالتّي قبلها، وأنها غيرها، وإنما وقع التشابه فيها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ مِثْلَ حُجَّتِهِ﴾ [البقرة: ٢٥]، ويا للّعجب أن الثانية تشبه الأولى، والرابعة تشبه الثالثة، والتاسعة تشبه الثامنة /٦/، وهي غيرها! فاختلفت المتجليات بها والصورة واحدة.

ومن هاهنا يُعلم:

— علمُ العصا الموسوية: هل انسلخت عن جماديتها ولبستها الثعبانية، أو لا زالت على جماديتها واختلفت عليها الصور، ولا يفهم هذا إلا من باب:

— علم النسر في الطي، والطي في النسر،

— وعلم تكافي الأضداد،

— وعلم الجمع بين الضد،

— وعلم أن لا ضد،

— وعلم أن ليس في العالم من حيث الوجود إلا متميز، ومنه:

— علمُ الكتاب الذي خرج به ﷺ على أصحابه، وقال: «هو من عند

ربكم»، وقال: «إن في هذا علمَ أسماء القبائل وأسماء آبائهم إلى يوم القيامة،

وفي الآخرة الأشقياء وأسماء قبائلهم وأسماء عشائهم»^(١)، وهما كتابان انضما على هذا وهما في يديه الكريمين! فافهم.

وصل

[لا مشابهة بين العالم]

واعلم أخي أنك إذا توغلت في هذا العلم، وصدقت أهله، ولم تحكّم العقل غير المؤيد بالكشف الصراح الذي لا يقبل الخطأ: أبقت أن لا مشابهة أيضاً بين العالم، لاختلاف طوارق التجليات عليه، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ الْفَعْلَ لَمْ يَلْمِمْ﴾ [الروم: ٢٢]، ولي في هذه الآية أيضاً دليل على حياة الجمادات، وتحققت أن تجلّي هذا لا يشبه هذا، وحال هذا لا يشبه حال هذا، ومقام هذا لا يشبه مقام هذا، وعقل هذا لا يشبه عقل هذا، وملاحظة هذا لا يشبهها هذا، كما أن الألسنة تختلف، والصور مختلفة، وكما أن الاختلاف في عالم المحسوسات كذلك في عالم المعنويات.

[الكلام على مقامات الولاية]^(٢)

ومن هاهنا تعلم أن لكل من أهل الكمال دوائر وحضرات وعلامات وعلومًا، ومعارف وفوائد وأسرارًا، ومقامات وتجليات وشارات، تناسب مقامهم الذي طُنب عليهم وختموا فيه، فإن التجلي لا يقبل في نفسه التكرار، ولا يتكرر، فما في العالم تكرارٌ بوجه.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (١٦٧: ٢) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) نكلم المصنف - رضي الله عنه - أكثر في هذا الباب، واستدل لأقواله في كتابه: «الكلام المتلالي» و«لسان الحجة البرهانية». الأول مطبوع في المطبعة الحجرية بفلس، والثاني بها بيروت.

وعليه: فلكل من الله علامات وأمارات ودلالات فيما بينه وبينه، غير أن المقامات منها الصغير والأوسط والوسط، والكبير والأكبر، وتعظم الحضرات والإمدادات بحسب شغوف المقام وعلوه.

فإن مقام القطب - مثلاً - فوق مقام الأبدال والأخيار والعمد والنجباء والنباء، لأن له علامات مع الله تعالى لا يجدونها في أنفسهم، فمن أحسن علاماته وأرشقها: أنه إذا نُصِبَتْ له صنعة القطبانية وصارت جنود السماوات والأرض تدخل عليه لتبايعه على حسب ما يعلمه أهل الفتوح الكونية؛ فإنه بمجرد ما يدخل الداخل / ٧ / عليه يُفْتَحُ عليه بعلم لم يكن عليه قبل، يُمِذُّ به الداخل عليه المبايع له، وكذلك الداخل عليه يأتيه بتحفة من الله يتحفه بها لا يعرفها هو في نفسه، كان الداخل ملكاً أو روحانياً أو حيوانياً أو معدنياً، فإنه بمثابة حامل الرسالة لا يعلم ما أكتته.

وطالما أردنا التكلم في هذه العلوم التي يُحِفُّ بها ويُحَفُّ بها فَمَنَعْنَا من ذلك عدم القلوب الصافية غير المشوية بالكدر، وأيضاً أهل السوء من الذين لا يعلمون ويُكِرُّ مَنْ يعلم، وكل هذه العلوم لا يجدها من نفسه من هو دون فلك القطبية.

والتفت أيضاً لمن هو أعلى من القطب، كالأفراد، فإن لهم مشاركة للقطب في مصدر الفيض الذي يُكَلِّفُ منه الفيض الكوني، وإن كان القطب أعلا منه في الأمور الكونية، والفرد أعلا منه في العلوم الإلهية، لأن الفرد لا يقول بشغوف تلك الرتبة بل هي عنده بمثابة خطية من الخطط لما هو عليه في نفسه من المعارف الإلهية، والنواشيء الاختصاصية، وتوارد الأحوال على قلبه.

فإن غاية محافظة القطب على ملازمة الحجاب الذي يعلم أن الحق وراءه، فيكون كالحاجب في العالم يتقذ أوامر، فليس له من الله إلا صفة الخطاب، لأنه صاحب الديوان الإلهي، لا صاحب الشهود، فلا يكون إلا من وراء حجاب، إلى أن يموت، فإذا مات لقي الله وهو مسؤول عن العالم والعالم مسؤول عنه، وهذا مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن هاهنا كان لا تصرف له في الأفراد، ولا

يخرج لهم مددٌ على يديه لأنهم أعلّوا في العلم به، وإذا حضروا في ديوانة التحكيم ربما لا يستخدمه، لأنه على بصيرةٍ من ربه لم يَرِدْ رَوَّجَانُهُ في الأمور الكونية.

ولما كانت الناسُ تعتقد أن لا رتبةً فوق القطبية تقليداً، وقعَ منهم إنكارُ بعضِ أهل عصرِهِم، لأنهم لا يجدون فيهم ما يعرفون من الأوصاف، وهم تجاوزوا ذلك بمراحلٍ فأشكَلَتْ مقاماتهم على الناس.

ثم إنَّ رُتباً أخرى من جنس الأفراد أيضاً، وهم: مفاتيح الكنوز، أيضاً من شاكِلتِهِم ورتبتِهِم.

[الكلام عن الختمية]

ثم إن [هناك] مراتبَ أخرى إلى أن نصلَ للختمية، مرتبةٌ لها الشفوف على كل الرتب وليس لرتبةٍ شفوفٌ عليها، وصاحبُها يتحقق بوطنه أقدامَ جميع الأولياء الموجودين في هذه الأمة، والأمم المتقدمين، فيلبس جلاييتَهُم، ويتضمَّنُ بعلمهم جملةً وتفصيلاً.

غيرَ أنَّ هناك دقيقة: وهو / ٨ / أنه يتلقَّى ذلك عن الحضرة المحمدية حتى لا يكون لرتبةٍ شفوفٌ على رتبته، فيكون وارثاً لجميع مقامات الولاية، من البرزخية المحمدية، ومن الجوهرة الأحمدية، ومن الدرة العنقائية، ومن الباقوتة الهيمنية، فيكون محمدِيُّ المقام حُكماً، فكما تحقَّق محمدٌ بجميع مقامات الأنبياء وأحوالها وعلومها وأخلاقها وسياساتها وكمالاتها في نفسه، تحقَّقاً وتخلُّقاً، وقد ورد في الحديث: «أعطوه خُلُقَ كذا وعلمَ كذا وشجاعةَ كذا»^(١) فانهم. كذلك يتحقق هذا الختمُ بجميع المقامات في نفسه.

(١) ذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٢١٢: ١) بشرح الزرقاني، وهو بلفظ: «أعطوه خُلُقَ آدم، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم، ولسان إسماعيل... أي رسول الله ﷺ. وعزاء للخطيب وأبي نعيم، قال: «عن ابن عباس وفيه نكارة».

[الختمية كبرى وصغرى]

يَبْدُ أن هاهنا معذرة، وهي أن الختمية كبرى وصغرى، أما الكبرى، فهي التي كانت عيناً ثابتة في الحقيقة الأحمديّة وهي منطرحَةٌ بين يدي ربها لا يخرج فيضٌ إلا عليها، ولا يُنتَشَأُ كمالٌ إلا عليها، لأنها منطويةٌ فيها، كتحقيق وجود الشخصية بما هي شخصية، وهي الإنسانية، فيكون هو البرزخ المُمَدَّد لحضرات الولاية، ولا يزال كذلك إلى أن يظهرَ عيناً، فإذا ظهرَ كان في الأرض كجبرائيل في السماء، وقد قال فيه القرآن: ﴿مُطَاعٌ﴾ [التكوير: ٢١]، ولا يُطَاعُ إلا مَنْ له الأمر، فكذلك يكون هذا في الأرض، تهرعُ إليه الأرواحُ من كل حَذَبٍ تنسِلُ، فلا تجد روحاً من أرواح الموجودات العلوية والسفلية، وكذا أرواح المولّدات الثلاث التي هي النباتُ والمعدنُ والحيوان، وكذا أرواح العناصر الأربع المركب منها البنية الإنسانية: التراب والماء والهواء والنار، وكذا الأخلاطُ الأربع: الصفراء والسوداء والبلغم والدم، وكذا الطبائع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فما من موجودٍ إلا وينجذبُ إليه انجذابَ الأشياء للمغناطيس خاصيةً، لأنه مطاعٌ، غيرَ أنه لا يفعل لِمَا أنه ﴿أَمِينٌ﴾، فهو من جملة أسمائه.

ومن جملة علومه إعطاءُ المراتبِ حقّها، وحالةُ حلوله في حضرةٍ من الحضراتِ لا يغفل عن الآلاف من الحضراتِ أيضاً ليكون عبدَ القوي، فهو من جملة أسمائه.

ويكون بإعطائه مقتضى حضرةٍ من الحضرات في تلك اللحظة أيضاً متلبساً^(١) بمقتضيات الحضراتِ الأخر وما يطلبه أدبُها، أعني: الأدب مع الله ومع السّفرة في الخواطر، ومن حيثُ الملائكةُ المهيّمون^(٢)، ومع الكتب الكرام.

(١) في المطبوعة: متلبس.

(٢) في المطبوعة: المهيمن.

ويلزمه الأدب مع الله على تكليفه أكثر مما يلزمهم مع تلطيفهم، لأجل ذلك يكون كثير العلوم، كثير الآداب مع الله، كثير الأدب مع المراتب الكونية، لا تطرأ عليه الغفلة عن الله إلا في مراتب تطرأ عليه الغفلة فيها لا يفهمها إلا أهلها /٩/، ومن سمعها يبادر لإنكارها، ومن هذا أيضاً يُسمى عبد المتين، لِمَا له من المتانة والثبات مع الله مع هذه الولوجات في عالم الأنوار، وعدم نزله وعبث طوارق التجليات به، ومن هاهنا يُسمى بعبد العظيم، لأنه على عظمة من الله كُوشِفَ بها، لو بدت ذرة منها على العوالم لأتلفتهم.

ومع ذلك يأكل ويشرب وينكح ويعطي المراتب الكونية والغيبية حقها، ومن هنا يُسمى عبد الله، وتنبعث عنه أدبيات الحضرات بحيث لو قُسمت بعض أدبياته مع الله على الخلق لوسعتهم، ومن هنا يُسمى عبد الباعث.

وتنبجس فيه الرحمة الطامة الوُسعية الامتنانية لا المُغيرة، ومن هنا يُسمى عبد المؤمن، ويعلم من الله على الأنفاس الفوائد والعلوم والمواهب ما لا يوجد عند أحد من أهل العصر، فلا تجد عندهم إلا عبارات في جوارب سقطت فيها منذ أزمان ولا ترقى لهم، ومن هاهنا يُسمى عبد العزيز.

ويُورث له ذلك من الحياء من الله ما لولا النصوص لقضينا عليه بالعصمة، لأنه يرى في الموجودات ما لا يرى فيها، فتقوم له عينُ المُعاون على التكليف، بحيث لو لم يبعث في العالم إلا وحده لأدّى التكليف الشرعية وما أهمل شيئاً منها، ومن هنا يُسمى عبد الحكيم، وهذا من أعظم علاماته التي لا تقبل الرشى. وله علامات أعظمها هذا، وهو يجده في نفسه، وقد تتحدث الموجودات بذلك، ولا يُقال إنه يكون كثير الخط عليه، لأننا نقول: ذاك هو المقام الإلهي، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩]، فعمم وما خصص.

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالنَّوَابُ﴾، ثم خصص فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ الْنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فافهم.

ومن علاماته: أن علمه لا يوجد عند غيره أصلاً، لا ممن عاصره ولا ممن قبله، ولا ممن يأتي بعده، لأنه حلٌ بجميع مقاماتهم وكُسي جميع حُللهم، واستفحلت رتبته بما أُنيط به من العناية الإلهية.

وله خواصٌ آخر، اثنان وعشرون، تمنحها العقول على عادة العلم الوهبي الذي هو من قسم علم الأذواق، فإن علامته أنه لا يقبلُ لأنه من عند الله، وهو فوق طورِ العقل، ومن حواشيه علمُ الخُصير مع موسى.

ثم إننا قلنا: إنَّ الختمية كبرى وصغرى، فإن الكبرى ما قدمناها، والصغرى تكون مرتبة أدون من الكبرى، آخذة عنها ومقتبسة من مشكاتها، وهذه تكون في كل عصر.

فلكل عصرٍ ختمٌ / ١٠ / يُختَم به مقامات أولئك أهل العصر، جبراً لكسر قلوبهم لما انقطعت النبوة، وها هنا قال الحكيم بالمراتب: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»^(١)، و«العلماء ورثة الأنبياء»^(٢).

فما مشابتهم إلا بمثابة طيرٍ بازيٍّ قفصٍ في قفصٍ وبلبلٌ حرارته الطبيعية لما نظرَ في زواوي القفص الأربع، ولم يجد فيها غيره، وآخر صارَ يبلبلٌ ويترنم، ويغني بما يفهم منه السليمانِيُّ المقام أن ليس ثمَّ في تلك الحضرة غيره، ثم يأتي آخرٌ وآخرٌ وآخر، وهلمَّ جراً، وكلُّهم مصيبون، غير أن صاحبَ الفلكِ المحيط يكون قفصه محيطاً بالأقفاص، ومقامه مشتملاً على المقامات، ورداؤه مشتملاً

(١) قال الحافظ ابن حجر وتلميذه السخاوي ومن قبلهما الدميري والزرکشي: لا أصل له، زاد بعضهم: ولا يُعرفُ في كتابٍ معتبر. انظر «المقاصد الحسنة» للسخاوي ص ٢٨٦. وقال الحافظ محمد بن جعفر الكتاني في كتاب «العلم المحمدي» (مخطوط): «لا يصح صناعة، ويصح كشفاً». قلت: ولمعناه شواهد صحيحة عدة.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٣٦)، والترمذي (٢٦٨٣) وغيرهما من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

به أهل الملاحظات، وبإعارة غنة لسانه رُئِمَتْ طيورُ المفاجآت، وعن مطارحاتِ
أشعته انفهقت مقتضياتُ الإشاراتِ والتمدُّحات، وعن عليّ رتبته انسابتُ أهلُ
المراتب والفتوحات، وبأنفاسٍ توجُّهاتِ روحانيته ترعرعتُ أفانينُ أهلِ النسمات.

فلا يدعُ في أن ادعاهما غيرُ هذا الأكبر على هذه الشريطةِ المذكورة، فما هم
إلا في صفا مَزَوْتَه يحجُّون، وإلا في محرابِ مسجدٍ تحقيقه يتظللون، وفي فَيءِ
ظلالٍ وُسعِ علومه يتقلبون، وعن روحانيته يتلقَّون ويشاهدون، وفي مرآته
يشاهدون، وبحضرته يكشفون.

وكم لنا من اجتماعاتٍ بهم^(١) في عالم الأرواح والحضراتِ الغيبية،
ونفيدهم من مسائل العلم الإلهي ما يقرؤون لنا به في عالم الأنوار والتخطيطات
الوَهبية في البقاع النورية، ونسألهم عن العلوم اللدنية فلا نجد جَوْرَبَتَهُمْ مملوءاً
بما مُلِيَء به جوربتنا، ولا عينُهم كانت تشاهدُ ما يشاهدُ فتحنأ وما يعطيه مشربنا،
ولا كلماتهم جامعةٌ ككلماتنا المنفتحة عن الحضرة الأحمدية، ولا استغراقهم في
الحضراتِ الذاتية كاستغراقنا.

ولنا وُسعٌ نكاشفٌ به في قربه من الرقائق الجبرئيلية من وُسعِ العيسوية، من
وجه الإبراهيمية، من وجه المحمدية، من وجه العلوية، من وجه الصديقية، من
وجه الآدمية، من وجه افتضُّ الأبقار العندية، ونجتاز الحضراتِ المجهولةَ
التلوينية، وننزل المراتبَ في نفسها بسببِ كِفَاحِجِينَا بأسرار الشريعة التي منها
تنسابُ الروحُ للعملِ بالتكاليف الشرعية، على نهج أهلِ الحفظِ من وجه، وأهلِ
المصمةِ من وجه.

ونكاشفُ بما يشابه عالمَ الجزاء في عالمِ حضرة العمل، ومن هاهنا يُعَلِّمُ
أن كل مرتبةٍ في العلم بالله دونَ العلم بالأمور الكونية، فإنها رتبةُ القطب.

(١) هنا يشير المصنف - رضي الله عنه - لنفسه بالختبة الكبرى.

[بعض العلوم المضمّنة فيما مضى]

/١١/ ولما قصصنا عليك ما لم يكن بالبال قصه، أنّ أن نذكر ما يتضمن هذا الكلام من العلوم:

— منها: علم ما تقتضيه الطبائع من اختلافات مقتضياتها، فيعامل كل أحد بما تقتضيه طبيعته، وجبّلت عليه شاكلته، كي لا تضرر الناس في نفسها، ولا يدخل عليها شغب في نفسها.

— وعلم مقتضيات السياسة، ومن هاهنا مع ما قبله تفهم سرّ ما بلغك في الأحاديث من أنه ﷺ كان يوقظ فاطمة وعلياً عليهما السلام للصلاة في الليل^(١)، وأخبر أن عائشة تعترضه في عرض الوسادة كالجنازة ولا يوقظها للتهجد^(٢)، وأخبرنا أنه قال لأبي بكر: «ارفع قليلاً»، ولأبي حفص: «اخفض قليلاً»^(٣)، وقال: «نعم الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلي من الليل»^(٤)، وقيل في أبي بكر: «ما فاتكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام، وإنما فاتكم بشيء وقر في صدره»^(٥).

وأوصى أبا هريرة أن لا ينام حتى يوتر، ويصلاة الضحى وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر لا غيره^(٦)، وخَصَّ حذيفة بالسر لحقيقة تطلبها

(١) كما في البخاري (١١٢٧) (٤٧٢٤)، ومسلم (٧٧٥) من حديث علي عليه السلام.

(٢) كما في أحمد (٥٨٦)، ومسلم (١٣٥)، والنسائي (١٠٢:١).

(٣) الترمذي (٤٤٦)، وذلك في باب ما جاء في القراءة بالليل، وأبو حفص هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوار الأصول» (٥:٤)، من كلام بكر بن عبد الله المزني.

(٦) أخرجه أبو داود (١٤٣٢)، والحكيم الترمذي «نوار الأصول» (١٩٥:٣). وفيها أي «النوار» أنه أوصى ﷺ بذلك عويماً.

طبيعته^(١)، وأسرّ لبعض أصحابه أذكّاراً، وقال لرجل استوصاه: «لا تغضب»^(٢).
وقال لآخر: «ليكن لسانك رطباً من ذكر الله»^(٣)، ولآخرين تنوّعات حقائق لما
سألوه عن أفضل الأعمال، كلّ وما تعطيه رتبته، بحيث لو لَقَّنه غيرها لما انقاد
ولمّا انفعَلَ لها.

— ومنه علمُ أنّ القرآنَ رسائلُ إلهيةٌ للخلائق، وهو علمُ شريف.

— وعلمُ سرِّ تكريرِ النَّائِيَةِ^(٤) للذين آمنوا المرات المتكاثرة.

— وعلمُ خَطِّ أهلِ هذا المشهد من آية: ﴿كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الَّذِينَ
جَعَلُوا الْقُرْمَانَ عِصِينَ^(٥) [الحجر: ٩٠-٩١]، ومنه استفهامُ حارثةٍ عن حقيقة دعوى
الإيمان^(٦)، ومنه شهادته لأبي بكرٍ وعمرَ بالإيمان في قضية البقرة^(٧)، وأمر
حكيم بن حزام بالتسبب^(٨)، وقال لآخر: «قل الله ثم استقم»^(٩)، وقال لآخر:
«اعقلها وتوكل»^(١٠)، ولآخر في ثمرة طلبها: «ولو لم تأنها لأنتك»^(١١).

(١) انظر البخاري (٣٧٤٢، ٣٧٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أحمد (٤: ١٩٠)، والترمذي (٢٣٢٩) وقال حديث غريب من هذا الوجه، وابن ماجه (٣٧٩٣) بلفظ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى» عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

(٤) النَّائِيَةِ: قوله تعالى: (يا أيها).

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٤: ٧٤).

(٦) أخرجه البخاري (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨) من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه الترمذي (١٢٥٧)، وأبو داود (٣٣٨٦) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٨) أخرجه أحمد (٤١٣: ٣، ٣٨٥: ٤)، ومسلم (الإيمان: ٦٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

(٩) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس رضي الله عنه.

(١٠) أخرجه ابن حبان (٣٢٢٩)، والطبراني، قال الهيثمي في «المجمع» (٤: ٧١): «ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة مأمون».

ونهى عبد الله بن عمرو عن سرد الصوم^(١)، وأقرّ عليه حمزة بن عمرو الأسلمي^(٢)، وغير هذا من تشعّبات ترتيياته، ولتُطلَب في كتب الأحاديث، فإنَّ علم الحديث صار كأنه يُنسخُ اليومَ بالأهواء، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. وهذا أحسنُ شيءٍ تُحمَلُ عليه مواردُ الأحوال وتشعّباتُ طرائقها.

— وعلمُ سبب اختلاف القوابل في العالم.

— وعلمُ التنزلات الإلهية للعالم، وإن كان القولُ به لا يُعْضِدهُ التحقيقُ في الجملة، لكن من هاهنا على القول به انتشأ.

— وعلمُ الاختلاف الواقع في الكون ما سببه.

— وعلمُ ما يُحمَدُ منه إذا استند لأصلٍ ميزاني، وما يُذَمُّ منه إن أُبْخِسرَ الميزانُ فيه أو طغى فيه، وهو علمٌ شريف.

— وعلمُ /١٢/ ابتناء القول بالمصالح المرسلة الذي قال بها بعضُ العلماء على هذا الأصل،

— وعلمُ انتشاء القول بسد الذرائع من هذا العلم.

— ومنه علمُ كون البلاءِ مُوكَّلاً بالمنطق^(٣) من أي حقيقة جاءه هذا التوكيل، ولا يصح إفشاؤه.

— وعلمُ اعتدال الطبائع هل يمكن أم لا، وما وجهه إن صح، مع أنَّ العالمَ مبنيٌّ على التشاجر، وعلى صحته ما وجهه حتى قَبِلَتْهُ الكائنات؟! ومنه تعلمُ سرٌّ

(١) كما أخرجه البخاري (١١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أقر رسول الله ﷺ حمزة بن عمرو الأسلمي على الصوم في السفر كما في: أبي داود: الصيام (٤٢)، والحاكم في «المستدرک» (١: ٤٣٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٩٦: ١)، والطبراني في «الكبير» (٣: ١٧٧).

(٣) وهو متنٌ حديثٌ أخرجه وكيعٌ في «الزهد» (٣١٠)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٨٦) بلفظ «البلاء موكَّل بالقول»، وله طرقٌ كثيرةٌ كلها ضعيفة. لكن معناه صحيحٌ.

قول أنس خادم رسول الله ﷺ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ، وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتُهُ»^(١).

— وعلمُ أن ذلك مقتبسٌ من مشكاة اعتدال مظهرية الاسم: «الله»، وقد دل على ذلك في قوله: «ولكن يقول: ما شاء الله كان»^(٢)، فأعظم برتبة محمديّة جامعة اعتدلت طبائعها وتكافأت، ولم يُجعل لطبيعة من الطبائع هيمنة عليه.

ومنه تعلم سرُّ كونه ﷺ لم يُخلق من محل خط الاستواء في العالم، وإنما خُلِقَ من الحجاز مع أنه شديد الحرارة، وهل يقايسُ هذا أميته ﷺ مع كون الذي أتى به كان معجزاً أعجزَ به سحرة البيان من الفصحاء؟

— ومنه علمُ الاستحسان الذي قال به أبو حنيفة - وهو دليلٌ ينقدح في نفس المجتهد تقصُّرُ عنه عبارته - على أي مدرجة انتشأ. ومنه مسألة التخصيص في علم أصول الفقه: على أي مسلكٍ من الحقائق الإلهية ابتنى.

— ومنه علمُ المكر الخفي ودوائره ومساقطه، فإن الحقَّ جَلَّتْ عظمته ما أعلمَ ذلك الختم الذي يترنم في زواويه القفصية أنْ ثَمَّ دوائرٌ محيطَةٌ به في نفس قفصه، ودوائرٌ محتضنةٌ معاني ترنماته، ضرورةً أن التجلّي لا يتكرر، ولا يُعاد التجلّي به لا للمتجلّي عليه به ولا لغيره، ولا بدُّ من التجلّي أيضاً، ولا بد أن يكون أعلى من الذي قبله، لأنه ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

والمكرُ المذكور هاهنا هو المَعْنُونُ عنه قبلَ هذا التعبير بأن: التجلياتِ تأتي متشابهةً كنعيم أهل الجنة، وذاك من المكر الخفي في التجلّي، حتى لا يعلم ما وراءَ التجلّي الذي تجلّي به عليه، وما لم يدخل حضرةً عِلْمِيَّةً حتى يظن الناسُ أنه على رتبةٍ لا يُشَقُّ غبارها، ولو فصلَ هو فيما عبَّرَ لَمَّا وقعَ الناسُ في حَيْصَ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، (٢٧٦٨)، (٦٩١١)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

يَنصُ، ولكن التجلّي لم يكن يأتيه مفصّلاً فلم يفصّل للناس، وإنما أُجْمِلَ له التجلّي فأجمل لعائلة المستمعين.

والسرّ في هذا المكر الإلهي مما لا يُعلم، لأن العلم بالقدر ممنوع علمه في الدنيا، والبرزخ، والقيامة، بخلاف سرّ ١٣ / القدر فإنما مُنِعُوا من إفشائه.

وهذا من جملة علوم ضاق بها ذرعاً العلماء بالله، ولا وجدوا عنها مناصاً، ومن هاهنا ذاقوا في الجواهر ما ذاقته الأشعرية في الأعراض فقالوا: إن العَرَض لا يبقى زمانين. فلا تجد معذباً مثلهم في الأرض والسماء، وفي القرآن: ﴿وَمَا أَتَى مَا يَفْعَلُ وَلَا يَكْرَهُ﴾ [الاحقاف: ٩]، وفي الحديث: «شيتني هوذ وأخواتها»^(١)، والذي شتبه فيها ما دلت عليه آية: ﴿فَأَسْتَوِمُ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [مود: ١١٢]، والاستقامة إما في ظاهر العلم، وإما في باطن علم الله.

فأما في ظاهر علم الله: فقد وفّى إبراهيم عليه السلام^(٢)، فأحرى روح الخلائق سيّدنا محمد ﷺ.

ولما كان باطن علم الله لا يحكم على ظاهر علمه كان هذا سبب شيبه، وسبب قوله: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم تجأرون إلى الله في الصُّعَدَات تَلْدُمُونَ»^(٣) وجوهكم بالحجارة»^(٤).

وكم رُشّت علينا رَشَاشَات من هذا العلم، ففارقنا أهلنا وأوطاننا ومُتَمَنِّيَاتنا، ولم ندرك قوته ﷺ حتى لم يخرج بين أهله، وإن لاحظت كونه حُبّ إليه الخلاء - فكان يخلو بغار حراء - قل إنه تغرّب أيضاً.

(١) ذكره الحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» ص ٢٢٤، من مرسل أبي جحيفة التابعي، وبمعناه أخرجه الترمذي (٣٢٩٣)، وقال: حسن صحيح، والحاكم (٤٧٦: ٢) وصححه.

(٢) لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّهِمَ الَّذِي رَكَّبَهُ﴾ [النجم: ٢٧].

(٣) تَلْدُمُونَ: أي تلطمون.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨٥) ومواضع أخرى من حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما، من غير زيادة: «ولخرجتم...».

ولمّا كان هذا العلمُ يعطي هذه القواصمَ والفواصمَ والنكباتِ من علم التجليات هكذا، كان يقولُ لما حضرته الوفاة: «اللهم الرفيقَ الأعلى»^(١)، تغرباً عن مقتضى التجليات التكليفية كما غرّبه عنه فانتقل لبساط التعريف، وما فارق أيضاً من يومٍ كان في دار العلم.

وبهذا العلم قوّيَ على مكابداتِ الخلق، مع مكابداتِ التجليات، مع مكابداتِ التكاليفِ المكلف بها في نفسه، مع مكابداتِ تنزله للعقول الضعاف كي تنفذ مقتضيات الإرادة من حكمة بعثته، فيقتدر على التلقّي منه.

فمن هاهنا، أي العلمُ بهذه الفتوح الأربعة التي أوتيتها ﷺ في صورة تعبيرنا عنها بالمكابدات، يتحقّق المحقّق الكامل سرّ تعظيم الله أخلاقه ﷺ في قوله: ﴿وَلَئِنْكَ لَمَلَى خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤]، فافهم أخي فإنه من الحُورِ المقصُوراتِ في الخيام.

ومن العلم المتقدم قولُ القرآن: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

ولمّا رسخت عروقُ العلماء بالله في هذا الموطن، أيسوا من وُجدان الراحة، وتحققوا بأن خروجهم من العدم إلى الوجود لم يكن عن تجلٍّ جمالي، وإنما كان عن تجلٍّ فهري جلالي كمالٍ اختياري ابتلائي، وقد أشار لهذا في القرآن: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فهي مسألة شريفة ترتب عليها مسائلُ إلهية / ١٤ / يُحتاجُ إليها في علم التكاليف الشرعية، وينبغي عليها علمُ الرياضة، فإنه لا يُتَنى في الحقيقة إلا على هذه الحقيقة، وغير هذا مما ضاق عنه الوقت.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٨) وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

[لا بد في العالم من التجلي، وأن التجلي الثاني أكبر من الأول]

ولما علمت هذا وأحطت به خبراً، تعلم أن العالم لا بد فيه من التجلي، ولا بد أن يكون التجلي الثاني أكبر من الأول، لِمَا أَنَّ الأسماءَ في نفسها ذاتُ ترقٍ، لا ذواتُ تدلُّ، ولذلك ترى أعينُ الموجوداتِ في النمو والتكاثر بما لم يكن في الصدر المتقدم إلى أن وردَ النصُّ بانقطاع النبوة فسُدَّ ذلك الباب، وأبقيت الولاية لا تنقطع.

ومنه تعلم أن الآخرَ في العصر أفضلُ ممن تقدّمه، لأن الحضراتِ الأسمائيةَ في الترقى، فلا تأتي إلا بالأعظم والأجمع والأشرف والأكمل، طوبى لمن أدرك المائة الرابعة بعد الألف^(١).

ومن هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، ثم رُدَّ ذلك إلى الاسم: «الله»، الشاملِ لأعالي الوجود وأسافله، ورُدَّ الأمرُ إلى القدرة، وهي تتعلق بالممكن.

ومن هاهنا حُكِمَتْ أَسِنَّةُ العقول في قولة: «ليس في الإمكان أبدع مما كان» ظناً منهم أنه يقول بعجزِ القدرة، وحاشا لله، والإتيانُ بالأحسن والأفضل ممكنٌ فتعلق به القدرة، وإذا قال المبيّن عن الله في الصحابة الواردِ فيهم النصُّ بالتفضيل عموماً وخصوصاً قال بعدُ: «والذي نفسي بيده ليدركن المسيحُ حوارِيَّ من أمتي هم خيرٌ منكم، للعامل منهم أجرُ خمسين من يعمل بمثل عملكم»^(٢)

(١) نسب المؤلف - رضي الله عنه - هذه المقولة في عدة من مؤلفاته إلى نبي الله دانيال عليه السلام.

(٢) لم أمتد لصدوره، إنما أخرج عجزه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١٥٥)، وأبو داود (٤٣٤١) وفيه: «للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»، وزادني غيره: قال: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: «خمسين منكم». وانظر الترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

فكيف بمن لم يَرِدْ فيه نصرٌ وإنما أبقِيَ الأمر محالاً على القُدرة كما في آية:
﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾ [البقرة: ١٠٦]!

واتلُ أيضاً قوله: ﴿ وَخَلَقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]، مع أنه وردَ في الصحابة:
«لو أنفق أحدكم مثلَ أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»^(١)، ومع ذلك تذكّر ما
تقتضيه القدرة، بل ما اقتضته وقدرته، فقال: «وددتُ أن لو رأيتُ إخواني»،
وبكى شوقاً إليهم، فقالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: «لا، ولكنكم أصحابي»^(٢).

ومن هاهنا يُعلم أن كلَّ مَنْ سلكَ مقاماً من المقامات، وخصوصاً المقامات
العليا، والمكاناتِ الزلّفي، والرتبِ القَعَساء^(٣) فإنه لا يأتي من يطأ قدمه رأساً،
ولا يكون مثله في ذاك المقام رأساً، لِمَا أن المِثْلِيَّة تقتضي عَوْدَ التجلّي الذي
تجلّى به عن المماثل، والفرض أن ليسَ في الأمر تكراراً، ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

ومنه يُعلم علمُ: عدم التماثل، وعليه فلا يأتي مثلُ مَنْ تقدم، بل يكون نائباً
عنه، أو خليفةً عنه، لا، لا لِمَا تعطيه الحقائق، ومن هاهنا تعلمُ المانع من علم
المناسبة.

وأما مَنْ شَرَطَ المناسبةَ في الأشياء فلم يُصِبْ، لأن المناسبةَ إشعارٌ بمساواة
١٥/ في وصفٍ هو موجبُ الارتباط والعلقة بين المتصاحبين، مع أن لا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٥: ٣) عن أنس رضي الله عنه، وأبو يعلى (٣٣٩٠) دون ذكر البكاء،
وقال الهيثمي في «المجمع» (١٦٦٩٧): «وفي رجال أبي يعلى: محتسب أبو عائد، وثقة
ابن حبان، وضعفه ابن عدي وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح غير الفضل بن الصباح،
وهو ثقة، وفي إسناده أحمد: جسر، وهو ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله
رجال الصحيح غير محتسب».

(٣) أي العالية العزيزة الثابتة.

مساواة، فلا مناسبة، وفي القرآن: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الراقة: ٦١]، فمن قال بعلم المناسبة فما صدق الله في أننا بين نواشئه الاختصاصية نتقلب ولا نعلمها، فكانه هو يقول: إنه عَلمها!

كذلك علمٌ ملاحظة اصطحاب المتصاحبين، وهو غلطٌ من وجوه، وقد سهى في هذا أيضاً أبو حامد على شُفوف رتبته في العلم، فقال بالمناسبات، وفاته هذا العلم، أعني: النواشئة الاختصاصية: ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وعليه: فكل مَنْ درجَ على مقامٍ فلا يأتي إلا مَنْ هو أَفْيَحُ منه وأرجحُ وأمنى وأبرك، فلا يأتي بعدَ ذلك الختم الأكبر إلا عيسى عليه السلام.

[العلامة الكبرى للختم الأكبر]

ثم إنه تحتم أن نختمَ المقامَ بعلامةٍ كبرى من علامة هذا الختم من إحدى علاماته المحالِ عليها قبلُ، وهي كالأم لكلماته، فلا شرفَ له فوقها، إلا أن يكون الترقى فيها:

فاعلم أنا قدّمنا أن القطبَ إنما هو بالنسبة لهذه الرتبة ككاتب الديوانة، فهو من وراء حجاب، بخلاف هذا الختم، فيُكشَفُ له عن الذات باعتبار صُرافة الصُرافة من الذات للذات بالذات للذات، فينمحق تحت سُرادات كبريائها، ويتجدّد عليه الاضمحلال عند بدو سلطنة هيمنتها، ولنقص عليك بعض البيان: فإنه يسافر تدلياً من:

١ - مقام أثرات نزول الرب في الثلث الأخير من الليل.

٢ - ثم يسافر إلى كمال تنوية استيفاء التحقّق بالأسماء الذاتية والنعوت الصُفاتيّة والأوصاف الأفعالية، فيصهرها في عنوان الإجمال والتفصيل، ويتدرّع بالهيبة، ويَتَوَجُّ بالعظمة.

- ٣ - ثم يسافر إلى الأمهات فيعرفها بالذات .
- ٤ - ثم يسافر إلى مقام: مفاتيح الغيب، يَسْبَحُ في فلكها وَيَعْلَمُ مقتضياتها على ما هي عليه .
- ٥ - ثم يسافر إلى مقام: البحتية الساذجة، فيكون كالهَيُولَى قابلٌ لكل تَجَلٍّ من المعاني والصور .
- ٦ - ثم يسافر إلى مقام: جَمْعِ الجَمْع .
- ٧ - ثم يُلقَى في ساحل الفروق الثنوية، آخِذاً بالله، ومانعاً بالله، ومعطياً بالله، وزاجراً بالله، وراحماً بالله، فامتطاها فتنشأت له أجسامٌ نورانيةٌ غيرُ الأجسام الطبيعية .

وهذا العلم، وهذه العلامة من إحدى فروق بين الغوث والختم .

واعلم أخي أنه إذا وصل لهذه المكنة، فتصير رتبته في العالم رتبة المأموم مع الإمام في الصلاة، فتراه مُعْشَوِّباً في أرض العبودية، آخِذاً بالخط الأوفر منها الذي لم يُعْطَهُ أَحَدٌ من أهل عصره، ورائة محمدية، إلى أن يكون هو العبد المحض، كما كان في عالم الحرية، وليست عبودية كعبودية الأفراد، أو الأقطاب /١٦/، أو أهل الصديقية، أو أهل الشهادية، لا، لا بل عبودية أوسع من كل رتبة كما أن حرته أفسح من كل رتبة، فكان صاحب عبودية وعبودية وعبادة .

ولأجل هذا قلنا فيه إنه كالمأموم مع الإمام، ولا ميزة أن المأموم ليس له من الأمر شيء مع الإمام، ومقامه في هذا المقام من القرآن: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، وحاله حال مَنْ له كل شيء وليس له من الأمر شيء .

فلأجل ذلك يزهدون في الخوارق الكونية، ويؤثرون عليها صلاة ركعتين لعلمهم بما تقتضيه منهم شؤون الربوبية، وعلمهم بما خُلِقُوا لأجله، فيقولون: نحن قلبُ العالم وهو قلبُنا، وشرفُنا به، وشرفه بنا .

ولكن أين مَنْ أنا منه وهو مني ممن أنا منه وليس هو مني، كما لا تجعل من هو مني أنا منه، فكانوا خلافاً على الحقيقة، وتراهم يُسَفَّهُونَ آراءَ من يميلُ للآثرات الكونية، ويُجهِّلُونَهُمْ، ويقولون إنهم عُمِّيٌّ بِلَهٍّ غُلْفٍ، ويقولون: إن الكرامة التي لا تُوازى: ما أقيموا هم فيه من كون تنفُسٍ من أنفاسهم يقوم مقام عبادة الثقلين، ولو قُدِّرَ أَنْ جَمِيعَ الْعَالَمِ غَفَلَ عَنْ اللَّهِ وَذَكَرَ مَنْ هُوَ عَلَى هَذَا النَّمطِ، قَامَ ذِكْرُهُ مَقَامَ ذِكْرِ جَمِيعِهِمْ أَنْ لَوْ ذَكَرُوا، بَلْ لَوْ فُرِّقَ عَلَيْهِمْ لَمَّا عُدُّوا مِنَ الْغَافِلِينَ.

فهذه الكرامة التي لا يقدر عليها كلُّ أحد، ولا يَسْتَوِرُ محرابها كلُّ منتطع.

فهذه علاماتٌ ثانيةٌ أيضاً من أعظم علاماته كنتُ في إبرازها كالمجبور بعد ما كنا اكتسبناها، وقد ذكرتُ قبلها أخرى أحفلَ منها، كما ذكرتُ أخرى أفيحَ منها وأجمل، والله ذو الفضل العظيم.

كما ذكرتُ أخرى أمثلَ منها وأرشح، كما ذكرتُ قبلها علامةً أخرى أنصَحَ وأكمل، بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير.

[العلوم التي انضم عليها هذا المحل]

وقد انضم هذا المحلُ على عدة علوم أيضاً، منها:

— علمُ الأعالي والأداني،

— وعلمُ التشابه في التجلّي، وليس عينَ الذي قبله، بل غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْيَثْلُهَا﴾ مع أنه لا مثلَ في العالم، بعد قوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ يُلْغَى عَنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فبان أن التجلّي على نوعين: نوعٌ فيه التشابه مع ما قبله أو الحاضر، ونوعٌ صِرَفٌ لا شُفُوفَ فيه، وعلى الأول يُفهم قول القرآن: ﴿أَوْيَثْلُهَا﴾، وعلى الثاني يُفهم: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، تأمل.

- وعلمُ الأسفار،
- وعلمُ مناهل السفرِ العَذْبَةِ،
- وعلمُ المناهل التي يُخَصَّرُ بها،
- وعلمُ ما يُعَيَّنُ على الإدلاجِ في السفرِ،
- وعلمُ الأسبابِ التي تعوق عن السفرِ،
- وعلمُ السفرِ الذي يلحق صاحبه، والسفرِ الذي لا يلحق، فإن صاحبَ الظل لا يُلْحَقُ ظله^(١).
- وعلمُ ما ينبغي أن يُعَلَّمَ / ١٧ / ولا يُجْهَلَ،
- وعلمُ ما لا يؤبَّه بالجهل به،
- وعلمُ ما يدخل تحتَ تحتِ القدرة الحادثة وما لا،
- وعلمُ ما لا يصح أن تُلْحَقَ به المَذامُ في العالم، ولمَ لا يصح ذلك،
- وعلمُ ما هو علمٌ وليس بعلم،
- وعلمُ ما هو جهلٌ وليس بجهل،
- وعلمُ التناكُحِ للتناسل والتناكُحِ لا للتناسل، ومَنْ الأرفعُ منها، وعدمُ^(٢) مطلوبيةِ الثناءِ في أوقاتٍ خاصةٍ دونَ غيرها،
- وعلمُ الاكتفاء منها بقدرِ معلومٍ في بعض الأحيان، مع أن الأزمنةَ والحالاتِ تطلبُ ذلك،
- وعلمُ الاعتناء بالنشأة الإنسانية مع أنها إنما خُلِقَتْ في كَبَدٍ وتعَبٍ وشقاء، وهَلَا لم يَعتَدَّ بها لما خلقت لذلك.
- وعلمُ التفاضل وكيف صح مع اتحاد الأسماء في المدلول،
- وعلمُ الفرقِ بين الرياضة الإلهية والرياضة الخلقية،

(١) بياض في الأصل.

(٢) كذا في المطبوعة، وربما هي: وعلم.

— وعلمُ الحاملِ للعلماء بالله إن استظهروا في كلماتهم بما تشبه أن لا تكون ملتزمةً مع أنه يُنافي رعايةً انتساق الكلمات وأساليبِ التفانين، فإنهم عند الكتابة بحسب ما يُلقى عليهم مَلَكُ الإلهام، ومَلَكُ الإلهام أعرفُ بِقِيَاب الحروف ومنازلها وموادها، وعملتها وسدانتها وحُجَّابها وسلاطينها وخُلَافها، فكيف يُلقى ما ليس بملتئم، إنما المرتسمة^(١) لما وقفوا مع ظواهر الألفاظ ولا رائحةً من علم الوُفْب اللدني: تقفُصوا، فأنحجبوا، فوقفوا، فأساؤا الظنون.

فمن علومهم من العلم الذي هو كهينة المكنون ولا يعلمه إلا العلماء بالله كما في الحديث الصحيح عند أهل الكشف: «إن من العلم كهينة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا تكلموا به أنكره أهلُ الغيرة بالله»^(٢).

ألا ترى لقوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فإنها جاءت بين آيتي نكاح، وإنهم يظنون أن لا مناسبةً بينهما، مع أن المناسبة ثمة من العلم السري، فثم مناسبة بين الصلاة وما قبلها كالذي بعدها، فافهم.

وأي مناسبة بين كون الباء من البسملة متعلقةً بمحذوف مع كون بعض العارفين أملئ فيها السنين المتطاولة، وهل ليس ثم ارتباط بين الباء والسين والميم؟! بل والكلمات الأربع؟!.

ولكن مَنْ لم يطلع عليها قال: إن «اسم» زائدة، على مذهب الكوفيين، مستندلاً بقول / ١٨ / :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا ومن يَبِكِ حَوْلًا كاملاً فقد اعتذر^(٣)

(١) المقصود: أهل الرسوم والظواهر.

(٢) ذكره في «الترغيب والترهيب» (١: ١٠٣)، والسيوطي في «اللاقي المصنوعة» (١: ١١٥).

(٣) انظر تفسير الإمام ابن عادل عمر بن علي الحنبلي (١: ١٢٥).

النفاثس الكتانية

١١

التأنيّة الكتانية

نظمُ الشيخ الأكبر

الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني

المستشهد بفاس سنة ١٣٢٧ هجرية

رضي الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وسلم

التَّائِيَةُ الْكَتَائِيَّة

سَقَتْنِي بِشَرِّ الْوَصْلِ قَهْوَةً حُسْنِهَا	مُسْتَعْمَةً دَارَتْ بِالْحَانَ نَشَاتِي
فِي سَاقِيَا مَهَلًا، فَمَا رَوَيَْ الْحَشَا	أَدْرَاهَا عَلَى سُرِّي بِحَانَاتِ حَضْرَةِ
سَكِرْتُ؛ وَلَكِنْ مِنْ مُعَيَا جَمَالِهَا	فَطَلَعْتُهَا سُكْرِي كَكَاسَاتِ خَمْرَةِ
وَشَاهَدْتُ مَعْنَى الْحُسْنِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَوَتْ	بِعَرْشِي، فَصَرْتُ الْعَيْنَ مِنْ بَعْدِ كَثْرَةِ
هَنَّاكَ انْمَحَى عَنْ فَرْقِ نَقْطَةٍ غَيْنِهِ	وَصِرْتُ وَرَاءَ الْجَمْعِ مِنْ جَمْعِ شِكْلَةٍ
دَنْتُ، فَتَدَلَّتْ فِي مَهَامِهِ ذَاتِهَا	لِذَاتِ لَهَا ذَاتٌ إِلَيْهَا تَذَلَّتِ
سَجَدْتُ لَهَا عِنْدَ التَّدَانِي مَلِيَا	بِمَحْرَابِ مَجْلَى الْجَمْعِ مِنْ بَعْدِ خَيْرَةِ
وَغِبْتُ بِهَا عَنِّي، وَصَرْتُ وَرَاءَ مَا	يُشَاهَدُ مِنْ حُسْنٍ بِكُلِّ كَلْبِي
وَأَبْصَرَهَا لَخْطِي، وَ ذَلِكَ لَخْطُهَا	فَكُنْتُ بِهَا مِنْهَا بِصِيرًا بِجَمَلَتِي
وَقَدْ وَرَاءَ الْحُسْنِ مَعْنَى شَهْدَتِهِ	بِمَهْمَةٍ غَيْبِ الْقُدْسِ فِي طَيِّ حُلَّةِ



سَمِعْتُ الدَّاءَ مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ: «مَرْحَبَا	وَأَهْلًا بِمَعشوقي لِسِرِّ هُوِيَّتِي»
غَرِيبُ أَنْيْسٍ عَرْشُ بَدْرَيْنِ لَا بَسُّ	لِضِدِّينِ مِنْ شَمْسَيْنِ، لَوْنَانِ حُلَّتِي
أَحَاطْتُ بِكُلِّي يَوْمَ كُنْتُ مَلِيَا	بِمَحْرَابِ مَجْلَى الْجَمْعِ مِنْ دُونِ سِتْرَةِ

مجردة عذراء يَنْسِي جمالها
لقد ظهرت في الكل عينا بكلها
تبدت بتلوين به احتجبت، وقد
عشت ملاح الكون من أجلها، وما
تبدت مبادي الجمع من لوح جمعها
رسوم بدت من غيب لوح بطونها
مطلسة تبدو على عهد كنزها
«هولي» هباء الغين من جوهر العمى
تقدمت قبل الكل؛ إذ بي وجوده
أنا الأول الثاني، أنا الظاهر الذي
أنا نقطة الباء المجردة التي
أنا كثر غيب «الهُو» في غيب «هُو»
تفردت بي عني بِمَهْمِه مَهْمِهِي
أنا كل كل الكل طَلَسَم طَلَسَم
كذاك بشكل الجن في الأرض قبلكم
وقد صرت في تكذيب رُسلي موجهها
كذاك بأطوار الشياطين جثتهم
وما هذه الأشكال مني غيرت
تطورت في كل المظاهر، وانتهت
فليس ورا مَرَمَائِي مَرَمِي لذي هوي
وكل زوايا الكون أضحت مَقَرُّ مُدَّ

ملثمة بالعين، عيني وقبلتي
فما ثم إلا الكل في كل وجهة
تجمعت الأضداد فيها لسرة
رايت سواها في الحقيقة لبت
بظل خطوط الشكل من رسم نقطة
إليها معاني الذات تُجَلَّى بصورة
بلون «الأنا» في «الهُو» بل كل صبغة
فمني تبدى الكل من بسط نقطة
تأخر بعد الكل ناسوت صورتي
بَطُنْتُ بسر الغيب من بين إخواني
أنافت على الأفلاك يوم دُجْنَة
بظلمة نور الذات ذات هُوِيَّتِي
فما ثم غيري ظاهراً في أُنْيَتِي
بذاتي خلت ذاتي بكاسات خمرة
فصرت لهم رُسلاً لتحقيق حجلي
لهم حجج الإبطال شأن رَعِيَّتِي
ظهرت به حُكماً لحكمة حكمني
صفاتي، ولا أبدت سواي لنسختي
إلي، سَرْتُ في كثرتي أَحَدِيَّتِي
تجمعت الأضداد في فرد كثرتي
وسعت جمال الحق حقاً بجملة

ودونك حُسْنِي، فاشْهَدْنَهُ مجرداً
تَدُلُّ بِأَنْسِ البَسِطِ فِي حَضْرَةِ الْمُنَى
عَلَى نَعْتِ فَرْقِ الْجَمْعِ مِنْ قَافِ قَوْنِي
عَلَى عِزَّةٍ تَبْدُو بِكَهْفِ هُوَيْسِي



فَهَيْتَا اسْقِنِي خَمَرَ التَّدَانِي، وَوَاصِلَنْ
وَلِي زَفَرَاتُ أَبْلَتِ الْكَوْنِ جَهْرَةً
وَكَمْ سَهَرْتُ جَفْنُ الْكُتَيْبِ تَرْقُبَا
أَنُوحُ عَلَى الْأَطْلَالِ كَيْمَا أَرَى بِهَا
أَذَابَ فَوَادِي سَحَرُ عَيْنِ جَمَالِهَا
فَمَا فِي الْحَشَى مَجْلَى لَغَيْرِ سَهَامِهَا
أَغَارُ عَلَيْهَا أَنْ أَرَاهَا، وَإِنَّمَا
إِذَا زَمَزَمَ الشَّادِي طَرِثُ تَهْثُكَا
أُبْرُدُ مَا بِالْقَلْبِ لَوْ كَانَ نَافِعَا
تَلَدُّ لِي الْعُذَالُ فِي جَنْبِ حَبِهَا
عَلَى مِثْلِهَا أَفْنَى وَأَبْلَى تَحِيرَا
كُؤُوساً بِأَلْحَانِ عَلَى عَهْدِ نَشَانِي
إِذَا بَرَزَتْ ضَاقَ الْفَضَاءُ لِلْوَعْتِي^(١)
لِطَيْبِ خِيَالِ الْحَسَنِ مِنْ قَرْطِ حَيَرَةٍ
مُشَابِهَ جَسْمِي فِي تَلَاثِي وَغَرِبَتِي
وَلَيْتُهُ كَرَّمَا عَلَى عِزِّ سَطُوسِي
وَرَقَصُ السَّوَى فَرَضُ عَلِي لَغَيْرَتِي
غَرَامِي بَدَا فِي الْكَوْنِ يُنْدِي قَضِي
عَلَيْهَا، وَفَاضَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ قَضِي
تَوَقَّدَتِ الْأَصْرَامُ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ
فَمَا ثَمَّ إِلَّا الْحَسَنُ فِي كُلِّ رَتْبَةٍ
وَأَرْقَصُ فِي الْأَغْلَالِ مِنْ قَرْطِ لَوَعْتِي^(٢)

(١) ذكر الإمام الباقر رحمه الله تعالى في رسالته: «بيان حقيقة حول استشهاد الشيخ محمد الكتاني»، أن الشيخ رضي الله عنه تنبأ بمحتة واستشهاده في هذه الأبيات.

(٢) ذكر الإمام الباقر رضي الله عنه في كتابه «التاج المرصع بالجواهر الفريد في ترجمة الإمام الشيخ محمد الكتاني الشهيد» أن الشيخ رضي الله عنه كان كلما قرأ هذه الأبيات في «الحضرة»، يزعم والده جبل السنة رضي الله عنه، ويقول له: اسكت؛ بل: أرقص في السبحة. فكان يجيبه: وكان قضاء الله قدراً مقدوراً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً، ولما اعتزل ووالده وأهله عام ١٣٢٧ في سجن «أبي الخصيصات» بفاس حيث استشهد، تشوق وأهله وأتباعه للقيام بالحضرة، فقاموا ورقصوا حتى غلبهم الحال وهم مقيدون بالأغلال والسلاسل، فكانت تصديقاً لتنبؤه من قبل في الثانية وعمره (٢١) عاماً.

وُشَاةُ الْوَرَى تَسْعَى لَشَانَ مَهْيَسِي
تَفَانَيْتُ حَتَّى قِيلَ: لَيْسَ بِمُثَبِّتٍ
بِخَلْوَةِ سِرِّ السَّرِّ دُونَ أَيْتِي
تَوَقَّعْتُ فِي سِرِّي بَوَّجْدِي وَحُرْقِي
عَلَى الْعُودِ، وَالْمِزْمَارِ، فِي كَفِّ قَيْنَةٍ
فَلَوْ أَنَّ الْأَنَا فِيهَا كَلَوْنَ الْمَيْتَةِ

تَفَانَيْتُ عَنْ حِسِّي وَجَنَسِي وَقَدْ غَدَّتْ
وَفِي غَيْبَةٍ^(١) عَنْهَا وَعَنْ زُخْرُفَاتِهَا
رَوَيْدَكُمْ، أَبَدْتُ مَعَانِي جَمَالِهَا
خَلَوْتُ بِهَا رَغْمًا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَمَا
سَقَانِي الدُّجَى خَمْرًا بِكَاسِ دَوَائِبِ
هِيَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنَّ ذَاتِي سَمَّاؤُهَا



بِهَا هُوَ إِيَّاهَا، وَإِيَّاهُ حُلَّتِي
أَدِيرْتُ بِهِ مِنْ قَوْسٍ وَثَرٍ هُوَيْتِي
فَشَاهَدْتُ عَيْنَ الْعَيْنِ فِي طَيِّ بُرْدَتِي
فَصَرْتُ لَهُ مَعْنَى لِلطُّفْلِ حَقِيقَتِي
كَثِيبُ قَتِيلُ الْحُسْنِ أَقْصَى حَضِيرَةٍ
فَصَارَتْ مَعَانِي الْحَفَنِ تَفَتِكَ جَمَلَتِي
بِي السَّفْنُ الْعَرَجَا عَلَى سَطْحِ لُجْنِي
فَصَارَتْ عَلَى مَتْنِ الْقِفَارِ تَفَتُّنِي
عَلَى إِثْرَهَا يَوْمَ الْمَعَارِكِ بُغْيَتِي

تَبَدَّتْ عَلَى كَاسٍ فَكَانَ لِلطُّفْلِ
لَأَنَّهُ عَيْنُ الْعَيْنِ وَالتَّفْعِلَةُ الَّتِي
لَقَدْ لَاحَ^(٢) ظِلُّ الْعَيْنِ فِي شَمْسِ عَيْنِهِ
أَبَاحَ الْهَوَى سِرِّي وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُهُ
غَنِيٌّ فَقِيرٌ مَفْلَسٌ مَتَهَتَكَ
تَذَلَّلْتُ مَذْ لَاحِظْتُ مَعْنَى جَمَالِهَا
تَغَرَّبْتُ عَنْ الْفِي وَكَمْ قَدْ تَقَاعَدْتُ
وَكَمْ لَعَبْتُ أَيْدِي الصَّبَا بِعَقُولِنَا
وَكَمْ قَدْ تَوَلَّيْنَا وَذُبْنَا صَبَابَةً



وَيَذُّ كَشَافَاتِ الْعُنَاصِرِ صِبْغَةٍ

فَعَلَّ جَمِيعَ الْكُونِ وَاصْرَمَ حَبَالَهُ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ: وَفِي غُيَّةٍ.

(٢) فِي بَعْضِ النُّسخِ: طَاحَ.

فذلك أدنى المَقْتِ، والباب سَدَّتْ
ولا تَعْبَانِ بالمبطلين لِشِرْعَةٍ
وَقُرْبَتَهُمْ فالباب منهم لحضرة
يجرُّ إلى التشكيك في سرِّ كلمة
تجلى بتلوين على لون قبضة
مُؤَدِّ إلى تقييد عقلٍ وصورة
هو الغرض الأقصى ونيل الطريقة
فذاك مراد الحق عين الخليفة
يُرْقَى على الأفلاك فوق المجرة
زُ والنيل للخيرات في كل رُتْبَةٍ
هو المقت في الدارين بين البرية
فذاك هو الإغواء أصل البليَّة
هو الآية الكبرى وسُبُل المَحَجَّة
مُضِرٌّ، ولإرخاء بادٍ بشهوة
يَقْسِي عليك القلب في كل مَرَّةٍ
على الزُّبُلِ إن شئت المعالي بسرعة
علامة إيمانٍ وَمَرْجِ المودة
تقوم بأمر الحق أمر الأخوة
طبائع لأحرارٍ نَأْوَا عن كثافة

وحسُن ظنوناً بالورى لا تُسِيءَ بهم
ودونك بحر الشرع فالزم سبيله
ودونك أهل الله فالزم وِدادهم
ولِيَاكَ والتدبير للرزق إنه
ولِيَاكَ والتجبر للحق إنه
ودونك فكر الوهم فالغيه إنه
ودونك والتجريد للقلب إنه
ودونك والإطلاق في كل ما ترى
ودونك ذل النفس فابغِه إنه
ودونك حسن الظن فهو المُنَى والغو
ولِيَاكَ سوء الظن بالمرء إنه
ولِيَاكَ والإعطاء للنفس حقها
ودونك^(١) والتمزيق للعرض إنه
ولِيَاكَ والإكثار للأكل إنه
ولِيَاكَ والإكثار للنوم إنه
ولِيَاكَ أَنْ تُبْقِيَ^(٢) لنفسك، والقها
ودونك وُدُّ الودِّ فاحفظه إنه
ولا تَنَسَّ بين الأعادي لأجل أن
ولا تَنَسَّ مَنْ أولاك خيراً؛ لأن ذا

(١) في المخطوطة بخط الإمام السيد محمد الباقر الكتاني: ولياك. وأثبتها كما في المطبعة الحجربة.

(٢) في بعض النسخ: أن تنسى.

لأنَّ شهودَ الحقِّ يَفْنِي البقيةَ
وَأَلْقَى وجودَ الظلِّ في ماءٍ وِخْدَةٍ
تَفَانِي عن الإحساسِ لَمَّا تَجَلَّتِ
وصارِمِ شكوكِ العقلِ في شأنِ سجدةٍ
لكي تَنزَوِي عنك البقايا الكثيفةَ
مَحَلًّا لِنَفْسِ الرُّوحِ إرثِ النبوةِ
ودَغَّ عنك أريابَ الدَّعاوي السَّخِيفَةِ^(١)
على الكونِ في حاناتِ جمعِ الأحبةِ
صَقِيلٌ لمرآةِ الفؤادِ الصُّدِيَّةِ
فإنَّ فناءَ النفسِ شرطٌ لوُضْلَةٍ
تَبْدَى على كلِّ بأحسنِ صورةٍ

وإياكَ والأغيارَ لا تَكْثُرْ بِهَا
وَطَهَّرْ قَبِيلَ العصرِ كُلَّكَ مخلصاً
وَكَبِّرْ على الأكوانِ تكبيرَ مَيِّتٍ
وَأَلْقِ مثالَ الظلِّ في صَبْحِ شمسِها
وَصَلِّ صلاةَ الجمعِ في فرقِ جَمِيعِهِ
تَصِيرُ بمرأى للخطابِ وَمَسْمُوعِ
فَتَحْتِيلًا بِالسُّكْرِ فيهاوِ وَأَوْصِلَنْ
وَشَقِّ عليها القلبَ والثوبَ واشطَحَنْ
ودونَكَ والإكثارَ للذكرِ إِنَّهُ
وَمَزَّقَ ثيابَ العِزِّ في جنبِ وصلها
تَنَزَّهَ عن الشريكِ الخفيِّ فإنه



مَحَجَّتْهَا اليَضا وَأَوْثَقَ عُزْوَةً
مراتبَ فوقِ الفوقِ من بينِ إخوتي
جليسَ بساطِ القربِ من فتحِ خُوختي
أتتْ برقيقِ الغزلِ إرثِ النبوةِ
حُضيرةَ قُدْسِ القَيْضِ مِنْ وَشِي حُلَّتِي
بِإِذْنِ رسولِ الله شَيْخِي وَهُمَدْتِي
على صَنَمِ الأجرامِ حينَ شَبِيتِي

ودونَكَ مَرْمَانًا، فَرُمُهُ لَانَهُ
طَرِيقُنَا أَرَبَتْ على القُلُوكِ تَبْتغِي
سَلَالَتُنَا فَاقَتْ سُلَالَةً مَن غَدَا
سُلَافَتُنَا نَمَّتْ على سَطْحِ حَانَةِ
لِوَاؤُنَا خَفَاقٌ على كُلِّ مَن دَنَا
أَتَبْنَا بِغَزَلِ الفَتْحِ من حُضرةِ الْغِنَى
فَعَنهُ أَخْلَدْنَا مَا تَدَلَّقَ جَهْرَةً

(١) في بعض النسخ: السجفة.

نَجْرُ دُيُولِ الْعِزِّ فِي جَنْبٍ وَضَلِهِ
 بَدَائِشُنَا فَاقَتْ نَهَابَةَ خَيْرِنَا
 لَنَا الدَّوْلَةُ الْعُلْيَا لَدَى الْهَوْلِ نَرْتَقِي
 لَقَدْ رَكِبَتْ مَثَنَ السَّعَادَةِ وَانْثَنَتْ
 وَحَازَتْ سَعَادَاتٍ تَقَاعَدَ دُونَهَا
 قَدْ افْتَلَقُوا مِنْ أَيْمَنِ الْقَبْضَةِ الَّتِي
 كَذَا كُلُّ مَارٍ فِي الطَّرِيقِ رَأَهُمْ
 عَلَى رَغَمِ أَهْلِ الْبُعْدِ نَالُوا مَفَاخِرًا
 وَمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْمَعَارِكِ شَمْنَا
 وَمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْمَعَارِجِ عَابْنَا
 كَذَا كُلُّ مَنْ وَلَّى بِجَنْبِهِ مُغْرَضًا
 لَنَا الْخَوْضُ فِي بَحْرِ الْعَجَائِبِ جَهْرَةً
 وَمَنْ رَامَ مَنَحَى فَلْيَرْمُهُ، فَعِنْدَمَا
 عَلَى رُتْبَةٍ قَعَسَا بِأَقْصَى حَضِيرَةٍ
 فَلَيْسَ الثَّرِيًّا لِلثَّرَى بِقَرِينَةٍ^(١)
 عَلَى نَهْجِ بَحْرِ الْفَضْلِ قَطْبَ الْمَجَرَّةِ
 عَنِ الطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ، بَلْ كُلُّ شِفْوَةٍ
 أَسْوَدُ الْوَرَى مِنْ أَسْوَدِ مَرْكَزِ نُقْطَةٍ
 حَبَّتْهُمْ فَحَازُوا الْفَضْلَ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
 حَبَّتْهُ سَعَادَاتُ فَنَازَ بِبُغْيَةٍ
 فَحَيَّهَلَا بِالْقُرْبِ مَنَا لِحَضْرَةٍ
 فَأَبْدَى عَشِيرَ الْعُشْرِ فِي شَأْنِ صُخْبَةٍ
 وَأَنْكَرْنَا، وَالْجَهْلُ شَأْنُ الْبَرِيَّةِ
 عَنْ الصَّدَقِ وَالْتَّصَدِيقِ بَابِ زَوَيْي
 وَلَسْنَا أَسَارَى الْغَيْرِ فِي فَتْحِ عُجْمَةٍ
 يُرَجِّى الثَّلَاقِي تَنْزَوِي غَيْنُ شُبْهَةٍ

نمت بحمد الله تعالى^(٢)

(١) في بعض النسخ: بقرينة.

(٢) انتهى ما وُجِدَ من تَأْيِيدِ الإمام أبي الفِضْلِ بن عبد الكبير الكَتَانِيّ المُسْتَشْهِدِ سَنَةِ ١٣٢٧هـ بفلس، ونقلها سبط حَفِيدُهُ أَبُو اللَّيْثِ مُحَمَّدٌ حَمَزَةُ بْنُ عَلِيٍّ الْكَتَانِيّ نُورُهُ اللهُ مِنْ كِتَابِ «الْخَرَائِدِ الْعَرَفَانِيَّةِ مِنْ دِيْوَانِ الْحَضْرَةِ الْكَتَانِيَّةِ» لَجَدَّنَا ابْنِ الْمُصَنَّفِ الإمام مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ رُوحِ اللهِ رُوحُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَرَاجِعُهَا أَخُوهُ حَسِينٌ مِنْ «الْجَوَاهِرِ الْفَرَقَانِيَّةِ» فِي تَخْمِيسِ النَّاتِيَةِ الْكَتَانِيَّةِ، لَجَدَّنَا الإمام مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ، وَذَلِكَ صِيحَةً يَوْمَ الْأَحَدِ ١٤/٨/١٤١٥هـ وَقَالَ: فَوَلَّقَنِي اللهُ لَخْدَمَةِ أَوْلِيَائِهِ وَسَفَانِي مِنْ بَحْرِ كُشُوفَاتِهِمْ وَفَتْوحَاتِهِمْ آمِينَ آمِينَ آمِينَ.

الفهرس التفصيلي للمحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق بقلم الشريف حمزة الكتاني	٧
موضوع هذه الرسائل	٩
ترجمة المؤلف	١١
شيوخه	١٣
قيامه بالدعوة والإرشاد	١٧
ابتلاؤه بمراكش	١٨
الرجوع إلى المغرب واستشهاده	٢٠
تلاميذ المؤلف	٢١
مؤلفاته	٢٣
ثناء العلماء عليه	٢٦
التعريف بهذه الرسائل	٢٩
عملنا في تحقيق هذه الرسائل	٣٥
الرسالة الأولى: رسالة المواخاة	٣٧
شروط المواخاة الدينية	٤٢
المساواة والعدل	٤٣
الإخلاص في الدعوة إلى الله والنصح	٤٣
لا يحدث من الصدع بالحق ضرراً أصلاً	٤٤
الرسول ﷺ يتكلم في منازل الكمال	٤٧
من أسباب تقدم الأجانب	٤٨
من أسباب انحطاط الأمة: إهمال من نبغ فيهم	٤٨
من أسباب الانحطاط: عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٤٨
التناصح بين الإخوان لله	٥٢
بعض مزايا الطريقة الكتانية	٥٣
الاهتمام بمسائل المعاملات	٥٤
العدل بين الناس والإنصاف	٥٤
ترك حظوظ النفس	٥٥
ترك المداينة والتفاق	٥٦
الاهتمام بشؤون العبادة والإكثار من الذكر	٥٧

الموضوع	الصفحة
ترك العداوة والبغضاء، والتزام محبة المسلمين	٥٩
أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضى عن النفس	٥٩
الدعوة إلى الله تعالى	٦١
من أسباب الانحطاط ترك العمل بالحديث وصحيح المذهب وعدم مجالسة	
الورثة المحمديين	٦١
الحث على المذاكرة وسرد الحكيم العطائية	٦٢
الدعوة إلى تأليف رسائل في الطريق	٦٤
من أسباب الانحطاط ذكر الأحكام مجردة عن أحكامها	٦٥
الحض على مقاومة الإعلام الأجنبي	٦٦
الحض على المذاكرة في الأمور الدوقية	٦٧
الخاتمة: في الحض على عدم الغفلة عن الله تعالى	٦٨
الرسالة الثانية: سفينة المحبة	٧١
صفة الصديق الحق	٧٥
أركان سفينة المحبة:	٧٦
الركن الأول: الصبر	٧٦
الركن الثاني: الشكر	٧٦
الركن الثالث: التوبة	٧٨
الركن الرابع: الحياء	٨٥
أهمية الصحبة	٨٦
الدعوة إلى تفقد الإخوان ومحبتهم	٨٧
الخاتمة	٩١
الرسالة الثالثة: نسخة من غلب عنه المطرب	٩٣
المقدمة: في العدل	٩٨
سر تحسنا على المعترض علينا من أهل الغفلة	١٠٠
سبب اختلاف الطبائع في الإنسان	١٠١
حال صوفية الزمان	١٠٣
الفرق بين من أحبك لك ومن أحبك لنفسك	١٠٥
جلل الأفهام أشد من جلل الأجسام	١٠٦
خصائص النفس لا تزول	١٠٧

الموضوع	الصفحة
صاحب الهمة لا يفتخر بالإقبال ولا بالإدبار	١٠٨
هذا العالم ليس بمستقر ، ولكن مجازاً للمستقر	١٠٩
رفع الهمة أساس الكمال	١١٠
من تمام عقل المرء عدم الشكوى إلى الآخرين	١١٠
يجب عدم ترك المشورة	١١٢
لا بد من الخليل أن يكون وزيراً	١١٣
العلم الإلهي وحال المصنف في زمانه	١١٣
رؤيا منامية للمصنف رضي الله عنه	١١٤
حوار بينه وبين نفسه	١١٥
الفرق بين المحدث والمناجئ والمكلم	١١٦
البقية لا تفنى ولا تعد ، وجميع الوجود عابد لله بطريق القهر	١١٧
ما قدر الحق علينا المعاصي إلا في بساط التشريف لنا	١٢٠
لولا المعاصي ما ظهرت مقتضيات عدة من الأسماء الإلهية	١٢١
العهد القديم ونكران الناس	١٢٤
الروح مجبولة على محبة الأشياء الحسنة	١٢٥
السر في إبرازنا لعالم الحس	١٢٦
الأصل هو الاستفراق في عالمي الحس والمعنى	١٢٧
الرسالة الرابعة : الفرق بين الواردات الرحمانية والملكية والنفسانية والشیطانية	
وكلام في طريقة التصرف	١٢٩
الفرق بين الواردات	١٣٤
تربيع القلب	١٣٦
الذكر يرد الخواطر الشيطانية	١٣٧
ملاحظة التورين الجامعين في الذكر	١٣٧
النور الجامع الأول	١٣٨
كيف يُستعان على استحضار صورته ﷺ في الذكر	١٣٩
لكل أمر من أوامر الشريعة سر يعلمه العلماء بالله تعالى	١٤١
النور الجامع الثاني	١٤١
كيفية الوصول إلى الصفاء الرباني	١٤٤
احتراس رسول الله ﷺ من تشتت الخواطر	١٤٤

الموضوع	الصفحة
تزيه الرسول ﷺ عن انطباع صور الكائنات فيه	١٤٥
محاربة الخواطر أثناء الذكر وطريقة ذلك	١٤٦
الكلام عن الفناء وأقسامه	١٤٧
نتائج تجمع الهمة أثناء الذكر والعبادة	١٤٩
تأثير الشيخ في المريء وكيفية ذلك	١٥٠
تعريف الهمة	١٥٣
طريقة رفع المرض عن المريض	١٥٤
طريقة التصرف في العاصي بإفاضة التوبة عليه	١٥٤
طريقة التصرف في قلوب الناس لإرساء المحبة بينهم	١٥٤
طريقة الاطلاع على نسبة أهل الله ومقاماتهم	١٥٥
طريقة الإشراف والكشف عن الخواطر	١٥٦
طريقة كشف الوقائع المستقبلية	١٥٦
طريقة التصرف بدفع البلية النازلة	١٥٧
الخاتمة: في شرط التصرفات السابقة	١٥٨
الرسالة الخامسة: الرسالة إلى أهل سلا في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ	
والحضر عليها	١٥٩
الحضر على الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ	١٦٤
الله تعالى يصلي على من يصلي على رسوله ﷺ	١٦٦
جعل الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ من الجاه ما لم يجعله لغيره	١٦٦
الله تعالى ملأ العوالم كلها بذكر رسوله ﷺ	١٦٧
لرسول الله ﷺ من النعم على جميع العباد ما استرقهم بها	١٦٨
الرسالة السادسة: وجوب الاقتران بذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى،	
وكلام في وجوب التزام الأدب	١٧٣
كلمتا الشهادة كلمتان متقارنتان	١٧٨
ما ذكر الله نعتاً من نعوته تعالى إلا وقرنه بنعت من نعوت حبيبه ﷺ	١٨٠
قرن الله تعالى اسمه باسم حبيبه ﷺ تشريحاً لنا	١٨٠
ما فرض الله سبحانه فريضة إلا وسن ﷺ سنة أو سنناً	١٨١
هذا الاقتران إما أن يقال: إنه جازم أو غير جازم	١٨٢
الأحاديث الحاضرة على ذكر رسول الله ﷺ والصلاة عليه في كل مجلس	١٨٥

الموضوع	الصفحة
التشديد على من خالف هذا الأمر	١٨٦
حال أغلب من خالف في هذه المسألة	١٨٧
التمسك برسول الله ﷺ موصل إلى كل خير	١٨٧
ذكر أسماء رسول الله ﷺ موجب لانطفاء غضب الله تعالى	١٨٨
مسألة الأخلاق المذكورة في آية: ﴿وَسَارِعُوا﴾	١٨٩
الإتيان بالمشروع والتقرب به إليه تعالى واجب	١٩٠
الدليل العقلي على وجوب اكتساب الأخلاق	١٩٢
دليل الطبع على وجوب اكتساب الآداب	١٩٣
خاتمة في سبب الاختلاف فيما ذكر من المسائل	١٩٣
الرسالة السابعة: الإجازة الطرقية وشروط وأركان الطريق	١٩٥
شروط الطريقة الكتانية	١٩٩
الشروط العامة	٢٠٠
أركان الطريقة الكتانية	٢٠١
التوبة	٢٠١
تصحيح مقام التقوى	٢٠٢
التماس المعاذر لسائر الناس	٢٠٢
نظرة التعظيم في سائر الموجودات	٢٠٣
مباني الطريقة الكتانية	٢٠٣
مشاهد الطريقة في حقه ﷺ	٢٠٤
(١) مشاهدته برزخاً بين المخلوقات وربها	٢٠٤
نتائج هذا المشهد	٢٠٥
(٢) مشاهدته أن له ﷺ على كل ذرة من ذرات الموجودات نعمة الاستمداد	
من الحق	٢٠٦
(٣) أن تشهده عند السلام في الورد	٢٠٧
(٤) أن تشاهده نوراً صرفاً	٢٠٨
نتائج هذا المشهد	٢٠٨
الدعوة إلى البحث عن الشبهات التي بين الحلال والحرام	٢٠٩
الشروط الخاصة	٢٠٩

الموضوع	الصفحة
الرسالة الثامنة: الوصايا الكتابية	٢١١
وصية: في حفظ الجوارح	٢١٧
وصية: في الصمت وترك فضول الكلام	٢١٧
وصية: في صلة الرحم	٢٢٣
وصية: في ستر عورات المسلمين	٢٢٤
وصية: في حفظ حقوق الجيران	٢٢٥
وصية: في زيارة الإخوان والأحباء	٢٢٦
وصية: في إنشاء السلام	٢٢٨
وصية: في المصافحة	٢٢٩
وصية: في ترك الجلوس في الطرقات	٢٣٠
• لطيفة	٢٣٢
وصية: في ترك الجدال	٢٣٤
• سائحة	٢٣٨
• تنية	٢٣٩
وصية: في ترك الخصومة	٢٤١
وصية: في ترك الغيبة	٢٤٢
حقيقة الغيبة وتعريفها	٢٤٦
الأخذ على يد المفتاب	٢٥٦
الخاتمة في أمور جامعة	٢٦٣
• فائدة	٢٦٥
الرسالة التاسعة: سفن النجاة وكهوف العباد	٢٦٧
العهد الأول	٢٧١
العهد الثاني	٢٧٢
العهد الثالث	٢٧٤
العهد الرابع	٢٧٥
العهد الخامس	٢٧٥
العهد السادس	٢٧٦
العهد السابع	٢٧٦
العهد الثامن	٢٧٧
العهد التاسع	٢٧٨

الموضوع	الصفحة
العهد العاشر	٢٧٨
العهد الحادي عشر	٢٧٩
الرسالة العاشرة: الأمالي في علم الأمهات	٢٨١
المقدمات	٢٨٧
وصل: الموجودات من حيث هي مرتبطة بحضرات الأسماء والصفات	٢٨٨
وصل: مقتضيات الأسماء والصفات في نفسها ليست متحدة	٢٨٩
وصل: مقتضيات الأسماء والصفات متحدة في مدلولها	٢٨٩
وصل: لكل اسم من الأسماء الإلهية مقتضى	٢٩٣
وصل: التجليات الإلهية دائمة التدفق على الدوائر الكونية	٢٩٥
وصل: التجليات لا تتشابه في نفسها أصلاً	٢٩٦
وصل: لا مشابهة بين العالم	٢٩٧
الكلام على مقامات الولاية	٢٩٧
الكلام على الختمية	٢٩٩
الختمية كبرى وصغرى	٣٠٠
بعض العلوم المضمّنة فيما مضى	٣٠٤
لا بد في العالم من التجلي، وأن التجلي الثاني أكبر من الأول	٣١٠
العلامة الكبرى للختم الأكبر	٣١٢
العلوم التي انضم عليها هذا المحل	٣١٤
الخاتمة	٣١٧
الرسالة الحادية عشرة: الثانية الكبرى	٣١٩
الفهرس التفصيلي	٣٢٩
الفهرس الإجمالي	٣٣٦

الفهرس الإجمالي للمحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق	٧
الرسالة الأولى: رسالة المؤاخاة	٣٧
الرسالة الثانية: سفينة المحبة	٧١
الرسالة الثالثة: نسخة من غاب عنه المطرب	٩٣
الرسالة الرابعة: الفرق بين الواردات الرحمانية والملكية والنفسانية والشيطانية وكلام في طريقة التصرف	١٢٩
الرسالة الخامسة: الرسالة إلى أهل سلا، في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ والحض عليها	١٥٩
الرسالة السادسة: وجوب اقتران ذكر رسول الله ﷺ بذكر الله تعالى، وكلام في وجوب التزام الأدب	١٧٣
الرسالة السابعة: الإجازة الطرقية وشروط وأركان الطريق	١٩٥
الرسالة الثامنة: الوصايا الكتانية	٢١١
الرسالة التاسعة: سفن النجاة وكهوف العباد	٢٦٧
الرسالة العاشرة: الأمالي في علم الأمهات	٢٨١
الرسالة الحادية عشرة: التائية الكتانية	٣١٩
الفهرس التفصيلي للمحتويات	٣٢٩
الفهرس الإجمالي للمحتويات	٣٣٦